الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

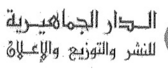
تأليف : روجيه قارودي

ترجمة : الدكتور رجب بودبوس









الولايات المتحدة
طليعة الانحطاط

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

تأليف: روجيه قارودي

ترجمة: الدكتور رجب بودبوس



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

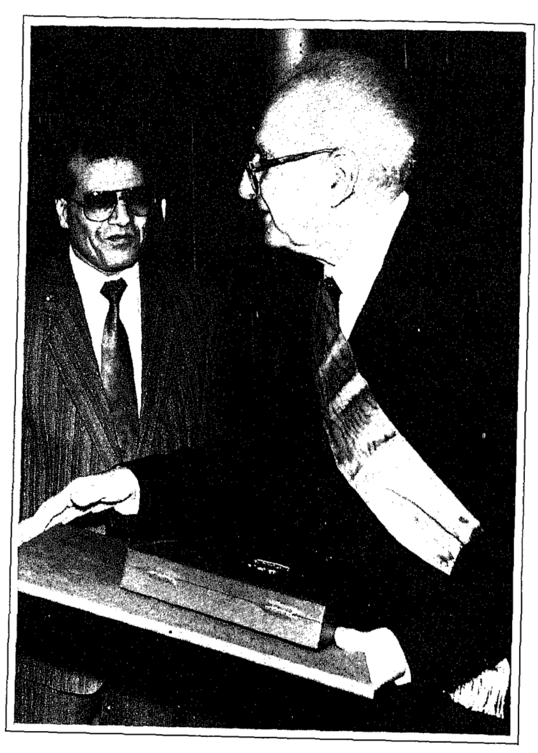
الطبعة الأولى: ناصر 1428 ميلادية (1998)

رقم الإيداع: 3276 / 98 ـ دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراتة: ص.ب. 17459 ـ هاتف: 614658 ـ 051 ـ 606086 ـ 021 ـ بريد مصور 619410 ـ 051

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى



روجيه قارودي خلال حفل توسيمه لوسام الفاتح. في حفل
جرى في معهد العالم العربي - باريس 30 - 10 - 1990
قام بالتوسيم الدكتور رجب بودبوس



المحتويـــــات

تقديم

روجيه قارودي مفكر فرنسي، ولد في مرسليا عام 1913، حائز على الاغريقاسيون في الفلسفة، والدكتوراه في الآداب.

عمل مدرساً في بداية حياته، وقد اعتقل خلال حرب 1939 ـ 1945، كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي عام 1945، وفي مكتبه السياسي عام 1956، انتخب نائباً عن «التورن» في المجلسين التأسيسيين ثم في الجمعية الوطنية الأولى. أعيد انتخابه نائباً عن «السين» عام 1956 ومن عام 1956 إلى عام 1958 عمل نائباً لرئيس الجمعية الوطنية الفرنسية كما عمل أستاذاً في جامعة كلير مونت فيران، ومديراً «للكراسات الشيوعية» وهي سلسلة منشورات تختص بالدراسات الشيوعية من منظور ماركسي.

في هذه المرحلة مثل قارودي الأرثوذكسية الماركسية، حتى فصل من الحزب الشيوعي إثر مواقفه من أحداث تشيكوسلوفاكيا عام 1968.

مؤلفاته في هذه الفترة، وحتى خروجه من الحزب الشيوعي، تعطي مؤشرات هذه النزعة الأرثوذوكسية:

1 ـ الماركسية والأخلاق	1948
2 ـ الأصول الفرنسية للاشتراكية العلمية	1949
3 ـ الكنيسة.. الشيوعية والمسيحيون	1949
4 ـ النظرية المادية للمعرفة	1953
5 ـ الحرية	1953
6 ـ الإنسانية الماركسية	1957
7 ـ أسئلة لجان بول سارتر	1960
8 ـ ماركسية القرن العشرين	1961
9 ـ مستقبل الإنسان	1961
10 ـ سيرة أراقون	1961
11 ـ الماركسية والوجودية	1962
12 ـ الله مات!	1962
13 ـ ما هي الأخلاق الماركسية؟	1963
14 ـ واقعية بدون ضفاف	1964
15 ـ كارل ماركس	1965

16 ـ من الجزم إلى الحوار 1965

17 ـ فكر هيجل 1966

18 ـ المشكلة الصينية 1967

19 ـ لينين 1968

20 ـ من أجل نموذج فرنسي للإشتراكية 1968

21 ـ هل يمكن أن نكون شيوعيين اليوم؟ 1968

22 ـ براغ 68 1968

بعد ذلك بدأت مرحلة البحث والحوار، والوضع موضع سؤال أرثوذوكسيته نفسها:

ـ من أجل الواقعية في القرن العشرين 1968

ـ تحول الاشتراكية العظيم 1969

ـ كل الحقيقة 1970

ـ استعادة الأمل 1971

ـ البديل 1972

ـ لا قدرية التاريخ 1973

ـ أرقص حياتك 1973

ـ 60 كتاباً تعلن المستقبل 1974

- مشروع الأمل 1976

- من أجل حوار الحضارات 1977

- كيف يصير الإنسان إنساناً 1978

- كلام إنسان 1978

- نداء إلى الأحياء 1979

مع ذلك ظل تأثير الماركسية فيه واضحاً رغم انفتاحه المتزايد على الأفكار والثقافات الأخرى.

رغم قناعاته الماركسية النظرية إلا أن الأحداث، وتجربة الاتحاد السوفييتي أقنعتاه بمخاطر وأضرار حصر الإنسان في بعد واحد: مادي. والذي يقود لا محالة إلى النظام الشمولي.

مع نداء إلى الأحياء 1979 بدأت إرهاصات توجه جديد تتحدد، وأخذت مسافته عن الماركسية تتسع:

- لا زالت الحياة ممكنة 1980

- وعود الإسلام 1981

- من أجل مجيء عهد المرأة 1981

- قضية «إسرائيل» 1983

- هل نحن في حاجة إلى الله؟ 1984

- المساجد مرآة الإسلام 1985

- سيرة القرن العشرين 1985
- فلسطين أرض الرسالات المقدسة 1986
- إسلام الغرب: قرطبة عاصمة الروح 1987
- ضد الليل - شعر 1987
- دون كيشوت 1988
- الشعر المعاش 1988
- السلفية الدينية 1991
- تذكر: تاريخ مختصر للاتحاد السوفييتي 1994
- نحو حرب الأديان 1995
- الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية 1996
- الولايات المتحدة طليعة الانحطاط 1997

* * *

محاولات الحوار التي بدأها بين الماركسيين والمسيحيين توسعت لتشمل حضارات أخرى، وخاصة الإسلام. هكذا الحوار كشف له محدودية المساهمة الغربية في حضارات الإنسانية، ومدى الأضرار التي ألحقتها الهيمنة الغربية بحضارات الإنسانية.

من هنا تفرع موقفه إلى:

1 - موقف نضالي، تمثل في مؤلفاته ابتداء من: براغ 68، قضيّة

إسرائيل 83، فلسطين أرض الرسالات المقدسة 86، السلفية الدينية 91، نحو حرب الأديان 95، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية 96، والولايات المتحدة طليعة الانحطاط 97.

2 ـ وموقف تمثل في اتخاذه منحى صوفياً انتهى به إلى إعلان إسلامه.

رحلة قارودي (طوافي خلال القرن وحيداً) طويلة وشاقة، بدأها ماركسياً أرثوذوكسياً لينتهي إلى التصوف من المادية المتطرفة النافية لأي بعد روحي للإنسان، إلى نفي المادية لصالح الروح. لكنه ظل أرثوذوكسياً: أرثوذوكسياً عندما انحاز للماركسية أرثوذوكسياً عندما جذبته الروح.

هكذا كل تطرف يقود من أقصى إلى أقصى طرف.

مؤلفاته علامات هذه المسيرة، إنها تسجل ما اعتمل في فكره وما جسدته مواقفه، إنها مسيرة باحث عن الحقيقة، كلما اعتقدها في متناول يده تكشفت بعيدة.

مع ذلك موقفه وعلاقته بالإسلام ليست جديدة، وليست مجرد ردة فعل عن احباطاته الماركسية. لقد بدأت هذه العلاقة عندما نشر في الجزائر عام، 1946 كتابه «المساهمة التاريخية للحضارة العربية الإسلامية». ثم وعود الإسلام 1981، المساجد مرآة الإسلام عام 1985، إسلام الغرب: قرطبة عاصمة الروح عام 1987. السلفية الدينية 1991، عظمة وانهيار الإسلام 1996.

قارودي ليس فيلسوفاً تقليدياً. صحيح أنّ أثر الماركسية لا زال واضحاً في انشغاله بقضايا الإنسان التاريخية. وظل مثابراً على هذا حتى بعد أخذه مسافة من الماركسية دون نفيها، ليضيف إلى تحليلاته بعداً روحياً تفتقر إليه الماركسية تماماً، لكن انخراطه في النضال السياسي، من أجل مقاومة الظلم والهيمنة تعمق. وهذا ما قاده إلى المحكمة بتهمة تدين الحضارة الغربية بقدر ما تشرفه.

لقد حوكم استناداً إلى قانون يمنع إعادة النظر في أحكام محكمة مجرمي الحرب النازيين، وفي الحيثيات التي قامت عليها.

هذه مسألة تاريخية صارت دوقماً، في محل أرفع من العقيدة الدينية. مما زاد في يقينه تفاهة أسس الليبرالية المزعومة. إنه لم يحاكم على كتابه «موت الله» 1962، لكنه يحاكم لأنه يعيد البحث في «واقعة تاريخية» في أرقام ضحايا النازية من اليهود - وليس من غيرهم! - والمبالغ فيها دون برهان. ولأنه وضع موضع سؤال حقيقة أفران الغاز، وكشف عن استخدامها مبرراً للسياسة الإسرائيلية المغتصبة لأرض فلسطين، من تسلطها على السياسية الغربية.

السياسة صارت «تابو» أكثر من الدين في ظل الليبرالية ومزاعم حرية التفكير وحق التعبير.

لقد جسّد في عينيه هذا انحطاط الغرب، وعندما بحث عن السبب وجده: الولايات المتحدة طليعة الانحطاط.

هذا هو الكتاب الذي نقدم ترجمته العربية إلى القارىء العربي،

وهو آخر ما صدر للمؤلف(*).

* * *

في أول صفحة من الكتاب، يورد المؤلف عبارة للفيلسوفة الفرنسية سيمون فاي (1909 ـ 1943) تقول: «كنا نعرف جيداً أنه بعد الحرب أمركة أوروبا أمر شديد الخطورة، وكنا نعرف جيداً ما سوف نخسره إذا حدث ذلك. . أمركة أوروبا تعدّ بدون شك لأمركة العالم. . الإنسانية تفقد ماضيها. .».

الكتاب يتناول مسيرة هذه الأمركة، كما يتناول الأسس والأهداف التي نشأت عليها الولايات المتحدة، مما يجعل أمركة العالم انحطاط ودمار العالم. . الإنسانية لا تفقد ماضيها فقط بل مستقبلها أيضاً.

في المدخل يحدد المؤلف مشكلات البلدان الغربية: البطالة، الاستبعاد، (الاقصاء). والجوع في بقية العالم. أما الهجرة فهي نقطة عبور من عالم الجوع إلى عالم البطالة.

ويتساءل المؤلف عما إذا كان هناك خط مشترك بين مشكلات البلدان الغربية ومشكلات البلدان الأخرى. ويحدد أهداف الكتاب في:

(*) صدر الكتاب عن دار نشر فنت دو لارج (رياح الأعماق) بعنوان فرعي هو: كيف الإعداد للقرن الواحد والعشرين تاريخ النشر 1997 باريس.

1 ـ إدراك وحدة هذه المشكلات ومعناها.

2 ـ اقتراح برنامج عيني للخروج منها.

ومن خلال تقدمه في التحليل يؤكد مسؤولية الغرب، وعلى الأخص الولايات المتحدة، ووحدانية السوق التي تفرضها، عما يعانيه العالم من مشكلات.

في الفصل الأول: الذي يحمل عنواناً معبراً «غوغائية عالمية جديدة» يستعرض أوضاع العالم السياسية والاقتصادية منذ الحرب العالمية الثانية على الأقصى، مبرهناً على أن العالم تسوده غوغائية جديدة تقودها الولايات المتحدة، وليس نظاماً عالمياً جديداً.

أما الفصل الثاني: فعنوانه «وحدانية السوق» يستخدم المؤلف مصطلحاً يشير عادة إلى الأديان الموحدة، أو ذات الإله الواحد ليصف به السوق الذي تعمل الولايات المتحدة على فرضه، ويريد بهذا القول: اليوم ليس دين الله الواحد الذي يسود وإنما دين السوق الواحد، بدل وحدانية الله تقيم الولايات المتحدة وحدانية السوق. هذا الدين يقوم على الفردية، والفعالية الاقتصادية، والانتاجية كهدف في ذاتها، والربح والفائدة، وبالطبع خدمة المصالح الأمريكية. مما أفقد الإنسانية غاياتها والحياة معناها. وأدى إلى الانحطاط.

هذا الانحطاط طليعته الولايات المتحدة. وحدانية السوق هذه التي تعمل الولايات المتحدة على فرضها على العالم بالسياسة والاقتصاد وقوة السلاح، والدمار والانحطاط الذي يترتب عليها،

ليس أمراً طارئاً أو عارضاً، إن أصوله في أسس نشأة وتكوين الولايات المتحدة.

في الفصل الثالث: أصول الانحطاط. يستعرض نشأة الولايات المتحدة، ويكشف عن الرباط الوحيد الذي يجمع أشتات المهاجرين إليها، أفراداً وجماعات: إنه رباط مادي صرف، وإبادة الهنود للاستيلاء على أراضيهم وتدمير ثقافاتهم وأنماط حياتهم. ثم يشير إلى ممارسات الولايات المتحدة خارج أراضيها، ومنذ نشأتها حتى اليوم، مستهدفاً بيان أن الانحطاط مسألة تكمن في صميم الولايات المتحدة، مما جعلها أداة انحطاط داخلها، وطليعة انحطاط عالمي.

الانحطاط: أخذ يشيع عالمياً من خلال استعمار أوروبا والعوالم الثلاث من قبل الولايات المتحدة، سواء بفعل إعلامها أو اقتصادها وجيوشها، كما من خلال نمط الحياة الذي تروجه، ويريد الكاتب بهذا الوصول إلى تأكيد أن سيادة الولايات المتحدة على العالم تعني سيادة الانحطاط وفقدان المعنى. هذا هو موضوع **الفصل الرابع**.

في الفصل الخامس: يتناول «محاولات الاشتراكية المجهضة»، من خلال تناول سيادة المفهوم الغربي للنمو، والذي يتخذ معياراً وحيداً: زيادة الإنتاج المادي، متغاضياً عن «نمو الإنسان». مما أدى إلى انحطاط الإنسان الساعي لنمو اقتصادي بدون هدف إنساني، وما قاد إليه هذا المفهوم من «صدع» عالمي، قسم العالم إلى أغنياء قلة (بلدان غنية) وفقراء كثرة (بلدان فقيرة) أو شمال ـ جنوب. كما في

داخل البلدان الغنية نفسها قلة ثرية وكثرة معدمة. وهذا أدى إلى أنه يوجد اليوم ملياران وثمنمائة مليون عاطل عن العمل. وحيث أن الإنسان في «وحدانية السوق، حدد له دور: منتج. . . مستهلك. وحيث أن هؤلاء بسبب البطالة ليسوا منتجين، إذن غير مستهلكين، لقد صاروا مستبعدين «exclus» خارج إطار وحدانية السوق». هذه الظاهرة، الاقصاء أو الاستبعاد صارت تسم المجتمعات الغربية إنها أسوأ من التهميش.

ويعرج المؤلف على «الكتلة الاشتراكية سابقاً»، مشيراً إلى نتائج عودة الرأسمالية إلى البلدان الشرقية. ويتناول الفرق بين الاشتراكية التي تهدف إلى «إتاحة الفرصة للإنسان لكي يصير إنساناً» والرأسمالية التي تجعل منه مجرد منتج أو مستهلك - إذا حصل على عمل -. لكن لا يعني هذا أن هذه البلدان تركت الاشتراكية إلى الرأسمالية، ذلك لأن الاشتراكية خذلها «الاشتراكيون» عندما تبنوا نمط النمو الغربي، مما قادهم إلى الوقوع فريسة أمراض الغرب الرأسمالي: الانتاجية كهدف وغاية قصوى حولت الإنسان إلى روبوت (إنسان آلي) وأفقدته بعده الروحي والغائي.

في الكتلة الشرقية اشتراكية مجهضة لأنها تبنت النموذج الغربي للنمو، في الغرب «أوهام وأكاذيب».

في الفصل السادس: الذي يعنونه «أوهام وأكاذيب الغرب» يتناول مزاعم الغرب فيما يتعلق «بالحرية» و«الديمقراطية» و«حقوق

الإنسان» ومن خلال تحليل وقائع يصل إلى أن:

الديمقراطية للسادة وليست للآخرين.

الديمقراطية للبيض وليست للسود.

الديمقراطية للأغنياء وليست للفقراء.

وهكذا الحال فيما يتعلق بحقوق الإنسان، أما حق الاقتراع فإن الفقر يجهضه والثروة تحتكره، وحق المساواة أمام القانون تتناقض مع اللامساواة في الواقع.. الخ بالنسبة للمؤلف الانقسام إلى أغنياء وفقراء في داخل المجتمعات الغربية، وعلى مستوى العالم، يجعل هذه الحقوق لا قيمة لها بالنسبة للأغلبية الساحقة من الناس. إنها عندئذ مجرد أوهام وأكاذيب تستهدف تبرير القمع والاضطهاد والتدخل أو الاستعمار والتغطية على واقع الظلم والفقر والهيمنة.

العالم الغربي المتجه إلى الانحطاط بقيادة الولايات المتحدة، من حسن الحظ لا يمثل «الحضارة» الوحيدة للإنسان، ثمة حضارات وعقائد الآخرين، هذه يمكن أن تمثل الأمل في نهضة الإنسانية.

هكذا في **الفصل السابع** والمعنون: حضارة وعقائد الآخرين. يستعرض بإيجاز حضارات وعقائد العوالم الأخرى، وما قدمته للإنسانية، وما يمكن أن تقدمه. وتفوقها على حضارة الغرب المادية، بما تحمله من بعد روحي. وهو لا يطالب فقط باحترام حضارات وعقائد الآخرين ـ غير الغرب ـ وإنما يرى فيها المنقذ

للإنسانية من هيمنة حضارة أفسدت كل شيء بما في ذلك الدين الذي حولته إلى نتاج غربي يبرر العبودية والهيمنة والربح وسلب الثروات، وباختصار استعمار ديني، حين فُرضت المسيحية «في ثوبها الغربي» على شعوب وحضارات أخرى، مما جعل اعتناق المسيحية، على هذا النحو خضوعاً «النمط الحضارة الغربي» التي تعبد بدل الله العجل الذهبي.

وهنا يتطرق إلى ما يعرف بلاهوت التحرير، والذي يقدمه كنموذج للتحويل المطلوب. لاهوت التحرير، في أمريكا اللاتنية وآسيا وحتى أفريقيا يهدف ليس فقط إلى مقاومة الظلم واللامساواة والهيمنة، وإنما أيضاً وأولاً إلى تحرير المسيحية من صيغتها «العبرية» و«الغربية»، ورفض أن التاريخ المقدس هو تاريخ قبائل العبرانيين. كما يهدف إلى أن يعيد للإنسان بعده الروحي، ويجعل من اللاهوت أداة تحرير وليس تبرير هيمنة.

يفصل في هذا الخصوص بإيراد نماذج من محاولات الخروج والتمرد الصريح داخل الكنائس على الاستعمار الديني الغربي.

كيف النجاة؟

بعد عرض الوضع المتأزم للعالم المتجه إلى الانحطاط تحت قيادة الولايات المتحدة طليعة الانحطاط يطرح في **الفصل الثامن** سؤالاً: كيف النجاة من هذه الوضعية؟

ويتقدم بمقترحاته.

* البديل عن فلسفة الوجود فلسفة الفعل: فلسفة الوجود، منذ الإغريق، كانت أساس الهيمنة. فلسفة الفعل تعني وحدة الإنسان الداخلية والخارجية، الإنسان كل، ظاهري وباطني معاً. والله ليس سيداً جباراً آمراً من الخارج، إنه في الإنسان. تحول الله إلى إنسان «عيسى» يعني تحول الإنسان إلى «الله» الله في الإنسان وليس خارجه. قارودي هنا في صميم الصوفية. لقد كان الحلاج يردد لمن يسمع: ما في الجبة غير الله.

هذا التحول من فلسفة الوجود إلى فلسفة الفعل يكون من خلال:

1 ـ انقلاب في التعليم:

الأمر بالنسبة له لا يعني إصلاح التعليم القائم، وإنما تعليم مختلف جذرياً يكون فيه الإنسان المنطلق والهدف معاً وليس ملحقاً لأدوات الإنتاج.

2 ـ الاهتمام بالفنون:

فهي «التاريخ المقدس للإنسان»، هي المعبرة عن البعد الروحي في الإنسان، لكن هذا يتطلب تحريرها من سيطرة «السوق» التي جعلت منها سلعاً تقيّم من حيث العائدية. الفن في كل أشكاله، فعل خلاق، لا يمكن تقييمه من خلال سعر السوق. خضوعه للسوق هو الذي يجعله ينحط ويفقد وظيفته وهدفه الأساسي.

3 ـ السياسة يجب أن تنطلق من «الغائية الإنسانية»:

على السياسي أن يطرح على نفسه السؤال عن «الغاية القصوى» وليس مجرد تقرير وسائل مجهولة الغاية إن لم تكن مجرد الوصول إلى السلطان والاحتفاظ به.

يدعم وجهة نظره بتحليل مختصر للتعليم الحالي، والفنون الحالية، والسياسة الحالية، التي قادت إلى الهيمنة والاستعمار بالنسبة للبعض والخضوع والتبعية بالنسبة للبعض الآخر، وفقدان المعنى والهدف في عالم لا إنساني بالنسبة للجميع.

العالم الإنساني المطلوب تحقيقه على نقيض عالم اليوم، إعلانات الحقوق من الأمريكي إلى الفرنسي إلى العالمي كرّست الفردية والأنانية، وحطمت روح الجماعة والأثرة والتعاون. لذلك يقدم في **الفصل التاسع** إعلان عالمي للواجبات.

هذا الإعلان العالمي للواجبات يستهدف بعث روح الجماعة، والتضحية وفوق كل هذا الشعور بالمسؤولية، كل مسؤول عن الكل. الواجبات تقوم على واجب أساسي تتفرع منه: إنه الواجب نحو الجماعة. ثم يعدد الواجبات التي تتفرع عن هذا الواجب الأساسي: في مجال السياسية والثقافة والملكية، ونحو الطبيعة، والحرية، والأمن، ومقاومة الظلم والاضطهاد. في كل هذه المجالات: الجماعة هي الغاية، إن هدف الواجب الاجتماعي: «أن يكون واحد في الكل» أن يشعر كل إنسان بمسؤوليته نحو كل الإنسانية.

الطريق إلى هذا العالم الإنساني يتمثل في «برنامج عيني» وهو ما يقترحه في **الفصل العاشر**.

يتمثل هذا البرنامج في:

1 ـ بالنسبة للعالم الثالث: باندونج جديد.

* نهضة الوحدة الإنسانية. الإنسانية كل واحد، مهما تنوعت أو اختلفت الأعراق والثقافات، تتحقق بواسطة كل القوى الإنسانية في الاقتصاد في الثقافة وفي العقيدة.

* العمل على إنهاء كل الانقسامات والنزاعات سلمياً، لأن الصراع في العالم الثالث لا يخدم إلا قوى الهيمنة العالمية.

* رفض جماعي لتسديد الديون.

* معارضة جماعية لكل أنواع الحصار والمقاطعة التي تفرض قوى الهيمنة.

* إنشاء سوق مشترك جنوب ـ جنوب لا يتعامل بعملة الشمال.

* مقاطعة الولايات المتحدة واتباعها وخاصة «إسرائيل».

* الانسحاب جماعياً من المؤسسات الدولية التي صارت أداة الولايات المتحدة.

* التهديد أو العدوان على أي منا يقاوم من قبل الجميع.

* عدم الاستبعاد، لا سياسي ولا ديني ولا اقتصادي، لأن الهدف خلق عالم إنساني حيث كل شعب وكل ثقافة تشارك. فلا يُستبعد أحدٌ.

كل هذا في إطار باندونج جديد. جديد لأن المسألة اليوم في وجود قطب واحد لم تعد الحياد بين قوتين.

2 ـ بالنسبة لأوروبا: وحدة انسجامية للعالم.

يرد أولاً على المزاعم الذاهبة إلى أن حل المشكلات في أوروبا يأتي من النمو، وفي إطار الوحدة الأوروبية. ويعتبر هذا محض أكاذيب ويتقدم بمقترحاته:

1 ـ إلغاء الديون.

2 ـ عدم تقديم مساعدات مالية للحكومات في العالم الثالث، لأن جل هذه المساعدات يذهب إلى جيوب الحكام في الدول المانحة كما في الدول الممنوحة.

3 ـ القروض والمساعدات يجب أن تقدم لمؤسسات القاعدة «تعاونيات نقابات. . بنية تحتية. . الخ».

4 ـ قبول تسديد القروض بالعملات المحلية.

5 ـ جعل أسعار المنتجات المستوردة من العالم الثالث متناسبة مع أسعار المنتجات المصدرة إليه.

6 ـ عدم تضخيم المشروعات والشركات في العالم الثالث.

7 ـ إعطاء الأولوية للطاقة المتجددة.

8 ـ تأسيس عالمية حقة ضد أكاذيب «العولمة».

9 ـ تنمية الإنسان، مما يعني رفض مفهوم التنمية الناشىء من اقتصاد السوق.

إن الهدف، كما يحدده في الخلاصة، هو وحدة العالم

الروحية، وبما لا يمنع التنوع، وبما يجعل التنوع عامل إثراء وضد الهيمنة والاستعمار. الهدف خلق عالم إنساني جدير بالحياة في القرن الواحد والعشرين.

* * *

قارودي من خلال هذا الكتاب، وغيره، صار يدعو إلى أولوية الحياة الروحية، وبعث البعد الروحي في الإنسان الذي يتحول إلى «روبوت» في عالم بدون هدف وبلا معنى. وتنمية الإنسان ليكون إنساناً في عالم إنساني، وليس أداة إنتاج وزيادة «الدخل الوطني الخام».

إن هذا في نظره المشروع الوحيد القابل للحياة في القرن الواحد والعشرين. والانحطاط، في نظره، وهو مصيب، نتاج هيمنة، واحدية السوق ـ والرأسمالية ـ وأداتها اليوم الولايات المتحدة التي تقود انحطاط العالم، أي انحطاط الإنسان في عالم يفتقد الغاية والمعنى.

لهذا فإن العمل في هذا الاتجاه يتطلب من الجميع مقاومة الهيمنة الأمريكية وتدميرها لإنقاذ العالم، إنها تلوث العالم مادياً وأخلاقياً.

إسلام قارودي ليس كما يفهمه العامة، فهو مسلم قدر ما هو مسيحي، إنه ينبع من «عقيدته» المتجاوزة كل الأديان، ليس بما يلغي الأديان: مسيحية إسلام يهودية، ولكن بما يحتفظ بما فيها، وما في

غيرها، مثل البوذية أساس الروحانية، وهذا يجعل منه مسلماً ومسيحياً ويهودياً وبوذياً. . لأن العقائد جميعاً تلتقي في مشترك واحد: إنها تعبير عن حياة روحية. هكذا قارودي، كما هو واضح، يتجه إلى الصوفية التي تؤمن بكل الأديان وليس بدين واحد، لأنها تسمو إلى مصدر كل الأديان.

أخيراً هذا كتاب يستحق القراءة وبعناية، إنه حصيلة رحلة طويلة وشاقة، ثرية بالتجارب والمواقف: في الفكر وفي السياسة والاقتصاد والعقيدة، قادت مؤلفه، من الأرثوذوكسية الماركسية حين أعلن «موت الله» إلى صوفية تؤمن بكل الأديان، هادفة الوصول إلى «الوحدة مع مصدرها» جميعاً. شيء واحد ظل قائماً رغم هذه التقلبات: إنه الإيمان بالإنسان.

لأنه يؤمن بالإنسان عندما تبنى الأرثوذوكسية الماركسية، ولأنه يؤمن بالإنسان خرج عن دوقما كنيسة الحزب، ولأنه يؤمن بالإنسان فإنه يصرخ اليوم في آذاننا محذراً مما آل إليه عالم اليوم من انحطاط، عندما طغت المادة فأقامت إلهها «وحدانية السوق» وقساوستها: السماسرة والمضاربين البورصات، وسدنتها الساسة والجنرالات. وأخذت تحيل الإنسان إلى روبوت.

اللهث وراء المادة جعل الغرب يغرق في البطالة والجريمة والمخدرات رغم الثروات الطائلة حياته بلا معنى. وأجهضت الاشتراكية عندما تبنت نمط النمو الغربي وتجاهلت تنمية الإنسان.

ويجوع العالم الثالث وخيراته تنهبها العولمة.

الغرب لم يكن أقل مادية من الشرق الماركسي، المادية أفقدت الإنسان معنى الحياة، لتجعل منه في الغرب روبوت يراكم الأموال وفي الشرق ترساً في آلة فقد السيطرة عليها حتى الانهيار.

إن ترجمتي لهذا الكتاب آراها مساهمة في أن يصل العربي في لغته صوت «غربي» يحذر العالم من الانحطاط الذي تقوده إليه أمريكا وتوابعها في الغرب.

صوت غربي، وليس أي صوت، إنه صوت فيلسوف اعتنق الماركسية حتى «الإيمان» وحتى تبينت له حدودها.

صوت غربي هو نتاج حضارة تعلن إفلاسها.

صوت غربي يعلن بعد خمسة وثمانين عاماً أنه ضل الطريق، فيقوده الإحباط إلى التصوف..

قد لا نشاركه فيما انتهى إليه، حل مشاكل الإنسان لا يمكن أن يكون إلا إنسانياً.

مع ذلك يظل ما يقدمه لنا تجربة تستحق أن نتأملها حتى لا يخدعنا البريق ولا تخيفنا الغطرسة.

لقد عمدت إلى التهميش حيث بدا لي ذلك ضرورياً لفائدة القارىء العربي.

ملحوظة: تقديراً لمجمل جهوده الفكرية والنضالية ومواقفه

الشجاعة، منح الأخ معمر القذافي، قائد ثورة الفاتح، وسام الفاتح للفيلسوف روجيه قارودي، وقد قمت بتوسيمه في حفل جرى بمعهد العالم العربي - باريس في 30/ 10/ 1990.

الأستاذ الدكتور رجب بودبوس

أستاذ الفلسفة المعاصرة بالجامعات الليبية

الفصل الأول

الغوغائية العالمية

مدخل:

«لقد كنا نعلم جيداً، أنه ما بعد الحرب، أمركة أوروبا ستكون خطراً شديداً، وكنا نعرف جيداً ما سوف نخسره إذا حدث ذلك. . أمركة أوروبا تُعِدّ بدون شك لأمركة الكرة الأرضية. . . الإنسانية تفقد ماضيها»[1].

البطالة والاقصاء[2] في بلداننا، والجوع في ثلاثة أرباع العالم،

---

(1) سيمون فاي، فيلسوفة فرنسية جعلت من نفسها عاملة في مصنع، ثم لحقت بالجنرال ديغول في لندن عام 1942.

(2) الاقصاء أو الاستبعاد: يعني أن أعداداً تتعاظم كل يوم تبعد عن مناشط الحياة الاقتصادية. لأن الحياة والمجتمع الرأسمالي تقوم على أساس الإنتاج والإستهلاك. العاطلون عن العلم لا ينتجون وبالتالي أيضاً لا يستهلكون إنهم إذن خارج دائرة السوق، وبالتالي خارج الحياة. المصطلح ظهر حديثاً لأن مصطلح التهميش لم يعد كافياً لإعطاء صورة عن الوضع الجديد. التهميش يعني أن المهمش لا زال يشارك وإن كان هامشياً، الإقصاء Exclusion يعني انتهاء حتى هذا المشاركة الهامشية. الإقصاء يشير إلى العمال العاطلين والشباب الباحث عن عمل والأقليات.

أما الهجرة فهي نقطة عبور من عالم الجوع إلى عالم البطالة.

إننا في طريقنا لاغتيال أطفالنا الصغار، واعداد انتحار جماعي، في القرن الواحد والعشرين، إذا تركنا أنفسنا ننساق وراء انحرافات السياسة الدولية الحالية.

لكي نفهم عصرنا، هل ثمة خط مشترك، أي علاقة داخلية وعميقة بين كل المشكلات الدولية؟ سواء تعلق الأمر بالتدخلات العسكرية، أو بدور صندوق النقد الدولي والمصرف الدولي أو بأوروبا ماستريخت، وبالمنظمة العالمية للتجارة - القات سابقا - وعودة ظهور الرأسمالية في شرق أوروبا، والتعصب الديني الإسلامي واليهودي والمسيحي، وبين مشكلاتنا المباشرة: البطالة، والاقصاء الهجرة، العنف والمخدرات؟

كيف ندرك وحدة هذه المشكلات ومعناها؟

وفوق كل شيء: كيف يمكن إعداد برنامج للخروج من هذه المشكلات؟

هذا هو موضوع هذا الكتاب.

الفصل الأول: الغوغائية العالمية الجديدة

ما هي النظرة التركيبية للعالم، التي تتحدد في نهاية القرن العشرين، من هذه الأحداث والمشكلات التي تبدو في ظاهرها غير ذات علاقة؟ ما هي المشكلات الأساسية التي تعلن عن نفسها في مستقبل قريب؟ هل نتجه إلى حرب عالمية ثالثة من نوع جديد؟

حتى الآن، ما عرف بحربين عالميتين، كانتا صراعاً أوروبياً - أوروبياً، ولم تكونا عالميتين إلا لأن: بالنسبة لحرب 1914 - 1918. الحلفاء إنكلترا، فرنسا، أدخلا في جيشهما «الفرق ذات الألوان» من سكان مستعمراتهما، أو من البلدان الواقعة تحت نفوذهما. من هؤلاء الفرق السنغالية، والشمال أفريقية - عرب - في حالة فرنسا. أما الإنكليز فقد أدخلوا جنوداً من الدول الواقعة تحت نفوذهم: كندا، استراليا. وهكذا كان الحال بالنسبة للحرب العالمية الثانية. هذه الحرب أيضاً نتاج صراع أوروبي - أوروبي. لكن الحلفاء الغربيين أشركوا فيها الشعوب الواقعة تحت نفوذهم. مثلاً عند الإنزال العسكري في منطقة «البروفانس» 70% من الجنود كانوا مغاربة، نسبة الموتى بينهم كانت أكبر من أجل تحرير فرنسا!

حرب الولايات المتحدة ضد اليابان، مثل الأولى، لم تتواجه فيها حضارتان، وإنما متنافسان، طوّرا في بلديهما نفس النظام الصناعي. وتواجها من أجل السيطرة على المحيط الهادي، والاستحواذ على أسواقه. الحربان لم يمتزجا أبداً عسكرياً: هتلر، لكي يبعد أطول وقت ممكن الأمريكان عن الصراع الأوروبي، تخيل أن يجعل من اليابان شرفياً شعباً آرياً، ليقيم حلفاً (محور) برلين روما طوكيو.

لكن إن صدقنا هنتينقتون وما يدعوه «حرب الحضارات» فإن حرباً ثالثة، إذا اندلعت، ستكون من نوع جديد، لن يكون مصدرها تنافس أوروبي، وإنما مواجهة حضارات، بين المركز - الغرب -

والمحيط ـ البلدان الواقعة تحت الاستعمار سابقاً ـ.

وهو يعطي لهاتين المجموعتين سمة دينية: ستكون الصدمة بين حضارة يهودية مسيحية، وتحالف إسلامي كونفوشيوسي.

لقد أساء طرح المشكلة، لكنها مع ذلك مشكلة حقيقية: هل في توجهها نحو الهيمنة العالمية، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وصنع شيطان جديد بديل له: الإسلام، وحلفائه المحتلين من الذين يسمون العالم الثالث، الولايات المتحدة، بعد تدمير العراق (عبرة لمن يعتبر) تتوصل إلى تحقيق حلمها بمد نظامها المبشر «بالسوق الحر» ليشمل مجموع العالم؟

في معنى من المعاني، المعنى الذي قدمته في كتابي «نحو حرب دينية» سيكون هذا حقاً صدمة بين حضارات. وحدانية السوق عاملة على تحطيم مقاومة كل الذين احتفظوا بنظام قيم أخرى غير قيم التجارية، والذين يدافعون عن معنى حياتهم وهويتهم، ستؤدي إلى الصدام.

النقطة الحساسة في الامبراطورية الأمريكية (يقال عنها حدود الامبراطورية الرومانية قبل تدميرها بانتصار البرابرة) هي الخليج العربي، لأنه محاط بمنابع غنية بالنفط، والذي سيظل لعدة حقب، عصب النمو الغربي.

في هذه النقطة ـ الحدودية ـ انجزت وحدانية السوق أحدث انتصار لها عندما دمرت العراق «حرب دبرتها الولايات المتحدة

تحت ضغط لوبيين ـ كما يشير السيد آلان بيرفيت في الفيقارو 5 نوڤمبر 1990 ـ مجموعتي ضغط قويتين دفعتا الولايات المتحدة إلى تفجير الصراع:

1 ـ اللوبي اليهودي.

2 ـ لوبي أصحاب الأعمال والمال».

في هذه النقطة الحساسة، من حدود الامبراطورية الجديدة، دولة إسرائيل لا تتوقف عن لعب الدور الذي حدده لها مؤسسها الروحي تيودور هرتزل، أي أن تكون قاعدة متقدمة للحضارة الغربية ضد بربرية الشرق!

البرنامج الذي يحدد دورها بدقة تم عرضه عام 1982، في شهر فبراير (قبيل الغزو الصهيوني الأول للبنان) في مجلة كيفونيم، الصادرة عن المنظمة الصهيونية العالمية: تفكيك كل الدول المجاورة من النيل إلى الفرات. ليس هناك استجابة أفضل من هذا لطموحات الهيمنة العالمية للولايات المتحدة في النقطة الأكثر حساسية من حدود امبراطوريتها. إضافة إلى حرمان قاتل فرض على شعب العراق من خلال حصار يستمر في المقام الأول في تدمير الأطفال في محاولة سرقة حتى مستقبل هذا البلد. وليس تدمير حاضره فقط.

اليوم فريسة جديدة تتحدد، أكثر أهمية: إيران. لم يتمكن العراق من هزيمتها، رغم أن الولايات المتحدة وعملاءها، عملوا بسخاء على ضمان تمويله بالمال والسلاح.

الفريسة الجديدة تحددت في مؤتمر شرم الشيخ عام 1996، من

قبل حكومة إسرائيل: «الكفاح ضد الإرهاب» وتبرير التدخل لأسباب إنسانية كانا المبرران الجديدان للاستعمار الشمولي الجديد. إيران بدون أي دليل اعتبرها شيمون بريز مركز الإرهاب الدولي.

بالطبع يجب أن تفهم أن هذا الإرهاب يشمل كل أنواع مقاومة الشعوب المدافعة عن استقلالها، ويستبعد منه كل أشكال إرهاب الدولة أو الدول المهددة لهذا الاستقلال. عندما مثلاً يقتل جندي إسرائيلي في الجزء المحتل من لبنان، لا شرعياً احتلاله من قوات إسرائلية، ومرتزقتها، والذي يعني أن محتلاً قتل على يد مقاومة الاحتلال ـ كما حدث هذا في الماضي في فرنسا المحتلة من النازي ـ فإن هذا يعتبر إرهاباً. لكن عندما الجيش الإسرائيلي ـ جيش الدولة ـ يقذف بالقنابل ويجزر المدنيين في قانا ـ وفي غيرها ـ وحتى ضواحي بيروت، فإن هذا يسمونه «دفاعاً شرعيّاً» تماماً مثلما يطلق النازيون الرصاص في شاتو بريان على أربعين مقاوماً لأن ضابطاً ألمانيّاً قتل في باريس.

طائرة أمريكية تسقط في البحر، خلال ألعاب أطلنطا الأولومبية، وقبل أي تحقيق، يعتبر عملاً تخريبيّاً وتحمل إيران مسؤوليته بينما أي تحليل وفحص تالٍ لحطام الطائرة، ورغم الضغوط الصادرة عن المخابرات المركزية ووسائل الإعلام، لم يقدم أي دليل لدعم هذه المزاعم[1].

---

(1) هكذا الحال أيضاً عندما استخدم سقوط طائرة البانام فوق لوكربي لفرض عقوبات على ليبيا بدون أي دليل.

من السهل تعداد الأمثلة عن استخدام هذا المبرر «الكفاح ضد الإرهاب» أو التدخل لأسباب إنسانية، والدفاع عن حقوق الإنسان. إمّا لتبرير العدوان المباشر ضد المتهمين[1] وإما لعرقلة ومنع الاتفاقات التجارية معهم. مثلاً تين إن مين يستخدم لفرملة العلاقات الاقتصادية مع الصين. لكن أبداً لم تذكر مجزرة 200 مدني لبناني على يد آريل شارون عام 1982 من أجل الحد من تمويل وتسليح دولة إسرائيل والتي هي رأس حربة الهيمنة الأمريكية على كل نفط الشرق الأوسط.

إنه ذا معنى أن الخاخامات اليهود الأشد تطرفاً، والأشد تعصباً تكونوا في الولايات المتحدة (حيث توجد الجماعة اليهودية الأكثر عدداً في العالم، أكثر مما يوجد في إسرائيل نفسها) المتطرفون الأشد تعصباً هم الخاخامات الذين تكونوا في المدارس التلموذية التي أنشأها «الحزب الوطني الديني» بزعامة الخاخام اليهودي الأمريكي زفي يهود أكوك 1891 ـ 1982. والذي مبادئه الأساسية هي: «الله يستمر في أعمال الرحمة والغفران بواسطة هذه المعجزة: جعل كل هذه الأرض تحت سيادة اليهود، كل الأراضي التلموذية اليهودية مقدسة، إنه مطلب مقدس الحفاظ عليها، ضمها، وأن يقيم فيها أكبر عدد ممكن من المستعمرات اليهودية: كل حل وسط حول الأراضي يؤجل زمن الرحمة».

---

(1) كما حدث في الغارة الأمريكية على طرابلس وبنغازي عام 1986.

جماعة أخرى من الخاخامات الأمريكان: لوبا فيتش، مستلهماً أفكار خاخام قديم من بروكلين ـ نيويورك ـ اليزر مزراهي، يدعو إلى أنه محرم قطعاً على اليهود التسليم في أي شبر من أرض إسرائيل الكبرى للعرب وحتى القيام بمفاوضات حول هذا الموضوع محرم.

إيران تحتل مركزاً محتملاً لتجمع جزء كبير من «الجزيرة الكبرى» أو الأوروبية الآسيوية، في مواجهة اطماع الحلف الأطلسي. لهذا فإنه في الاستراتيجية الأمريكية، كل الجهود بذلت لكي تضمن إسرائيل كل إمكانيات تطوير سلاحها الذري حتى وإن كانت ترفض كل رقابة دولية[1].

نقطة الضعف الكبرى، في هذه الامبراطورية، أنها بدون روح أي بدون مشروع جماعي يتعلق بمستقبل الإنسان، كل قوتها تأتي من تطوير إنتاجها واستهلاكها، وتفوقها في السلاح.

هذا بالضبط ما يحاول هنتينقتون إخفاءه، عندما يزعم التعارض بين الحضارة اليهودية المسيحية والتحالف الإسلامي الكونفوشيوسي (والذي هو وريث أقدم حضارات العالم، وبلاد ما بين الرافدين، وسوريا والصين).

منطقة سوريا ـ الشام ـ ومنطقة آسيا الوسطى، اعتبرها المؤرخ توينبي مركز حضارات «في سوريا اتخذت المسيحية شكلها الذي

---

(1) ليبيا يمكن أن تشكل مركز تجمع عربي أفريقي مناهض للهيمنة الأمريكية لهذا كانت العقوبات والضغط المستمر لكي لا تطور قدراتها.

انتشرت به في كل العالم الهيلنستي، النسطورية والمونوفيزية تكونتا في «ايديس» في بلاد الرافدين. في الحجاز، جنوب سوريا ولد الإسلام في مكة والمدينة. . الشيعة ولدت في الحدود الشرقية لشمال الجزيرة العربية». .

استقطاب عجيب للعلاقات الدولية، باسم العولمة الامبريالية للسوق ضد الهويات الثقافية أو الدينية والتاريخية لكل الحضارات الأخرى.

من هنا ينتج، لمقاومة هذه العولمة التي لا روح لها، ضرورة اتحاد أوراسيا وأمريكا ـ المسماة ـ لاتينية من قبل مستعمريها السابقين.

الولايات المتحدة من أجل القضاء على كل بؤر المقاومة، على المستوى العسكري كما على المستوى الاقتصادي، ضد محاولات الولايات المتحدة الهيمنة، والتي تتكاثر في كل القارات، فإن على أوراسيا وأمريكا اللاتينية الاتحاد.

محاولة الولايات المتحدة تفريد مراكز هذه المقاومة تظهر اليوم في كل أنحاء العالم: إنها تشجع صراع كوريا الجنوبية ضد كوريا الشمالية، تايوان ضد الصين، الهند ضد الباكستان، وأيضاً البوسنا ضد الصرب. بهدف إيجاد مبرر لتسريب الجيوش الأمريكية إلى ما كان حدوداً بين الامبراطورية النمساوية والامبراطورية العثمانية. وفي أمريكا اللاتينية تشعل النزاعات بين كوبا وبلدان أمريكا الجنوبية

الأخرى، أو بلدان واجهة المحيط الهادي ـ شيلي ـ ضد واجهة الأطلسي جنوب القارة الأمريكية.

المثل الأشد وضوحاً عن هذه المحاولات هو ما زعم «خطة السلام» في فلسطين، والتي لا تقدم للفلسطينيين أكثر من «غبار» يمثل 6% فقط من أرض فلسطين، والمحصورة، بواسطة الطرق بين المستعمرات الإسرائيلية وتحت حراسة الجيش الإسرائيلي. حزب العمال ساهم في هذه التجزئة، والتي تحت اسم «الاستقلال الذاتي» الذي اخترعه بيقن. والذي خلفاؤه في الليكود ـ حالياً في السلطة ـ يتابعون العمل فيها بحماس. هدفهم، بواسطة زرع نصف مليون من المستعمرين الجدد، الذين يستحوذون على الأرض والماء، ضم كل فلسطين.

هذا الاستفزاز بدا ناجحاً بالنسبة للمعتدي، لأنه نجح في زرع الشقاق، ليس فقط بين الفلسطينيين، وإنما في الوطن العربي كله، حول الموقف اللازم اتخاذه من هذه المناورات الهادفة أساساً إلى زرع الشقاق.

التناقض الأساسي للعالم المعاصر يجد هنا، في نقطة الانقسام الأشد حساسية، التعبير الواضح عن الصراع الشامل.

أما النفاق الأساسي المتمثل في مزاعم الدفاع عن «الديمقراطية وحقوق الإنسان» فقد تكشف في الجزائر. التناقض كان صارخاً، عندما النظام «الديمقراطي الليبرالي» اضطر إلى اتخاذ موقف مخالف

لكل هذه القيم في مقاومته الأصولية التي تمثلها الجبهة الإسلامية: قبول إلغاء العملية الانتخابية وأن يدعم ضدها انقلاباً عسكريّاً.

هنا كما في فلسطين، يدفع بالشكل الديني إلى المقدمة، الأمر يتعلق بالنضال ضد الصليبية العالمية الجارية باسم دين لا يجرؤ على إعلان اسمه: وحدانية السوق.

وحدانية السوق هذه تواجه مقاومات أديان حقيقية، سواء تعلق الأمر بالإسلام كما في أوراسيا وأفريقيا أو لاهوت التحرير في أمريكا.

إذاً الإسلام بدلاً من أن يتقوقع في ماضيه، عاد إلى التصور القرآني لوحدة الأديان، منذ أن «نفخ الله روحه في أول إنسان» وإلى الشريعة التي هي أساس كل عقيدة وحكمة في العالم. وباختصار إذا أنجز هو نفسه العودة إلى الحقيقة القرآنية، مثلما عاد «لاهوت التحرير» إلى حقيقة رسالة المسيح، بعد قرون طويلة من لاهوت العبودية، هذه الجبهة العالمية سوف تكفل انتصاره على العالم الذي لا روح له عالم وحدانية السوق.

هذا هو حجم المأساة التي تظهر اليوم على مستوى العالم، وفي كل المستويات والمجالات: من الثقافة إلى العقيدة والاقتصاد والسياسة.

محاولات تجمع بدأت تظهر اليوم على مستوى العالم: عام 1991، في الخرطوم ينعقد مؤتمر شعبي إسلامي عربي بدعوة من السودان وإيران.

علامة أخرى كاشفة: في مؤتمر سايتل، والذي توقعت منه الولايات المتحدة قبولاً لمشروعها عن «سوق عالمي كلي»، فإن القادة الآسيويين الأساسيين كانوا متحفظين أمام المطالب الأمريكية حتى أن الوزير الأول الماليزي ـ ماليزيا البلد الذي حتى عام 1967، كان أحد رواد منظمة «آسيان» رفض المشاركة في الاجتماع احتجاجاً على التدخلية الأمريكية. كلينتون، الذي أعلن خيبة أمله أمام الموقف الأوروبي، عبر مع ذلك عن رغبته في التوجه نحو المحيط الهادي.

عام 1982، بنت الصين مركز بحوث نووية في أصفهان لجعله في منأى عن ضربة وقائية ضد إيران، مثل تلك التي أدت إلى تدمير المركز النووي «أوزيراك» في العراق على يد إسرائيل، وفي حالة سلام. بينما إسرائيل تعمل سراً، حتى كشف عن ذلك فيزيائي إسرائيلي، مردخاي فانونو، 5 أكتوبر 1986 في صحيفة أخبار السبت اللندنية، لقد كشف عن القدرات النووية الإسرائيلية القادرة على محو كل المدن حتى سد أسوان في مصر.

المجمع النووي الإسرائيلي يشمل، إضافة إلى مفاعل بلوتونيوم في ديمونة، مركز برمجة ذرية في سوريق حيث يعمل مفاعل تجريبي أمريكي، وحقل تجارب صواريخ في بالميكي ومركز تجميع في يوديفات، وقواعد تخزين الأسلحة النووية التاكتيكية في كيفار وزكريا وإيلابون.

فانونو منذ ذلك الحين رهين السجون الإسرائيلية، بينما حكومته تندد بشدة بالتجارب النووية الصينية والهندية والباكستانية والكازاخستانية، الكازاخستان التي ورثت جزءاً من السلاح النووي السوڤييتي.

التحالف الجديد، بعد انتخابات عام 1996، الليكود مع المتطرفين الدينيين، يجعل أشد وضوحاً اليوم دور المفجر لحرب عالمية جديدة الذي تستعد إسرائيل للقيام به في ظل أي حكومة.

الصدمة ربما ستكون أشد عنفاً، بسبب أن روسيا، التي لا زالت تملك قدرة نووية ضخمة، صارت، بعد تفكك الدولة، مثل إسرائيل، ليست بلداً يملك جيشاً، وإنما جيش يملك بلداً. في معمعة الغوغائية وتفكك الدولة، حيث يجاهر سياسي (. . . . .) أغرق البلاد بمساعدة الولايات المتحدة: لا نرى مخرجاً آخر من هذا الوضع إلا دكتاتورية عسكرية وطنية، للخروج من حالة المذلة والتمزق التي تتكبدها البلاد منذ عودة الرأسمالية.

من الصعب تخيل جيش بدون دولة، في خدمة بلد، توقف عن الوجود بسبب غياب أي مشروع جماعي. هذه الدكتاتورية العسكرية ليست بفضل فهم حركة التاريخ، وإنما بسبب المنطق القاهر لعلاقات القوة في العالم، لا يمكنها التفكير في تصور آخر غير حلف مع ألمانيا وآسيا الوسطى لمقاومة التبعية لواشنطون وإسرائيل، أي مقاومة إدخال «السوق الروسي» في النظام العالمي الجديد في شكله المنحط

والمافيوي. يجب عليها الاختيار إذن بين عالمين. تأثير المسيحية الأرثوذوكسية التاريخية والوطنية سوف يوجه هذا الاختيار.

أوروبا أيضاً ليست حليفاً دائماً ومضموناً بالنسبة للولايات المتحدة ليس فقط بسبب أن معاهدة ماستريخت، التي جعلت أوروبا ملحقاً باطنياً لحلف الأطلسي، بدأت أضرارها الاقتصادية والثقافية في الظهور وإنما أيضاً بسبب أن الانقسام الأوروبي هو أكثر فأكثر ظهوراً.

حدثان يشهدان على هذا: بينما إنكلترا وفرنسا قبلتا أن يجعلا من جيشهما احتياطياً للجيش الأمريكي في العراق، فإن 80% من الألمان رفضوا التدخل العسكري في العراق.

في يوغسلافيا ألمانيا كانت في المقدمة متحالفة مع الكروات، بينما انكلترا وفرنسا لم يتخذا موقفاً مضاداً للصرب إلا تحت الضغط الأمريكي.

وفي الوقت الذي توقفت فيه الولايات المتحدة عن أن تكون أول بلد دائن في العالم، لتصير أول بلد مديون، وحيث معدلات الاستثمار صارت الأقل في العالم الصناعي. رغم القوة، ليس قوة الجيوش (جيوشها ليس لها هدف أو حافز، أي ليس لها مشروع إنساني، ولا يحلم البنتاقون إلا بحروب «الموتى صفر») وإنما قوة تقنية ضغط الأزرار. هذا البلد، الذي قادته يريدون من أنفسهم سادة العالم، يبدو أكثر فأكثر كتلة ذات أقدام «أرجيل» المتمثلة في

اقتصادها الهش، الذي أخفت هشاشته حيناً من الزمن، المضاربات المالية التي حولت مصارفها إلى «كازينوهات»، والتي إفلاساتها، بعد إفلاس صندوق الادخار، تزداد وتتعدد.

لهذا السبب، تراهن الولايات المتحدة، لزمن معين، على سياستها التسلحية لمواجهة صعود عمالقة آخرين. ليس فقط من حيث تسليح مرتزقتها الرئيسة في الشرق الأوسط - إسرائيل - وإنما أيضاً من أجل تأخير ظهور الصين. بينما انكلترا تحاول تفادي الإعادة الشرعية لهونق كونغ إلى الصين، فإن الولايات المتحدة، تسلم ما قيمته 4,5 مليار دولار طائرات إلى تايوان، وفرنسا تبيعها 60 ميراج. كل هذا من أجل منع صين موحدة، ذات سوق محلي يقدر بمليار ومئتي مليون نسمة ومصادر أولية مهمة، ويد عاملة لا محدودة، أن تصير قوة دولية.

الولايات المتحدة دخلت مرحلة الإنهيار من تاريخها. أعني مرحلة تفكك داخلي، بسبب التعاسة المتعاظمة لأمريكا الأخرى، غير أمريكا دالاس البؤس يتعاظم، حيث 33 مليوناً يعيشون تحت خط الفقر. تفكك المجتمع بسبب الميز العرقي الطويل الأمد، خاصة نحو السود، والذي تشهد عليه أحداث عصيان لوس أنجلوس وكذلك تجمع المليون أسود في واشنطون بواسطة فراقان. والتحلّل الاجتماعي بسبب المخدرات والفساد وطفيلية المضاربات.

لفترة قادمة سوف يستمر النظام في البحث عن البقاء بواسطة

القوة التقنية لجيوشه وحدها، بأن يفرض على محيطه دولاً محدودة السيادة، وبواسطة «حق التدخل» الذي تحتكره الولايات المتحدة وإن غلفته ـ عندما يكون ذلك ممكناً ـ بغلاف مؤسسات تحت سيطرتها: من الأمم المتحدة إلى صندوق النقد الدولي إلى البنك الدولي.

الفصل الثاني

وحدانية السوق

كل مظاهر هذا الانحطاط نتجت عن منطق «اقتصاد السوق» والذي صارت مرحلته الأولى ديناً سائداً، لكنه دين لا يجرؤ على إعلان اسمه: إنه دين وحدانية السوق[1].

السوق هو مكان تبادل معاصر في كل مجتمع، يتضمن تقسيم العمل. منذ ما قبل التاريخ، حيث الورش والمنحوتات تشهد أنها لم تكن موجهة للاستعمال الشخصي؛ وإنما للتبادل أو المقايضة مقابل وسائل عيش أخرى، وحتى سوق القرية التقليدي، الذي يحمل إليه القروي البيض والدجاج والخضروات لبيعها مقابل منتجات أخرى كالأدوات والملابس أو لدفع خدمات مثل الحلاقة أو الحدادة.

---

(1) وحدانية السوق: يستعمل المؤلف مصطلح يستخدم عادة ليصف الأديان الموحدة أي المؤمنة بالله واحد وهو «الوحدانية» بإضافة المصطلح إلى السوق فإنه يريد القول ليس فقط أن السوق واحد وإنما أيضاً أن السوق صار مؤلهاً. بدلاً إذن من وحدانية الله نجد دين وحدانية السوق.

بين شكلي السوق ثمة اختلاف أول: وجود وسيط، العملة أو النقود المستخدمة في الأصل كأداة قياس أو وحدة تقييم مشترك للمنتجات والخدمات المختلفة كماً وكيفاً. لكن هذا السوق يظل وسيلة اتصال وتبادل. الأهداف النهائية للحياة تتحدد خارج السوق من قبل الهرميات الاجتماعية والأخلاقية، الضمنية أو الصريحة، والأديان، السوق ليس أصل ولا أساس القيم.

السوق لا يتحول إلى «دين» إلا عندما يصير المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية والشخصية والوطنية، وقوة وحيدة للسلطة وأساس الهرمية.

الأمر لا يتعلق هنا بعرض تاريخ هذا التحول، والذي في نهايته صارت كل القيم الإنسانية قيماً تجارية، بما في ذلك الفكر والفنون وحتى الضمير.

إننا سنكتفي باستخلاص النتائج الاقتصادية والسياسية والروحية من المرحلة القصوى من هذه الدورة، وعرض بعض سبل التحرر من هذا الاختزال وهذا الفساد لحياة الإنسان، الذي رأى فيه بعض المنظرين الأمريكان، ومنظري البنتاقون، وتلاميذهم، وفق عنوان كتاب فوكوياما: نهاية التاريخ.

إن الأمر يعني، إذا بلغ هذا الانحراف منتهاه، نهاية الإنسان فيما يميزه: المشروع المتعالي ضد الخضوع لتحديدات اقتصادية مزعوم أنها طبيعية، على شاكلة التلقائيات الغريزية الحيوانية، والتي تسود

فقط في البحر حيث السمك الكبير يبتلع السمك الصغير، أو على الأرض في التبذير البيلوجي لمليارات الخلايا والحيوانات المنوية من أجل تكوين نطفة.

إن ما يسمّى في الواقع وحدانية السوق هذه، الليبرالية التوتاليتارية، احتقار حرية الإنسان، مدمرة بعده الخاص، في أن لا يكون نتاج قوانين الطبيعة، وإنما على العكس، أن يكون قادراً على خلق مشروعات ليست مجرد امتداد الماضي أو امتداد غرائزه الحيوانية أو مصلحته الفردية.

آدم سميث دعا إلى هذا الخضوع:

«الخطوط العريضة للعالم الاقتصادي الحالي، جرى رسمها، ليس حسب خطة كلية، صدرت عن عقل منظِّم، ويجري تنفيذها إرادياً بواسطة مجتمع عاقل، وإنما بواسطة تراكم سمات بدون عدد، تحددت من قبل جماهير من الأفراد، يطيعون قوى غريزية، وغير واعية بالهدف الذي تسعى إليه (أسميت: بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم).

من آدم سميث إلى فريدريك فون هايك مروراً بباستيا وفريدمان فإن مفهوم المشروع جرى استبعاده بشكل منظم.

ملتون فريدمان كتب:

«تنسيق نشاطات ملايين الأشخاص، والذين لا أحد منهم يعرف إلا مصلحته الخاصة، بشكل يجعل وضع كل منهم يتحسن، نظام

الأسعار يحقق مهمة التنسيق هذه في غياب أي تنظيم مركزي، وبدون الحاجة حتى لأن يتبادل الناس الحديث فيما بينهم، ولا حتى أن يحبوا بعضهم: النظام الاقتصادي هو بزوغ تلقائي. إنه النتيجة النهائية غير المقصودة وغير المطلوبة لأفعال عدد كبير من الأشخاص مشغولين بمصالحهم وحدها. نظام الأسعار يعمل بشكل جيد وبفعالية لدرجة أننا في أغلب الأوقات لا نشعر بأدائه» (حرية الاختيار 1981)، أما فون هايك فيضيف في كتابه «الفردية والنظام الاقتصادي» «في مجتمع معقد، الإنسان ليس له خيار إلا أن يكيف نفسه مع ما يبدو له قوى عمياء للعمليات الاجتماعية».

من الممكن اليوم أن نرسم مسيرة النموذج الغربي للنمو، منذ الخطأ القاتل الذي حدث عند مفترق طرق عصر النهضة المزعومة، أي ولادة حضارة الكم والعقل الأداتي، العقل الديكارتي. إنه دين الوسائل وتدمير البعد الأولي للعقل والذي هو: التأمل في الغايات القصوى للحياة ومعناها.

«الأمر الملزم هو استبعاد السؤال الفلسفي عن الغائية» هكذا كتب ميشل ألبير في كتابه «الرأسمالية ضد الرأسمالية 1991»،

هذه هي في الحقيقة الغاية النهائية لوحدانية السوق، والتي أدت بنا إلى أكثر أشكال الحياة زيفاً، ابتداء من الأفلام الأمريكية التي بدأت بمطاردة الهنود في أفلام «الوستيرن» أو غابة المال كما تعرضها أفلام «دالاس» مروراً بكل أشكال العنف واللاإنسانية من «بات مان

ـ الرجل الخفاش» وحتى التعبير المجازي عن انحطاطنا إلى عالم «الديناصورات».

إننا لن نتناول إلا ما يعتبر اليوم قاعدتين صلبتين لتوسع السوق: **المخدرات والسلاح.**

الرقم المتحقق من تجارة المخدرات هو اليوم، في الولايات المتحدة، مماثل في الحجم لرقم الأعمال المتحقق في صناعة السيارات والحديد.

أما استهلاك المخدرات فيزداد، بقدر ما تفقد الحياة معناها، بسبب البطالة والاقصاء وغيرهما. الاستهلاك كغاية وحيدة حقق سعادة السوبرماركت.

مما له معنى أن الرقم القياسي في الانتحار حققته البلدان الأكثر ثراء مثل الولايات المتحدة والسويد. في الجنوب يموت الناس بسبب عدم توفر الإمكانيات. في الشمال بسبب غياب الغايات.

الإستهلاك المتعاظم للمخدرات هو أحد مصاحبات «وحدانية السوق». أولاً من حيث إنتاجه. بالنسبة لفلاح بوليفي، زراعة الكوكا، أكثر عائدية عشر مرات من زراعة الكاكاو أو القهوة، وحدها هذه الزراعة تمكنه من الحياة، وتسمح للدولة بتسديد ديونها لصندوق النقد الدولي.

ثم بعد ذلك من حيث الاستهلاك: 3 مليون مدمن مخدرات مزمن في الولايات المتحدة، 20 مليون يتعاطون المخدرات بشكل

غير منتظم. في فرنسا، وفق استبيان «سوفرس» كل فرنسي من خمسة ومن 12 إلى 40 سنة، يدخن أو دخن الحشيش.

المخدرات صارت بخور الكنيسة الجديدة في وحدانية السوق. الاتحاد السوفييتي يعطي مثلاً واضحاً: منذ عودة الرأسمالية، قفز إنتاج واستهلاك المخدرات قفزة هائلة. من 1991 ـ 1993 مساحات الأراضي المزروعة بالمخدرات في أوزبكستان تضاعفت، الأفيون الأفغاني (صارت أفغانستان أول منتج له) تضاعف تصديره إلى روسيا ثلاث مرات.

أما بالنسبة للسلاح، فإنه لا زال الصناعة الأكثر ازدهاراً، لقد جعل من الولايات المتحدة أول قوة عالمية فيما بعد الحرب العالمية الأولى، أما الحرب العالمية الثانية فإن الولايات المتحدة بفضلها استحوذت منذ عام 1945 على نصف ثروة العالم، ووفرت لها الحل النهائي لأزمتها التي بدأت عام 1929. حرب كوريا صنعت ازدهاراً اقتصادياً جديداً. أما حرب العراق فقد ألهتها، بما صاحبها من دعاية إعلامية «حجم طبيعي» لتطور آلات الموت، والتي إنتاجها قفز كالسهم بعد نهاية هذه الحرب.

مصاحب آخر لوحدانية السوق: **الفساد.**

آلان كوتا يحدد منطق النظام «ازدياد الفساد يرتبط بازدهار الأنشطة الاقتصادية والإعلامية. عندما الإعلام يسمح ـ بمناسبة عمليات مالية من كل نوع، خاصة عمليات الدمج.. التملك..

ـ بتحقيق ثروة في بضعة دقائق، من المستحيل تحقيقها حتى مقابل عمل شاق طيلة حياة بأكملها، فإن إغراءات شرائها وبيعها تصبح أمراً لا يمكن مقاومته». «الرأسمالية في كل أحوالها» 1991.

والكاتب يضيف «الاقتصاد التجاري لا يمكن إلا أن يحفز تطور هذا السوق الحقيقي... الفساد يلعب فيه دوراً مماثلاً للخطة».

ليس من قول أفضل من هذا: في نظام حيث كل شيء يشترى ويباع، ليس فقط الفساد ولكن **أيضاً الدعارة** لم يعودا انحرافاً فردياً، **بل صارا قوانين بنيوية في النظام.**

العهر السياسي يقدم المثل الصارخ عن هذا، الرئيس «فلان» دخل حرب الخليج مقابل 5 مليون دولار، الملك «فلان» استدعى ومول في أرض يقال عنها مقدسة، ويزعم منع الكفار من الوصول إليها، عشرات الآلاف من الجنود الأمريكان ـ وغيرهم ـ ودفع مقابل حمايته[1]. أما الرئيس يلتسين فقد باع بلده بالانبطاح أمام صندوق النقد الدولي الذي أرسل له سوروس «كقواد» شهير ومحترف.

هذه الأعراض تسم انحطاط النظام الذي صارت فيه المضاربات تحقق عائدات أكبر من الاستثمار في الإنتاج وفي الخدمات.

المضاربة لها معنى محدد، يقدمه قاموس روبرت في هذا التعريف «المضاربة هي عملية تقوم على انتهاز تأرجحات السوق

---

(1) استعملنا «فلان» بدلاً من الأسماء الحقيقية لبعض الرؤساء والملوك العرب تفادياً لأي إحراج.

(أسعار القيم والسلع) من أجل تحقيق أرباح».

موريس اليس (جائزة نوبل في الاقتصاد) مستنداً إلى معطيات مصرف المدفوعات الدولية، يلاحظ: «التدفق المالي يرتفع في المتوسط مقدار ألف ومئة مليار دولار يومياً، أي أربعين مرة إجمالي التدفق المالي المتعلق بالمدفوعات التجارية... نظام كهذا لا يمكن الدفاع عنه». الغرب على حافة الهاوية ـ مقابلة صحفية. وكتابه «أخطاء ومأزق البناء الأوروبي 1992».

هذا يعني أنه في النظام الحالي لوحدانية السوق، يمكن ربح أربعين مرة أكثر بالمضاربة في المواد الخام والعملات أو ما يسميه الاقتصاديون «المنتجات المتفرعة» والذي يعني كل ما يخص الدفع النقدي مقابل المنتجات أو الخدمات، أكثر من الربح المتحقق من الإنتاج أو من الخدمات. إنه نظام سيطرة البورصة.

الفصل الثالث

أصول الانحطاط

1

لكي نفهم اليوم كيف أن انحلال الأخلاق والفنون، يجد أحد أهم أسبابه الأساسية في إشاعة (أوهام) نمط الحياة الأمريكية، فإنه من المهم أن نضع المشكلة في تصور التاريخ الأمريكي، ذلك لأن انهيار الثقافة، والتي لا تلعب أي دور منظمْ في حياة المجتمع، ينتج عن تكوين الولايات المتحدة وتاريخها.

في أوروبا الثقافة، والإديولوجيات تلعب، دائماً، دوراً مهماً في الحياة السياسية، سواء تعلق الأمر مثلاً بأوروبا المسيحية أو بعصر الأنوار أو بالثورة الفرنسية، أو بعصر الوطنيات أو بالماركسية وثورة أكتوبر.

في أمريكا، باستثناء الهنود المحليين، والذين ثقافتهم الراقية تنظم العلاقات الاجتماعية ـ كما عند الأنكا ـ والذين أبيدوا (80% منهم خلال الإبادة الكبرى) أو أبعدوا أو همشوا، وأخيراً جرى وضعهم في «المحميات». فإن كل الناس الذي يسكنون الآن أمريكا هم من المهاجرين.

هؤلاء، أياً كان أصلهم أو ثقافتهم الأولى، فإنهم جاؤوا أساساً للبحث عن عمل، وكسب المال: إرلنديين طليان، عبيد سود جرى نفيهم إلى أمريكا. مكسيك، بورتوريك. كان لكل منهم دينه وثقافته، لكن ليس ثمة دين مشترك أو ثقافة مشتركة. الرباط الوحيد الذي يجمعهم يشبه ذلك يربط العاملين في شركة واحدة.

الولايات المتحدة هي جهاز إنتاج، ينتظم حول «عقلانية» تقنية أو تجارية، والتي يشارك فيها الأفراد كمنتجين أو مستهلكين، وبهدف واحد: زيادة كمية الرفاهية. كل هوية شخصية، ثقافية روحية أو دينية تعتبر مسألة خاصة، فردية تماماً، والتي لا دخل لها بأداء النظام.

ابتداء من هذه البنى الاجتماعية، العقيدة، الاعتقاد في معنى للحياة لا يمكن أن يكون إلا في جماعة، والتي حافظت على هويتها وثقافتها القديمة، أو عند بعض الأفراد الأبطال. بالنسبة للغالبية الساحقة من الشعب الأمريكي: الله مات. لأن الإنسان في هذا الشعب نزع منه بعده المقدس: البحث عن معنى. عندئذ صار المجال مفتوحاً لظهور العديد من الطوائف، والهروب في المخدرات أو أمام الشاشة الصغيرة. الكل يغلف بطهرية رسمية، والتي تتسامح مع كل أشكال اللامساواة ومع كل المجازر، وتقدم لها حتى التبرير.

أول مراقب، والأكثر دقة، للولايات المتحدة كان توكفيل، الذي كشف عام 1840، في كتابه «الديمقراطية في أمريكا» عما هو

أساس في هذه الآلية، التي كانت آنذاك وليدة «لا أعرف شعباً حب النقود يستحوذ على قلوب الناس فيه» أكثر من الشعب الأمريكي. إنه «شعب عبارة عن تجمع مغامرين ومضاربين».

اليوم أيضاً يمكن العثور في تاريخ الولايات المتحدة على أسس انحطاط ثقافتها وانهيارها.

«من وجهة العلاقات مع الطبيعة، وخلال أكثر من قرن، الحدود لم يكن لها المعنى المكاني الذي كان لها في أوروبا: إنه فضاء مفتوح وحتى نهاية القرن التاسع عشر، حيث تم الوصول إلى المحيط الهادي وأعلن رسمياً «غلق الحدود». هذا الفضاء كان مفتوحاً أمام كل أعمال النهب وكل أنواع التدمير: تدمير الغابات، الحيوانات، وكذلك البحث عن مناجم الذهب أو الفضة».

العلاقة مع الناس الآخرين كانت أيضاً ذات طبيعة خاصة، أولاً مطاردة الهنود للاستيلاء على أرضهم، والتي لم تترك للهنود إلا الإبادة أو معسكرات «المحميات». وأيضاً بين البيض أنفسهم كان يسود قانون الغاب، بهدف الاستحواذ على الثروات المسروقة من الهنود، وعلى أرضهم، وعلى الذهب المنتظر استخراجه منها.

أما معنى الحياة، فإنه يختزل في التوسع الكمي للملكية أو في الأرض وكنوزها. الكاوبوي وحياة الشمال الأقصى، مع بعض الاستثناءات تمتدح هذه الملحمة «العنصرية» وسيادة قانون الأقوى في حرب الجميع ضد الجميع. الطهرية المسيحية لا تلعب أي دور، إن

لم يكن دور التبرير، في العلاقات الاجتماعية الواقعية.

العنف الأشد دموية، ودعمه بواسطة تدين منافق هو صفة دائمة في تاريخ الولايات المتحدة منذ أصولها. الطهريون الإنكليز الأوائل الذين هبطوا أمريكا، حملوا إليها معهم العقيدة، الأشد دموية في تاريخ الإنسانية، إنها عقيدة «الشعب المختار» التي تبرر وتشرع الإبادة وسرقة أراضي الهنود على أنه «أمر من الله» حسب النموذج الإنجيلي، حيث «رب الجيوش» يعطي شعبه مهمة إبادة السكان الأوائل من الكنعان والاستيلاء على أراضيهم.

الاسبان سموا إبادة الهنود في جنوب القارة نشر الإنجيل، كذلك فعل الطهريون الإنكليز، من أجل تبرير طرد الهنود وسرقة أراضيهم، يستعملون كتاب «جوزوي» و«الإبادات المقدسة» في العهد القديم «من الواضح ـ كتب أحدهم ـ أن الله دعى المستعمرين إلى حرب الهنود الذين اطمأنوا إلى عددهم وسلاحهم فارتكبوا الشر، مثل القبائل القديمة من الفلسطينيين الذين واجهوا إسرائيل» (ترومان نيلسون طهريو ماسوشيست من مصر إلى الأرض الموعودة. جودا. . 1967). الأرض الموعودة هي أرض مستولى عليها.

إعلان استقلال الولايات المتحدة في 4 يوليو 1776، والذي يشار إليه أحياناً كمقدس، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن في فرنسا عام 1789 يعطيان مثلاً صارخاً عن نفاق الحرية بالمعنى الأمريكي للكلمة.

النص يعلن من أول سطوره «كل الناس خلقوا متساوين، لقد حباهم الله بحقوق لا يمكن التنازل عنها: الحياة الحرية البحث عن السعادة».

لكن إعلان الحرية هذا أبقى على عبودية السود خلال قرن كامل، وتطلب الأمر حرباً أهلية لكي يوضع حد عام 1865 لما سمى آنذاك «المؤسسة الخاصة» أي العبودية. لكن تحرير العبيد أفقدهم أي مكان في المجتمع (مثلاً لم يكن من حقهم امتلاك قطعة أرض الممنوح للبيض) آنذاك ظهر إرهاب الجماعات السرية مثل كوكلوكس كلان (القوانين السوداء) تستبعد العبيد السابقين من الحياة السياسية، كما أن الميز العنصري يستبعدهم من المجتمع المدني. الميز لا زال قائماً، رغم تضحيات مارتن لوثر كنج، حتى يومنا هذا.

النفاق صارخ أكثر فيما يتعلق بالهنود. للمرة الأولى يظهر بقوة ما سوف يكون المبدأ الدافع وراء كل اعتداءات الولايات المتحدة المستقبلية في أنحاء العالم: العدوان والإبادة يقدمان على أنهما رد فعل دفاعي. إعلان الاستقلال، المنادي بالحرية والمساواة يصف الهنود بأنهم «متوحشون بدون رحمة والذين أعمالهم أو أسلوبهم المعروف: الحرب وتجزير كل شيء».

هكذا تحدث الإعلان عن السكان الأصليين، لكي يبرر مقدماً المجازر وسرقة أراضيهم، معتبراً هذا «دفاعاً شرعيّاً». الإبادة جعلت عدد السكان المحليين يهبط من 15 مليون إلى 200 ألف نسمة. كما

لو أن الهنود هم الذين غزوا أراضي المستعمرين. بينما الحقيقة هي أن المهاجرين القادمين من أوروبا هم الذين يسلبون الأرض ويدمرون حياة الهنود.

هكذا تكونت منذئذ، ابتداء من «الخطيئة الأولى» التي اقترفتها الولايات المتحدة، ضد الهنود والعبيد السود، السياسة الثابتة للولايات المتحدة.

في منتصف القرن التاسع عشر، سيمون بوليفار، أحد أبطال محاولات استقلال أمريكا اللاتينية، قال: يبدو أن الولايات المتحدة موجهة لتعذيب القارة وقهرها باسم الحرية (عن ناوم شومسكي الأديولوجيا والسلطان).

شاهداً على همجية وبربرية المستعمرين ضد الهنود المسلمين بأسلحة لا تقارن أبداً بأسلحة الغزاة، توكفيل وصف بسخرية مرة وإنسانية أليمة انتصار الحرية هذا «هذه المسيرة الظاهرة للحضارة في قلب الصحراء» بينما «في قلب الشتاء، والبرد كان قارصاً بشكل خاص، ثلاثة أو أربعة آلاف جندي يطاردون أمامهم الأجناس البدوية الذين يحملون معهم مرضاهم، وأطفال حديثي الولادة، وكبار السن على حافة الموت» مشهد مريع لم يمح أبداً من ذاكرته.

هكذا بدأ تاريخ شمال العالم الجديد.

عام 1754 بنجمان فرانكلان الناطق باسم الأنوار يعرِّف «أب الأمة» على أنه الذي يطرد الهنود ليعطي فضاء لشعبه.

جورج واشنطون يدعو إلى نفس الشيء، عندما كلف بتدمير مجتمع وحضارة هندية، وهما نسبياً متقدمان إذا أخذنا بمعايير عام 1779. إنه من النادر أن نرى نفاقاً وجبناً أخلاقياً أثار مثل هذا الإعجاب والتقديس لعدة قرون.

عام 1789 توماس جيفرسون يصف «كونفدراليتنا الأمريكية» على أنها القاعدة التي ابتداء منها كل أمريكا الشمالية والجنوبية يجب أن تعمر بالسكان. يقول «إنه شيء جيد ـ في تقديري ـ أن القارة تظل في يد العرش الاسباني، حتى يصير سكاننا أقوياء بما يكفي لنزعها منه قطعة قطعة. جون كينسي أدامز صاغ الأفكار التي قادت إلى عقيدة مونرو، يقول: بما أن نفوذنا يمتد في قارة أمريكا الشمالية، فإن هذا قانون طبيعي قانون الطبيعة له تطبيقات عدة واسعة جداً. أدامز تطرق إلى هذا مجدداً في موضوع جهود الصين من أجل وقف استيراد الأفيون من الهند ـ تحت الاستعمار الإنكليزي ـ هذه الجهود أدت إلى حرب الأفيون. إنكلترا استعملت القوة لتحطيم مقاومة الصين، باسم المبادىء «السامية» لحرية التجارة. المقاومة تمنع الامبراطورية البريطانية من دخول السوق الصيني، بمنع استيراد المنتوج الرئيسي المعد للتصدير الذي في حوزة الامبراطورية لبيعه للصين. محاولات الصين منع استيراد الأفيون هي ضد الطبيعة.. هكذا يشرح أدامز.

ودرو ويلسون يحدد هكذا «الواجب الأساسي نحو كل شعب واقع تحت الاستعمار هو تعليمه النظام وضبط النفس والتعود على

القانون والطاعة. . أما في الحياة العملية: الخضوع لحقنا في سرقته واستغلاله. وفي نص خاص يشرح الدور الذي يلعبه سلطان الدولة في هذا المشروع: بما أن التجارة لا تعرف حدوداً وطنية وحيث أن الصانع يريد أن يرى العالم سوقاً. . علم بلاده يجب أن يتبعه، وأبواب البلدان المغلقة في وجهه يجب تحطيمها. والامتيازات التي يحصل عليها الماليون يجب أن يقوم الوزراء بحمايتها حتى وإن أدى ذلك إلى أن سيادة البلدان الجامحة يداس عليها. . المستعمرات يجب خلقها أو الاستيلاء عليها لكي لا يهمل أو يترك أي ركن من العالم».

هذه الملاحظات السرية تقدم المعنى الحقيقي للمثال الويلسوني عن الحرية وتقرير المصير، مثال قدسه أحياناً مثقفو الغرب.

عندما صار رئيساً، بضعة سنوات بعد ذلك، وضع ويلسون نظريته في تقرير المصير موضع التنفيذ بأن غزا المكسيك وهيز بانيولا (هايتي والدومينكان). حيث جنوده يغتالون الناس ويدمرون، فارضين شبه عبودية، مدمرين النظام السياسي واضعين البلاد في قبضة الغزاة الأمريكان. سكرتيره للدولة، روبرت لا نسينق شرح معنى «عقيدة مونرو» في مذكرة اعتبر ويلسون نشرها «سياسياً خطأ» مع أنه يجد حججها غير قابلة للدحض:

«بالدفاع عن عقيدة مونرو فإن الولايات المتحدة تدافع عن مصالحها الخاصة، وحدة أراضي البلدان الأمريكية الأخرى مسألة

ثانوية، إنها ليست هدفا في ذاتها، مع أن هذا يبدو على أنه يقوم على الأنانية فقط فإن كاتب هذه العقيدة لم يكن عنده دافع أكثر سموّاً وأكثر كرماً يتقدم به «شومسكي».

التطرق إلى هذه الأصول المغلفة للأسطورة الأمريكية، ليس له إلا أهمية تاريخية، إذا لم يتطور هذا النظام السياسي خلال قرنين على مستوى عالمي مستنداً إلى نفس «المبادىء».

حتى بداية الحرب العالمية الأولى، هذا السطو كان يمارس خصوصاً على القارة الأمريكية. المشكلة الأساسية كانت «منع السيطرة الأوروبية على الأراضي الأمريكية ومؤسساتها بواسطة وسائل مالية أو غيرها «دوويت بول» مستشارة في روسيا في تقريره لسكرتير الدولة لانسينق بخصوص أهداف البلاشفة.

تاريخ الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر هو أولاً تاريخ إبادة الهنود من عام 1800 إلى 1835 كل القبائل الهندية جرى نفيها إلى ما وراء المسيسيبي، بأساليب نقل وإقامة تشير إلى ما سيكون عليه المنفى الهتلري.

بعد عام 1840، وبعد بناء السكك الحديد، جرى تجريد الهنود من آخر أراضيهم ووضعوا في محميات. أما الحيوانات التي كانت مصدر غذائهم ولباسهم وسكنهم فقد جرى تجزيرها بالآلاف. المقاومة الهندية مع ذلك لم تنته إلا بمجزرة ونديد كنى عام 1890.

* * *

تاريخ الولايات المتحدة هو أيضاً تاريخ استغلال العبيد السود، خاصة في زراعة القطن. هكذا هي السمات الأساسية لسياسة الولايات المتحدة الداخلية.

في سياستها الخارجية السمات الأساسية هي طرد اسبانيا والبرتغال من أمريكا بهدف فرض تغلغلها الاقتصادي وسيطرتها السياسية على القارة، وطرد إنكلترا لتستغل مكانها النفط.

المبادىء الأساسية لهذه السياسة الطاردة للهنود والبلدان الأوروبية معاً، حددها الرئيس مونرو في ديسمبر 1823 في رسالة إلى الكونغرس يقول فيها «للأوروبين القارة القديمة للأمريكان القارة الجديدة» هذه هي عقيدة مونرو.

انفجار سفينة حربية في ميناء هافانا كان مبرر الحرب ضد اسبانيا، التي انتزع منها: بورتوريكا، الفيلبين وكوبا.

الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918، بسبب تدمير الدول الأوروبية لبعضها، أخذ الذهب يتدفق على الولايات المتحدة، والتي جاءت بعد ذلك فقط لتقطف ثمار النصر في نهاية الحرب عام 1917.

أسطورة الولايات المتحدة محررة أوروبا هي خديعة مزدوجة:

خلال حرب 1914 ـ 1918. التدخل الأمريكي حدث عام 1917. أولاً لأن مصالح الأعمال كانت مهددة بسبب تدمير السفن الأمريكية التي استمرت تتاجر مع إنكلترا، وفي عام 1913، الوزير الألماني زيمرمان، وعد المكسيك بحلف ضد الولايات المتحدة من أجل

استعادة المكسيك المقاطعات التي خسرتها (تكساس، أرزونا، المكسيك الجديدة) تدخل القيصر هذا أحدث انقلاباً في الرأي العام الأمريكي لصالح حملة في أوروبا في 4 أبريل 1917.

هذه الحرب العالمية الأولى التي كلفت فرنسا 1,5 مليون موتى وألمانيا أكثر من مليون وسبعمائة ألف، يجب مقارنتها بالمشاركة الرمزية في النصر من طرف الولايات المتحدة والتي أدت إلى خسائر قليلة بالنسبة لها.

ازدهار عام 1920 ـ 1932، صار بذخاً مع تطور عصابات الإجرام والتي حفزها، مع مشاركة البوليس، قانون «التحريم» عام 1919، والذي أدى إلى شيوع «الخمارات» السرية، وأمكنة المواعيد، و«الزجاجات الخفيفة».

الهجرة الأجنبية جرى الحد منها من عام 1921 ـ 1924. الكوكلوكس كلان صارت مزدهرة، وفرضت الإرهاب في الجنوب، الشوفانية المسيطرة قادت أبرياء إلى الكرسي الكهربائي أمثال المحتج الإيطالي ساكو فنزيتي.

الهم السياسي الأول، صار آنذاك، تحطيم، بكل الطرق، كل نظام اجتماعي يقاوم نفوذها الاقتصادي. العدو الأساسي صار إذن الاتحاد السوفييتي. وخطر العدوى الذي يمثله هو رعب من نفس الشاكلة يخيم على أوروبا الغربية. القادة الأمريكان، لا يترددون (باسم الدفاع عن الحرية، أي الباب المفتوح أمام التوسع الاقتصادي

غير المحدود للولايات المتحدة)، في الاعتماد على أسوأ الدكتاتوريات.

خلال الحرب العالمية الثانية (التي استمرت من 1939 ـ 1945) الإنزال الأمريكي الإنكليزي في أوروبا حدث في 6 يونيو 1944 (بينما كانت الضربة اليابانية في 7 ديسمبر 1941 والتي دمرت خيانياً الأسطول الأمريكي في بيل هاربور. والأمريكان يحاولون إنقاذ مصالحهم في المحيط الهادي ضد التوسع الياباني).

الولايات المتحدة لم تتدخل ضد هتلر مباشرة إلا في يونيو 1944، عندما تكبدت ألمانيا، منذ يناير 1944 أول هزيمة لها والتي دمرت جيشها في ستالينقراد. (خسارة 400 ألف جندي منهم 140 ألف أسير).

في كل أوروبا المقاومة تستنزف الاحتلال النازي.

عندئذ جمع هتلر فرقه الخاصة (198 فرقة من 315) على الجبهة الروسية. 38 فرقة في إيطاليا و64 فرقة على جبهة تمتد من النرويج وحتى فرنسا في معمعان تفكك آلة الحرب الهتلرية حدث الإنزال في يونيو 1944، تبعه ضرب بالقنابل لإرعاب السكان، أدى إلى 570 ألف موتى 800 ألف جرحى بين السكان المدنيين. المثل الأشد وضوحاً كان قذف مدينة دويسد بالقنابل (135 ألف موتى مدنيون) في الوقت الذي فيه التقدم السوفييتي تجاوز المدينة والتي بذلك لم تعد هدفاً عسكرياً. في 6 أغسطس 1945 مسحت هيروشيما من الخارطة

بواسطة قنبلة ذرية راح ضحيتها 75 ألف ضحية. ناجازاكي ضربت ثلاث أيام بعد ذلك لتواجه نفس المصير، في الوقت الذي فيه امبراطور اليابان اقترح استسلام اليابان (انظر 39 ـ 45 حرب مجهولة. بول ماري دولاقورس 1995).

مفهوم الشيوعية كان مائعاً، عام 1955 مؤسسة وودرو ويلسون ورابطة التخطيط الوطني توصلتا إلى تحديد دقيق «للتهديد الشيوعي» والذي يعني التحول الاقتصادي في بلد ما «الذي يقلص من إرادته وإمكانيته أن يكون مكملاً للاقتصاديات الصناعية الكبرى».

هذه السياسة الممارسة بعد الحرب العالمية الثانية، كانت تمارس في كل أمريكا اللاتينية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى.

منذ عام 1922، السفير الأمريكي في إيطاليا، متناولاً «المسيرة على روما» التي قام بها موسوليني، والتي وضعت حداً للديمقراطية في إيطاليا، وصف المسيرة بأنها «ثورة شابة ورائعة» وشرح كيف أن الفاشيين ربما يكونون «العامل الأقوى في إنهاء البولشفية».

منذئذ إيطاليا الفاشية تمتعت بمعاملة متميزة من قبل الولايات المتحدة، في دفع ديون الحرب، كما أن الاستثمارات الأمريكية تدفقت عليها. عام 1933 روزفلت يتحدث عن موسوليني على أنه «الجنتلمان الإيطالي الرائع».

عام 1937، وزارة الدولة رأت أن «الفاشية صارت روح إيطاليا

لقد فرضت النظام على الغوغائية، والانضباط ضد التسيب وحلت مشكلة الإفلاسات».

التنديد بغزو إيطاليا لأثيوبيا لم يغير أبداً في العلاقات مع إيطاليا، السفير الأمريكي، لونق، يقدم أسباب ذلك «بدون هذا التوجه.. المظاهر العنيفة للبولشفية كانت ستظهر في المراكز الصناعية والمناطق الريفية حيث تسود الملكية» (شميث: الولايات المتحدة والفاشية الإيطالية وقاديس: السلام الطويل 1987).

هكذا كان الحال مع هتلر: عام 1933، القائم الأول بالأعمال الأمريكي في برلين كتب إلى واشنطون معلناً أن الأمل في ألمانيا يكمن في «الجناح المعتدل للحزب الذي يقوده هتلر والذي يتوجه بالنداء لكل الناس المتحضرين والعاقلين».

طالما أن المحور (بعد برل هاربور) لم يهاجم الولايات المتحدة، فإن هذا الموقف من الفاشية لم يتغير.

وزارة الدولة في عام 1937 اعتبرت الفاشية غير مناقضة للمصالح الاقتصادية الأمريكية، أي مع المفهوم الأمريكي للديمقراطية.

بعد الحرب نفس السياسة استمرت في أشكال جديدة.

منذ عام 1943 شهد جنوب إيطاليا اجتياح فرق الدوتشي، وفق نصائح تشرشل الخائف من شبح بولشفية صاعدة، دعمت الولايات المتحدة ملك إيطاليا المتعاون مع الفاشيين، وفرضت دكتاتورية المارشال بادوليو. تماماً كما فعل روزفلت عندما أقام في الجزائر عام

1942، ليس ديقول، وإنما الأميرال دالان: الهدف كان في كل أوروبا منع مقاومة الفاشية، هذه المقاومة لعب فيها الشيوعيون دوراً أساسياً، من الوصول إلى الحكم.

ومنذ أن تسرب عام 1976 تقرير بيك إلى الكونغرس، صار معروفاً مدى تدخل المخابرات المركزية في الحياة السياسية الإيطالية الأمر يتعلق بدعم تجاوز 65 مليون دولار منح للأحزاب السياسية المعتمدة وشركائها ما بين عام 1948 وبداية عام 1970 وفي عام 1976 سقطت حكومة الدو مورو، بعد الكشف عن أن المخابرات المركزية أنفقت، مليون دولار لدعم مرشحين مضادين للشيوعية (دافيد ماك ميكائل: أكاذيب زمننا 1990).

أصول الانحطاط

2

مجرمو الحرب النازيون جرى تجنيدهم من قبل أجهزة التجسس الأمريكية والأجهزة المضادة للمقاومة، كلوس باري، بدون شك، أشهرهم، المفوض السامي الأمريكي جون ماكلوي، أخرج من السجن أحد مجرمي الحرب النازيين، واسمه فرانسز سيكس، وعهد إليه بمهمة تطوير «جيش سري» تحت إشراف أمريكي، مع غيره من الضباط النازيين والأخصائيين في شؤون الحرب: إنهم يقدمون المساعدة للقوات العسكرية التي أقامها هتلر في بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي، في عمليات استمرت إلى ما بعد عام 1950. جهلين نفسه كان رئيس شبكة تجسس نازية على الجبهة الشرقية، أسند إليه مجدداً منصب مدير عمليات التجسس وضد التجسس من قبل الدولة الألمانية الجديدة، وتحت رقابة دقيقة من المخابرات الأمريكية.

في الواقع، الخوف العظيم بدأ في الولايات المتحدة مع أزمة 1929، عند انهيار البورصة، المترتب عن المضاربات المالية، أدى

إلى إفلاس عدة مصارف وشركات، وإلى صعود مدوخ للبطالة: 4 مليون عاطل عن العمل عام 1930، 7 مليون عام 1931، 11 مليون عام 1932.

انتخاب روزفلت عام 1932، وقيادة أركانه من المنظرين، أدخلا مبدأ جديد في علاقة الدولة بالاقتصاد «النموذج الجديد» والذي وإن حل المشكلات العاجلة، لكنه لم يحل الأزمة الأساسية. عام 1937 الدخل الوطني انخفض بمقدار 13% والعمالة 30%.

الحرب العالمية الثانية وحدها هي التي أخرجت الولايات المتحدة من الأزمة وإذا كان روزفلت قد رفض مساعدة فرنسا المهزومة عام 1940، إلا أنه منح إنكلترا مساعدات حفزت الإنتاج الأمريكي، من حيث صناعة آلاف الشاحنات والطائرات والدبابات والمدافع. الهجوم الياباني، الذي جرى دون إعلان حرب، على القاعدة الأمريكية في بيرل هاربور 7 ديسمبر 1941، قدم لروزفلت حجة حاسمة لصالح المواقف المتّخذة من قبله.

القوة الاقتصادية الأمريكية، في مواجهة أوروبا المنهكة بسبب الحرب، أتاحت لروزفلت، حتى قبل تدخله المتأخر، أن يصير مدير اللعبة، بالنسبة لأوروبا الغربية منذ يناير 1943، في الدار البيضاء، ثم ديسمبر 1943 في طهران وفي يالطا عام 1945، حيث كان المتحدث الأساسي مع ستالين في مسألة إعادة «تنظيم العالم» بعد سقوط هتلر.

الولايات المتحدة خرجت من الحرب في وضعية هيمنة تامة،

وضعية لا مثيل لها في التاريخ. منافسوها الصناعيون إما دمروا أو أصابهم الضعف الشديد. بينما إنتاج الولايات المتحدة الصناعي على تضاعف أربع مرات تقريباً خلال سنوات الحرب.

الولايات المتحدة تستحوذ في نهاية الحرب على نصف الثروة العالمية، بينما خسائرها البشرية كانت بسيطة جداً مقارنة بخسائر بقية العالم. هذه الحرب كلفت ألمانيا أكثر من 7 مليون، نصف القتلى من المدنيين، وروسيا 17 مليون موتى (10 مليون مدني) وفرنسا وإنكلترا مليون قتيل، منهم 450 ألف مدني، أما الولايات المتحدة فقد خسرت 280 ألف جندي «أي ما يعادل ضحايا حوادث السيارات في الولايات المتحدة خلال فترة الحرب».

جورج كينان، استبعد من قبل السلطات الأمريكية، لأنها تعتبره من «الحمائم» كتب عام 1948 «نحن نملك 50% من الثروة العالمية، بينما نملك 6,3% من سكان العالم. وفي هذه الحالة، وما لا يمكن تفاديه، أننا نكون موضع غيرة وكراهية. مهمتنا الحقيقية في المرحلة القادمة هي تطوير نظام علاقات يسمح لنا بالحفاظ على هذه الوضعية من اللامساواة دون تعريض أمننا الوطني للخطر. لتحقيق هذه الرغبة يتوجب علينا التخلص من أي عواطف وأن نتوقف عن أحلام اليقظة. انتباهنا يجب أن يتركز في كل مكان على أهدافنا الوطنية المباشرة، لا يجب أن نخدع أنفسنا، إننا لا نستطيع السماح لأنفسنا اليوم برفاهية المشاعر الأخروية أو عمل الخير على مستوى العالم. يجب التوقف عن الحديث عن أهداف غامضة وغير قابلة للتحقيق، فيما يتعلق بالشرق الأقصى، مثل

حقوق الإنسان، رفع مستوى الحياة والديمقراطية إن اليوم ليس بعيداً حيث سيتوجب علينا العمل وفق علاقات القوة وبقدر ما لا تزعجنا الشعارات المثالية يكون ذلك أفضل».

دراسات في السياسة التخطيطية عام 1948:

خطة الصقور، أي خطة بول نيتز؟ حددت بوضوح أكثر الأهداف «الولايات المتحدة كقوة عالمية، يجعل من الضروري تحديد عدو كلِّي «أي الاتحاد السوڤييتي» وجعله في مقام «الشيطان»، بشكل يجعل كل عدوان أو تدخل من طرف الولايات المتحدة، مبرراً مقدماً على أنه رد فعل دفاعي على تهديد شامل، «امبراطورية الشر» صارت منذئذ «الاتحاد السوڤييتي». عندئذ ليس من المهم أن كوريا أو ڤيتنام لم يغزوا الولايات المتحدة، الولايات المتحدة تغزوهما على بعد 10 آلاف كيلومتر من حدودها وتعلن نفسها في حالة دفاع شرعي.

الاتحاد السوڤييتي عام 1917، بعد نزيف الحرب العالمية الأولى الرهيب، لم يكن بعد ذا قدرة عسكرية. لكنه مع ذلك ندد به على أنه خطر أساسي بسبب أخطار «العدوى» التي يحملها، والتي تهدد بقاء النظام الرأسمالي.

«أمن الولايات المتحدة كان في خطر عام 1917، وليس فقط عام 1950، والتدخل كان دفاعاً ضد التغير الاجتماعي في روسيا وبوادر النوايا الثورية» (قاديس: السلام الطويل 1987).

لهذا السبب، السيناتور وارين هاردينق (الذي صار بعد ذلك بقليل رئيس الولايات المتحدة) كتب: «البلشفية تهديد يجب تدميره، الغول البلشفي يجب القضاء عليه».

وجود الاتحاد السوفييتي نفسه يمثل هكذا عدواناً، وللولايات المتحدة حق الدفاع عن نفسها في كل مناطق العالم.

أهداف الحرب الباردة صارت محددة بوضوح: مجلس الأمن الوطني حددها على النحو التالي: الصراع بين قوى النور وقوى الظلام لا يهدد فقط جمهوريتنا وإنما الحضارة نفسها، الهجوم على مؤسسات العالم الحر هو هجوم شامل ويفرض علينا، ومن مصلحتنا، مسؤولية قيادة دولية عالمية».

الهيمنة الكاملة على الصحافة، والنشر والجامعات، والسينما والتلفزيون من قبل الطبقة الحاكمة، جعل الرأي العام يقبل بسهولة هذه النظرة للعالم.

لقد لاحظ توكفيل هذه الانضباطية في كتابه «الديمقراطية الأمريكية عام 1840» «لا أعرف بلداً حيث لا يوجد إلا القليل من استقلالية الروح والنقاش، إلا في الولايات المتحدة».

عام 1858 الكاتب هنري دافيد تورو، أحد المنشقين النادرين صاحب كتاب «الحياة في الغابة» كتب:

«ليس ثمة حاجة لقانون يضبط حرية الصحافة، إنها تقوم بذلك بنفسها، وأكثر مما يجب، ضمنياً المجتمع وصل إلى إجماع حول ما

يجب أن يقال، وتبنى أساساً عاماً، وقبل ضمناً تجريم كل من يحيد عنه، مع أنه لا يوجد واحد من ألف يجرؤ على قول شيء آخر» وسيكون أكثر دقة، كما يضيف شومسكي، أن نقول: «لا واحد من ألف قادر على التفكير في شيء آخر» نظام ضبط التفكير يمارس سلطانه بطريقة فعالة.

في القرن العشرين، الرقابة على التفكير، صار الوعي بها أكثر. شخصيات مرموقة باحثون في العلوم السياسية، صحفيون، ممثّلو الصناعة والعلاقات العامة المزدهرة، وغيرهم اعترفوا أنه في بلد، حيث صوت الشعب يمكن أن يسمح فإنه من الضروري ضمان أن الصوت المعني يقول ما هو مناسب. التدخل إذن في مستوى التفكير يجعل لا حاجة للتدخل في مستوى التعبير.

في دولة مؤسسة على العنف الداخلي، يكفي السيطرة على ما يفعله الناس أما ما يفكرون فيه فليست له أهمية. أما حيث عنف الدولة محدوداً يصير من الضروري السيطرة على ما يفكر فيه الناس.

هذه الواقعة، جرى أحياناً الإعتراف بها في دوائر النخبة، حيث يجري الإلحاح على أهمية إعداد «إجماع» (كما يقول ولتر ليبان صحفي ومعلق سياسي متميز) أو صناعة «الإجماع» (كما يقول إدوارد بيرناي وهو وجه متميز في صناعة العلاقات العامة) لضمان أن الشعب يعتمد قرارات صادرة عن «المتنورين» الذين عليهم الابتعاد عن نفوذ الجماهير الأجلاف.

أحد النقاد النادرين لهذا التصور، والمختص في العلوم السياسية: روبرت دال، كتب: «إذا افترضنا أن الخيارات السياسية تكون ببساطة مفروضة على النظام من قبل القادة (قادة الأعمال وغيرهم)، بهدف الحصول على ما يريدونه، عندئذ نموذج الديمقراطية هذا يماثل في الجوهر نموذج الهيمنة التوتاليتارية» «شومسكي الأديولوجيا والسلطان».

* * *

على أرضية هذا التلاعب بالرأي العام يستحوذ القادة الأمريكان على السيطرة على العالم.

الهم الأول للأطقم الحاكمة كان ضمان قواعدهم الخلفية في أمريكا اللاتينية.

الضربة الأشد عنفاً، فيما بعد الحرب كانت ضد غواتيمالا، حيث الحكومة الشعبية للرئيس اربنز، تهدد امتيازات «المتحدة للفواكه» وشركات النفط.

من أجل تفادي تكرار التدخل العسكري المباشر، تم تحديد التدابير الضرورية من أجل دمج القوات المسلحة اللاتينية الأمريكية في النظام الأمريكي، تشجيع زيادة عدد الأشخاص المؤهلين، من أمريكا اللاتينية، للتدريب في مدارس الجيش الأمريكي ومراكز التدريب التابعة له في الولايات المتحدة.. بما في ذلك الأكاديميات العسكرية. تشجيع العلاقات الشخصية الحميمية بين العسكريين

الأمريكان واللاتين أمريكان، وبشكل يشجع اللاتين أمريكان على فهم وتبني أهداف الولايات المتحدة. والإعتراف بأن الأجهزة العسكرية في معظم بلدان أمريكا اللاتينية، تلعب دوراً مهماً في الحكم أدى إلى البحث عن النمطية التاسعة وفق المواصفات الأمريكية للتنظيم والتدريب والعقيدة وتجهيز القوات المسلحة في أمريكا اللاتينية بهدف عرقلة إرسال ـ دول أخرى ـ للجان عسكرية إلى أمريكا اللاتينية، وضمان أن المعدات الأمريكية هي التي تستخدم. نلاحظ أن هذه التدابير تهدف إلى دمج فعلي للجيوش اللاتينية الأمريكية في بنية القيادة العسكرية الأمريكية موجهة ضد «أعدائنا التاريخيين في أمريكا اللاتينية» أوروبا والسكان المحليين (مجلس الأمن الوطني).

وعندما أفعال القتلة تجعل مستحيلاً الإبقاء عليهم في السلطة، فإن الولايات المتحدة تحل الفساد محل الإرهاب، يُستبدلون بقادة «منتخبين» كما في الأرجنتين، البرازيل، بنما (بعد أن استخدمت نورييقا) وفي نيكاراقوا من أجل محاولة الإبقاء على السوموزية بدون سوموزا وبعد ثلاثين ألف من الموتى.

* * *

المشكلة طرحت، بشكل حاد في أوروبا غداة الحرب العالمية الثانية، الخطر كان مزدوجاً، كما أكدته المخابرات المركزية منذ 1947 «أن أكبر الأخطار على أمن الولايات المتحدة هو خطر انهيار اقتصاد أوروبا الغربية ونتائجه: وصول عناصر شيوعية إلى السلطة».

لمواجهة هذا الخطر أطلق قادة الولايات المتحدة «خطة مارشال» التي تستهدف كما يقولون إعادة بناء أوروبا.

لكن الشروط السياسية كانت محددة: أولاً إبعاد الشيوعيين من الحكومات الغربية.

التدخل الأجنبي كان واضحاً:

الوزراء الشيوعيون أبعدوا من الحكومة الفرنسية في 4 مايو 1947. الوزراء الشيوعيون الإيطاليون أبعدوا من الحكومة 13 مايو 1947. الوزراء الشيوعيون البلجيكيون أبعدوا من الحكومة في نفس الشهر. حالاً بعد هذا، في 5 يونيو 1947. أعلنت رسمياً «مقترحات مارشال» عندما تم انجاز هذه النتيجة، صار ممكناً تطبيق هذه الخطة، والتي تمثل بالإضافة إلى أمور أخرى، وسيلة ضغط سياسي وبرنامج ترويج المنتجات الأمريكية في أوروبا.

المساعدة كانت الهدف الثانوي في خطة مارشال. دراسة مؤرخة في أبريل 1947، تلاحظ: أن المساعدة الأمريكية يجب أن تخصص فقط للبلدان ذات الأهمية الاستراتيجية الكبرى بالنسبة للولايات المتحدة، باستثناء بعض الحالات النادرة، حيث الفرصة تسمح للولايات المتحدة الحصول على رضى عالمي بفضل فعل إنساني دعائي.

سكرتير الدولة، دين أشيسون، وبعض السيناتورات الأمريكان أصحاب النفوذ، اتفقوا عام 1950 على أنه «إذا ظهرت المجاعة في

القارة الصينية فإن على الولايات المتحدة تقديم بعض المساعدة الغذائية، ليس بما يكفي لتخفيف المجاعة، وإنما بما يكفي لتسجيل نقطة في الحرب النفسية».

من أجل إعطاء قاعدة أكثر صلابة لهذه العملية السياسية والاقتصادية، مذكرة مجلس الأمن الوطني عام 1950، تقر استراتيجية قامعة تستهدف «التسريع في تعفن النظام السوفييتي من الداخل، وزرع بذور الفساد في النظام السوفييتي، بواسطة سلسلة من الأعمال السرية وغيرها. والتي تتيح التفاوض على اتفاق مع الاتحاد السوفييتي أو مع الدولة أو الدول التي تأخذ مكانه». الوسائل السرية شملت في ذلك الوقت إرسال امدادات وعملاء لجيوش تقاتل في روسيا وفي أوروبا الشرقية والتي دعمها هتلر. وإقامة إدارة التجسس في ألمانيا الاتحادية وجعلها في يد رينهارد جهلين والذي سبق له إدارة التجسس العسكري النازي على الجبهة الشرقية، وتجنيد مجرمين نازيين للمساهمة في المشروع الكلي فيما بعد الحرب المستهدف تدمير المقاومة المضادة للفاشية.

عندما عملاء من هذا النوع لم يعد بإمكانهم حمايتهم في أوروبا فإنهم يرسلون لمتابعة مهامهم في أمريكا اللاتينية.

هكذا كان حال كلوس باري، الذي أرسل إلى بوليفيا، حيث شارك بنشاط في انقلاب عام 1980. وحيث جرائمه كانت أكثر دموية من تلك التي اقترفها في فرنسا أيام هتلر.

السلام عام 1945، ثم انهيار الاتحاد السوفييتي عام 1989، خلق للولايات المتحدة مشكلات صعبة، تتعلق بتبرير سياستها التسلحية، والتي كانت لا غنى عنها في أداء الاقتصاد الأمريكي، أمام الرأي العام الأمريكي.

«شبح السلام المزعج يطرح مشكلات شائكة، إنه يهدد اللجوء المستمر إلى البرامج العسكرية الكنزية، والتي على أساسها، في سنوات ما بعد الحرب، يقوم جزء كبير من إدارة اقتصاد الدولة، الرئيس السابق للقيادة العسكرية، الجنرال إدوارد مايير، يرى أن جيشاً ذا تقنية عالية، والمتطلبة لاستثمارات مهمة يضمن «عوائد كبيرة للصناعة في الخارج. . دبابات آلية، طائرات تقاد عن بعد، عمليات الكترونية متطورة. كلها ذات فوائد مشكوك فيها بالنسبة للهدف العسكري في المستقبل، لكن المشكلة ليست هنا، المزعج أن الأمل في رؤية هذه التقنية تطوّراً ضعيف. كيف اقناع الناس بتحمل التكاليف بينما لا يمكن التلويح لهم بتهديد شيوعي بفقد هذا الأخير مصداقيته» (وال استريت جورنال 1989).

يجب إذن العثور على بدائل «الامبراطورية الشر».

الحرب ضد المخدرات تقدم مبرراً جديداً للتدخل، كذلك «حق التدخل لأسباب إنسانية» والدفاع عن القانون.

امبراطورية الشر الجديدة صارت بعد ذلك العراق. منذ عدة سنوات كان صدام حسين يمثل، بالنسبة للولايات المتحدة، سداً

ضد الإسلام الذي كانت إيران والخميني تجسيداً له. لم يرفض السلاح ولا التمويل.لذلك أطلق عليه كاتب فرنسي «ديقول العراق» لكن حالما أراد استعادة نصف إنتاجه النفطي الذي انتزع منه عام 1962، عن طريق تهديد عسكري على النمط الاستعماري، أي الكويت (التي كانت دائماً تحت الامبراطورية العثمانية وكذلك تحت الاحتلال الإنكليزي تابعة للواء البصرة) فإن الولايات المتحدة مع شركائها واتباعها، تقمصت دور المدافع عن «الحق» والقانون الدولي ضد هذا «العدوان» بعد أن قبلت، وواجهت بالڤيتو أي عقوبة ضد إسرائيل، أن يكافىء العدوان ضد فلسطين والجولان باحتلال وضم أراضي أجنبية بما في ذلك القدس.

الأمر هنا يتعلق بتقديم «عبرة» أو مثل، يظهر للعالم الثالث كله، أنه لا يسمح لأي شعب، وإلا تعرض للدمار، بأن يطمح في الوصول إلى التقنية العالية، وأن يستغل ثرواته الوطنية ـ النفط ـ بدون رقابة القوى العظمى، وخاصة التملص من ذلك الدين، الذي لا يجرؤ على ذكر اسمه، ولكنه مفروض على العالم كله من قبل الولايات المتحدة إنه دين وحدانية السوق وعبادة المال.

ضرب البلاد بالقنابل كلف ـ حسب الصليب الأحمر ـ أكثر من 200 ألف موتى من المدنيين، أما الإبقاء الإرادي على الحصار فقد قتل 500 ألف طفل بسبب عدم توفر الغذاء والعناية الصحية.

عندما أرسلت الولايات المتحدة جيوشها إلى العربية السعودية

في أغسطس 1990، رئيس الصفحة الدبلوماسية، في نيويورك تايمز توماس فريدمان، كتب في 12 أغسطس «الولايات المتحدة لم ترسل جيوشها لمساعدة العربية السعودية لمقاومة العدوان فقط، وإنما لدعم دول الأوبك التي تخدم أكثر المصالح الأمريكية». أما الواشنطون بوست فقد لاحظت أن الخطوة «كانت تماماً في غير محلها»، مستشهدة بنص لتوم مان مدير شؤون الحكومة في معهد بروكلين يقول فيه «بوش يتعامل مع بلدان الشرق الأوسط على نمط استعماري». واشنطون بوست 13 أغسطس 1990.

هذه العملية الاستعمارية، كانت في الواقع ملحقاً للعدوان الإنكليزي الذي تلى استعادة الجنرال قاسم عام 1961، الامتيازات (94% من الأراضي الوطنية) الممنوحة للشركات النفطية الغربية من قبل حكومة دمية فرضها الاحتلال الاستعماري.

«الوزير الإنكليزي للشؤون الخارجية، لويد، أرسل برقية سرية للوزير الأول، فيها يفكر في خيارين فيما يتعلق بالكويت «احتلال» بريطاني مباشر، أو استقلال صوري. لقد كان حذراً من أسلوب القوة، الاحتلال له ميزة السيطرة على النفط الكويتي لكن هذا يمكن أن يوقظ المشاعر الوطنية في الكويت، ولن يكون بدون آثار على الرأي العام العالمي وبقية الوطن العربي. إذن من الأفضل إقامة نوع من «سويسرا كويتية» حيث الإنكليز لا يسيطرون مباشرة على النفط. إذا اخترنا هذا الحل، فإنه من الواضح إذا سارت الأمور بشكل سيء، فإننا نجد أنفسنا مضطرين للتدخل بقوة مهما كان مصدر

القلاقل». ويشير إلى «تضامن الولايات المتحدة معنا فيما يتعلق بالخليج، والذي يعني اتّخاذ تدابير جدية وجذرية للحفاظ على وضعنا في الكويت. وحلول مماثلة من قبل الأمريكان فيما يتعلق بحقول نفط آرامكو في العربية السعودية. الأمريكان موافقون على أن حقول نفط الكويت والسعودية والبحرين وقطر تظل في أيدي الغرب مهما كان الثمن» كما يلخص المصالح الإنكليزية والغربية في الخليج على النحو التالي:

1 ـ ضمان حرية وصول إنكلترا والدول الغربية إلى نفط دول الخليج.

2 ـ ضمان جاهزية هذا النفط وفق اتفاقات امتيازية (بالجنيه الإسترليني) والحفاظ على الترتيبات المقبولة من أجل استثمار الدخول الفائضة في الكويت.

3 ـ وقف الشيوعية وشبه الشيوعية في هذه المنطقة وما وراءها والذي يعني السيطرة على «النزعة القومية العربية» التي يستخدمها السوفيت في التسرب إلى المنطقة.

سياسة المستقبل في الخليج 15 يناير 1958:

وثائق أمريكية، في نفس الفترة، تحدد الأهداف الإنكليزية في عبارات مماثلة «المملكة المتحدة تؤكد أن استقرارها المالي سوف يكون مهدداً جدياً إذا نفط الكويت والخليج لم يعد متوفراً بشروط معقولة. من ناحية أخرى لا تستطيع إنكلترا الاستغناء عن الاستثمارات

الضخمة القادمة من هذه المنطقة في المملكة، الجنيه الإسترليني يحتاج إلى دعم نفط الخليج. هذه هي الضرورات البريطانية.

كما أن مصدراً مضموناً للنفط هو ضروري أيضاً لاقتصاد أوروبا الغربية، وهذا يعطي الولايات المتحدة حجة إضافية لدعم، وفي حالة الضرورة، مساعدة الإنكليز من أجل الإبقاء على سيطرتهم على الكويت والخليج بالقوة «مجلس الأمن الوطني 1958».

أما إيزنهاور فيعتبر الشرق الأوسط على أنه «الموقع الإستراتيجي الأكثر أهمية في العالم».

غداة الحرب العالمية الثانية، أعدت الولايات المتحدة خطتها الجغرافية السياسية: «مجموعة عمل» من مجلس العلاقات الخارجية (الذي بواسطته عالم الأعمال يمارس نفوذه في السياسة الخارجية) ووزارة الدولة، صاغت تصوراً كما عرف بعد ذلك «بالمنطقة الكبرى». منطقة يجب أن تخضع لمصالح الاقتصاد الأمريكي، وتشمل على الأقل نصف الكرة الغربي، الشرق الأقصى والامبراطورية البريطانية السابقة.

هذه الخطة استوجبت التطوير ـ قدر الإمكان ـ ليجعل منها نظاماً شاملاً والذي يشمل، على كل حال، أوروبا الغربية والاحتياطات النفطية في الشرق الأوسط، والتي كانت آنذاك تنتقل إلى أيدي الأمريكان» (نوام شومسكي الأديولوجيا والسلطان).

«المفهوم الأمريكي للأمن الوطني يشمل مجال نفوذ استراتيجي

يقع في قلب نصف الكرة الغربي (وهو مجال يقصد منه أوروبا وغيرها وحيث النفوذ الإستراتيجي يتضمن أيضاً سيطرة اقتصادية) والسيطرة على المحيط الهادي والأطلسي. إنه نظام يقوم على سلسلة من القواعد الخارجية بهدف توسيع الحدود الإستراتيجية، وترويج السلطان الأمريكي، ونظام أكثر اتساعاً يقوم على حق الانتقال من أجل تسهيل تحويل القواعد التجارية إلى قواعد عسكرية. والوصول إلى الموارد والأسواق في معظم أجزاء أوراسيا. ومنع وصول أي عدو محتمل إلى هذه الموارد، والحفاظ على التفوق الأمريكي» (مالفين ليفلر: الولايات المتحدة والبعد الإستراتيجي لخطة مارشال 1988).

سياسة الإفراط في التسلح تلعب دوراً حاسماً في هذه البرمجة: «من الواضح وجود إمكانية اتفاق دائم على السلاح في هذا البلد» (مجلة وال استريت 1951).

الإنفاق العسكري، في الولايات المتحدة، يحفز بطريقة مهمة الإنتاج الصناعي الأوروبي وشراء مواد استراتيجية خام من المستعمرات «الأوروبية» مما يقلص العجز في الدولار، لدرجة أن المساعدات، وفق خطة مارشال، لبريطانيا أوقفت عام 1950. مع أن الآثار على المدى الطويل، من وجهة نظر هوقان كانت متناقضة. في حالة اليابان، الإنفاق العسكري الأمريكي، خاصة خلال حرب كوريا، لعب دوراً أساسياً في إعادة قيام الصناعة ما بعد الحرب. كوريا الجنوبية استغلت، بنفس الطريقة، حرب ڤيتنام، في نفس الوقت مع غيرها من حلفاء الولايات المتحدة.

دور العالم الثالث كان خدمة حاجات الشركات الأمريكية، في أمريكا اللاتينية كما في غيرها. «حماية مواردنا الطبيعية كان ضرورة ملحة» هكذا يشرح جورج كينان «ومنذ أن صار لتهديد مصالحنا أساساً محلياً» يتابع قوله: «يجب علينا أن نفهم أن الجواب المناسب يمكن أن يبدو غير مقبول» إنه هنا يريد الحديث عن «القمع البوليسي الذي تمارسه الحكومات المحلية» «التدابير القمعية جداً من طرف الحكومات لا يجب أن تحرك عواطفنا، لأن النتائج سوف تخدم مصالحنا» ويخلص إلى أنه «من ناحية عامة من الأفضل أن نضع في السلطة نظاماً قوياً وليس حكومة ليبرالية إذا تبينت هذه متسامحة ومتعاطفة مع الشيوعيين». يجب ملاحظة أنه في الخطاب الأمريكي كلمة شيوعي تستخدم كمصطلح يشير إلى قادة النقابات ومنظمات جماهير الفلاحين والجماعات التعاونية التي أسسها رجال الدين وكل أولئك الذين أهدافهم ليست «سياسياً سلميّة» بالطبع من وجهة النظر الأمريكية الأهداف السلمية كانت محددة في أعلى المستويات وفي وثائق سرية جداً: التهديد الخطير للمصالح الأمريكية يأتي من «الأنظمة الوطنية» التي تستجيب لضغط الشعب مستهدفة تحسيناً مباشراً لمستوى حياة الجماهير، وإلى تنويع الاقتصاد «هذه المطالب تدخل في صراع ليس فقط مع الحاجة لحماية «مواردنا» لكن أيضاً مع انشغالنا بتشجيع مناخ ملائم للاستثمار الخاص، وضمان ربح معقول لأولئك الذين يأتون بالرساميل الأجنبية» مجلس الأمن الوطني 18 أغسطس 1954.

«في يناير 1990، وفق وزير الدفاع ديك شيني، الذي يشارك في وجهة النظر هذه الرئيس بوش، الولايات المتحدة تحتاج دائماً لإسطول مهم (وكل قوات التدخل بشكل عام) لمواجهة الصراعات الكامنة وحماية المصالح الأمريكية مثلاً في آسيا وأمريكا اللاتينية - في المستقبل - يتابع شيني - قوتنا العسكرية ستكون عنصراً أساسياً في توازن القوى، لكنها سوف تتأكد بطريقة مختلفة، من الممكن جداً أن الاستنجاد بقوتنا المسلحة سوف يثيره، ليس الاتحاد السوفييتي، وإنما العالم الثالث، وهذا يتطلب قدرات جديدة واقتراب متميز».

الفصل الثالث

أصول الانحطاط

3

فيما يتعلق بالتطورات الجديدة في السياسة الاستعمارية في مسألة فلسطين، ليس ثمة ثغرة. خلال ما سمي «عملية السلام» وهو تعبير عبثي، لأنه لا سلام إلا بالتطبيق الكامل لقرارات الأمم المتحدة، والمنتهكة بشكل مستمر من إسرائيل، خاصة فيما يتعلق باحتلال الضفة الغربية وإنشاء مستعمرات ووضع القدس. إسرائيل والولايات المتحدة أنجزا خطواتهما الدبلوماسية الخاصة بهما بهدف تفكيك خطر عملية سلام حقيقي. في مايو الائتلاف الحاكم ـ ليكود عمال ـ اقترح خطة شامير، في الحقيقة هي خطة شامير ـ برس. المبادىء الأساسية للخطة هي التالية: «لن تكون هناك دولة فلسطينية في قطاع غزة والمنطقة الواقعة بين إسرائيل والأردن». ولا يتوقع إحداث تغيير في وضع الضفة وغزة خارج الخطوط المشار إليها من قبل حكومة إسرائيل، وهذا يعني رفض حق تقرير المصير للفلسطينيين. تعبير «لا دولة فلسطينية» يعكس الرأي الأمريكي الإسرائيلي في رفض دولة فلسطينية، وإن دولة فلسطينية موجودة

أساساً وهي الأردن. انطلاقاً من هذا الموقف حق تقرير المصير للفلسطينين لم يعد مطروحاً. وهذا عكس ما يعتقده الفلسطينيون والأردنيون والأوروبيون وبعض الضالين الآخرين. هذه المبادىء الأساسية تتبنى اللاءات الأربع الواردة في برنامج حزب العمل: لا عودة لحدود 1967، لا إلغاء للمستعمرات، لا مفاوضات مع منظمة التحرير، لا دولة فلسطينية. الخطة تشير إلى «انتخابات حرة» «وديمقراطية!» تحت سلطة الاحتلال العسكري الإسرائيلي مع اقصاء منظمة التحرير.

الولايات المتحدة اعتمدت هذا المشروع، جيمس بيكر يشرح: «هدفنا كان دائماً اتباع وجهة مبادىء مبادرة شامير» «نحن لا نفكر في أي خطة أخرى ولا في أي مقترحات أخرى». في ديسمبر وزارة الدولة أعلنت خطة بيكر، تقترح هذه أن تحاور إسرائيل في القاهرة وفوداً من مصر وبعض الفلسطينيين المقبولين والمعتمدين لمناقشة أساليب تنفيذ خطة شامير ولا شيء غير هذا (نوام شومسكي: الديمقراطية المعيقة).

في الحقيقة السياسة الأمريكية يقودها اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة، والذي تصفه النيويورك تايمز بأنه «اللوبي الأكثر فعالية.. قوة سياسية في السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط» النيويورك تايمز تعتقد أن اللوبي يمكنه الاعتماد على 40 أو 45 سيناتور على الأقل وعلى 200 من 435 من النواب.

اليهود الأمريكان يمثلون 2,6% فقط من السكان، لكن وفق مجلة فوربز 20% من المليونيرات ـ بالدولار ـ يهود مستعدين لمكافأة الأصوات المؤيدة لإسرائيل حسب تعليمات «لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية» «والتي تمتلك عام 1987 حوالي سبعة مليون دولار» وال ستريت جورنال 24 يونيو 1987.

تحت تأثير هذا النفوذ تُمنح إسرائيل 3 مليار دولار على شكل مساعدات اقتصادية وعسكرية (مما يعني 700 دولار لكل إسرائيلي سنوياً).

أفريقيا، باستثناء مصر، تحصل على 2 دولار لكل شخص سنوياً (سيرج هاليمي: اللوموند الدبلوماسي أغسطس 1989).

* * *

بعد انهيار الاتحاد السوڤييتي، صار الهدف الرئيس للسياسة الأمريكية السيطرة على البلدان غير المتطورة.

من أجل هذا تعمل على عرقلة كل محاولات بلدان الجنوب استخدام مواردها الوطنية في خدمة شعوبها. هذه السياسة بدأت بقلب حكومة مصدق في إيران وإعادة حكم الشاه.

خطر النزعة الوطنية اعترفت به وسائل الإعلام أيضاً. نجاح الإنقلاب المدعوم من المخابرات الأمريكية، والذي أدى إلى إسقاط نظام برلماني، حكومة مصدق، وهو الرئيس الوطني الإيراني المحافظ، وإعادة سلطان الشاه، أتاح للشركات النفطية الأمريكية

الحصول على 40% من الامتيازات التي كانت سابقاً للبريطانيين. نيويورك تايمز علقت على الحدث في افتتاحية تقدم المسألة على أنها «خبر رائع مهما كان مكلفاً لكل الأطراف المعنية ـ خاصة الإيرانيين ـ والذي يعلمنا الكثير إذا استخلصنا منه الدروس».

الدرس الأساسي يظهر على النحو التالي، النيويورك تايمز صريحة: «البلدان المتخلفة تملك موارد طبيعية مهمة، يجب عليها التفكير كثيراً في هذا المثل ـ إسقاط حكومة مصدق ـ إذا تبعت أولئك الذين يدعون إلى الوطنية، فإن هذا سيكلفها غالياً، ربما سيكون من المبالغ فيه أن نعتقد أن التجربة الإيرانية تردع مصدق آخر عن الاستيلاء على السلطة في بلدان أخرى، لكنها تعطي ربما حججاً قوية للقادة المتنورين الذين يفكرون في الأمور على مدى طويل ولديهم فكرة واضحة عن أولوياتنا» النيويورك تايمز، أغسطس 1954.

«هذا الإطار العام جرى تكييفه مع مناطق خاصة. هكذا حسب فريق تخطيط وزارة الدولة، برئاسة جورج كينان عام 1949، جنوب شرق آسيا وظيفته الأساسية توفير المواد الأولية، وأن يفتح أسواقه أمام اليابان وأوروبا الغربية. هذا التفكير قاد مباشرة إلى تدخل أمريكا في الهند الصينية، أولاً من أجل دعم الاستعمار الفرنسي، ثم الحلول محله. لقد كان يخشى أن استقلال ڤيتنام ينتشر كجرثومة وطنية في كل جنوب شرق آسيا» ميشل سكالير: نجدة الهلال العظيم مجلة تاريخ أمريكا سبتمبر 1982.

«هنا حيث البوليس والعسكريون لا يمكن السيطرة عليهم مباشرة، كما في نيكاراغوا بعد سوموزا أو بنما، فإنه من الضروروي قلب الحكومات، وإقامة أنظمة أكثر تبعية وإعادة تأسيس «جيش صالح» على شاكلة الحرس الوطني في عهد سوموزا، الذي كان لوقت طويل المفضل كثيراً عند الولايات المتحدة» تقرير المخابرات المركزية 13 مايو 1963. «برامج الدراسة في الكليات العسكرية تتغير حسب الأهداف، هكذا أعلنت كلية البحرية أن دراسة استراتيجيات حربية سوف تركز على الحرب المدنية ـ حرب المدن ـ والإرهاب والأزمات ذات التوتر الضعيف مثلاً غزو بنما. شكل جديد من الصراع ذو توتر متوسط مع قوى معادية من العالم الثالث يتطلب اهتماماً خاصاً، إذا أخذنا في الاعتبار الحاجة الملحة لتوسيع سلطان معين على مناطق أخرى، والحفاظ على الأسواق مفتوحة وعلى المواد الخام البعيدة» السيناتور وليام كوهين لجنة القوات المسلحة. ميكائل كلار: قوات الولايات المتحدة في مواجهة الجنوب يونيو 1990.

نفس المسألة يتناولها قائد البحرية: كراي. إنه يعلن «إن نهاية الحرب الباردة سوف توجه سياستنا الأمنية نحو الخارج، لكن دون تغيير أسسها، الصراع شمال ـ جنوب هو خط فاصل أساسي». ويضيف «يتوجب علينا الحفاظ على إمكانية وصولنا ـ دون عوائق ـ إلى أسواق العالم كله، وإلى الموارد الضرورية لدعم حاجيات صناعتنا يجب علينا إذن توفير قدرة فعالة للتدخل العسكري، مع

قوات قادرة على القيام بحملات، قادرة على تنفيذ مهام واسعة: من مكافحة التمرد، إلى الحرب النفسية، مروراً بنشر القوات بكل أنواعها. يجب علينا أن نتذكر سرعة تطور تقنيات السلاح، والتي يمكن للسلطات الجديدة، في العالم الثالث، الحصول عليها. يجب علينا إذن تطوير قدرات عسكرية موجهة لاستغلال الإلكترون والجينات وتقنيات بيلوجية أخرى... إذا أرادت أمتنا تأكيد مصداقيتها العسكرية خلال القرن القادم» كاري: مجلة القوات البحرية مايو 1990.

المؤرخ ريتشارد أميرمان يلاحظ أنه «بالنسبة له القوة والأمن الأمريكي يتوقفان أساساً على إمكانية الوصول إلى الأسواق وإلى المواد الخام في العالم، وخاصة في العالم الثالث، والذي تجب مراقبته بدقة» أميرمان تاريخ الدبلوماسية صيف 1990.

الإرادة السياسية للسيطرة على العالم، تأكدت بشكل أكثر وقاحة بعد تدمير العراق. وثيقتان من البنتاغون، أحداهما تحت إدارة بول ولفوتيز، والأخرى تحت إدارة الأميرال جيرميا مساعد رئيس لجنة القيادات الأمريكية، صريحتان جداً. نقتطف منهما أربعة نصوص: «النظام الدولي هو، في النهاية، مضمون من قبل الولايات المتحدة، وهذه يجب أن تكون في وضع القدرة على العمل بشكل مستقل، عندما لا يمكن تأمين فعل جماعي أو في حالة أزمة تتطلب فعلاً سريعاً».

«يجب علينا العمل من أجل منع ظهور نظام أمني أوروبي خالص، والذي يمكن أن يؤدي إلى اضطراب الحلف الأطلسي».

«دمج ألمانيا واليابان في نظام أمني جماعي تقوده الولايات المتحدة» «إقناع المنافسين المحتملين بأنه ليس لديهم أي أمل للعب دور كبير. للوصول إلى هذا الهدف يجب أن وضعية هذه القوة العظمى الوحيدة تستمر من خلال سلوك إيجابي وقوات عسكرية كافية لردع أي أمة أو مجموعة أمم عن تحدي الولايات المتحدة. وهذه يجب عليها الأخذ في الاعتبار مصالح الأمم الصناعية المتقدمة لتحبيطها عن تحدي قيادة الولايات المتحدة أو أن تحاول الطعن في النظام السياسي والاقتصادي القائم».

بول ماري دولاقورس: مجلة الدفاع الوطني. اللوموند الدبلوماسي أبريل 1992.

هذه الهيمنة التي بدأت بأكبر المجازر، مجزرة هنود أمريكا، استمرت عبر العبودية والميز العرقي ضد السود، وحماية الدكتاتورية وبين الأكثر دموية، في أمريكا اللاتينية، ثم في العالم كله، من موبوتو في أفريقيا إلى ماركوس في الفيلبين، موسومة بأهوال هيروشيما ومذابح العراق، كلفت ثمناً غالياً في الأرواح البشرية، والأشد فداحة في التاريخ، سواء بالتدخل المباشر أو بواسطة عملاء.

لكي لا نسرد إلا بعض الشواهد الحديثة: 4 مليون موتى في ڤيتنام 200 ألف من تيمور الشرقية بدعم منها، 200 ألف في أمريكا

اللاتينية بواسطة زبائنها، 20 ألف في لبنان بدون أي عقوبة بفضل الڤيتو الذي تملكه. مئات الآلاف في الفيلبين، 200 ألف في أمريكا الوسطى.

أمثلة عديدة أخرى.

حتى الصحفيين الأكثر جدية، عندما يجرون حسابات هذه الجرائم يخلطون في حسابهم الدولار والموتى. ها هي مثلاً الرسالة التي وجهها هوق سيدني إلى ريقان بخصوص نيكاراغوا:

«نتيجة مرحلة نيكاراغوا تشبه كثيراً ما تبحث عنه أمريكا عبثاً منذ وقت طويل، في محاولتها «الدفاع عن الحرية»: خسائر قليلة في الجانب الأمريكي، 300 مليون دولار مساعدة فقط للكونترا 1,3 مليون دولار من أجل الحرب الاقتصادية. قارن هذا مع ڤيتنام! - يقول سدني - 58 ألف أمريكي قتلى، 150 مليار دولار أنفقت وأمة غرقت في الحسرة وهزيمة قاسية».

مجلة تايم:

السمة الأخرى جرى تجسيدها بشكل واسع في حملات كوريا، العراق الصومال.. وغيرها. وزير الدولة دين أشيسون كان رائداً عندما كتب «إذا كانت سياستنا الحالية تأمل الحفاظ على تايوان، يجب عليها إخفاء رغبتها في فصل الجزيرة عن القارة بعناية. وإذا توجب علينا التدخل عسكرياً، فإن هذا يكون بواسطة الأمم المتحدة مع نوايا معلنة بدعم الطلب الشرعي للتايوانيين في تقرير المصير».

أما الأكثر فعالية أيضاً، من أجل خنق أي احتجاج، مهما كان مصدره حتى لو كان ذلك قساوسة: إنها فرق الموت.

«الأب ايناسيو الاكوريا»، مدير جامعة الجزويت، الذي اغتيل، يصف السلفادور على أنها «واقع ممزق مصاب بجروح شبه قاتلة». قريب جداً من الأرشفيك روميرو، وكانا معاً عندما كتب الأخير إلى الرئيس كارتر يطلب، عبثاً، وقف مساعدة الطغمة الحاكمة. الأرشفيك أخبر الأب الاكوريا أن رسالته أملاها هاجس «المفهوم الجديد للحرب الخاصة، والتي تعني تصفية جسدية لكل محاولة تنظيم شعبي تحت مبرر محاربة الشيوعية أو الإرهاب» الحرب الخاصة والتي تسمى أحياناً «ضد التمرد» «أو صراعاً ذا توتر ضعيف» أو أي ظاهرة أخرى من نفس النوع، ليست شيئاً آخراً غير الإرهاب الدولي. الذي هو منذ وقت طويل سياسة الولايات المتحدة الرسمية، سلاح في ترسانتها استخدمته في مشروعات اجتماعية وسياسية على نطاق كبير».

مجلة الجزويت - نيكاراغوا يناير 1990:

في مارس 1980 اغتيل الأب روميرو أرشفيك سان سلفادور، عندما كان يقيم القداس في كنيسته. دائماً بحجة مبدأ الديمقراطية الأمريكية برغم كل احتجاج على الصمت.

هذا لا يفاجيء أحداً، إن الأرشفيك روميرو جرى اغتياله وقتاً قليلاً بعد أن توسل الرئيس كارتر أن يوقف مساعدته للطغمة

الحاكمة. والذي توقع منها أنها تستخدم هذا الدعم من أجل المزيد من الظلم والقمع ضد منظمات الشعب المكافح من أجل احترام حقوق الإنسان الأكثر أساسية.

الأرشفيك وضع أصبعه على جوهر المشكلة رغم محاولات إخفاء الوقائع. طلبه ضمان أن الحكومة الأمريكية لا تتدخل، مباشرة أو لا مباشرة بواسطة الضغط الاقتصادي أو الدبلوماسي أو غيره والذي يهدد مصير شعب السلفادور، استجيب له بوعد أن المساعدة المقدمة للطغمة العسكرية سوف يعاد النظر فيها إذا توفرت الأدلة على سوء استخدام هذه المساعدة. الأرشفيك جرى اغتياله، وقوات الأمن دمرت المنظمات الشعبية، مقترفة أعمالاً بشعة مثل مجزرة ريوسومبول، والتي صمتت عن ذكرها وسائل الإعلام.

«استمرارية السياسة الإرهابية الأمريكية واضحة في التقرير حول «كتيبة اتلاكاتل» والتي درب جنودها على طاعة أوامر ضباطهم، والذين يكلفونهم باغتيال الجزويت بكل برود. أمريكاس واوتش كتبت مقالة حول الذكرى الثانية لاغتيال الأرشفيك. المجلة تستعرض أعمال الفرقة الخاصة هذه «التي صنعتها وجهزتها الولايات المتحدة» معلم من مدرسة الجيش الأمريكي في فور بينق ـ جورجيا ـ يصف جنود هذه الفرقة بأنهم «مرعبون بشكل خاص».

«لقد تعبنا في تعليمهم كيف يأسرون الخصم بدلاً من قطع الآذان» في ديسمبر 1981، شاركت الكتيبة في عملية قتل خلالها

مئات المدنيين. العملية كانت حمام دم واغتصاب وتعذيب. الضحايا حوالي ألف حسب مكتب المساعدة القانونية في الكنيسة. بعد ذلك تورطت في قذف القرى بالقنابل، وقتل مئات المدنيين، أغلبهم من النساء والأطفال وكبار السن: رمياً بالرصاص أو الإغراق... هذه هي أساساً الحرب الخاصة في السلفادور، منذ أول عملية عسكرية على نطاق واسع في مايو 1980، عندما اغتيل ستمائة مدني أو شوهوا في ريو سومبول، خلال عملية مشتركة مع الجيش السلفادوري والهندوراسي. هذه المجزرة كشفت عنها الكنيسة، وباحثون في حقوق الإنسان والصحافة الأجنبية. أما وسائل الإعلام الأمريكية فلم تشر إليها أبداً، لأنها شريكة في الحرب النفسية التي أنيطت بها.

اللجان القانونية من أجل حقوق الإنسان، أكدت في رسالة بعثت بها لوزير الدفاع شيني، إن قتلة الجزويت قد جرى تدريبهم على يد القوات الأمريكية الخاصة، وحتى ثلاثة أيام قبل الاغتيالات. الأب جون دوكورتينا، عميد العلوم في جامعة الجزويت السلفادورية، حيث اغتيل القساوسة، ذهب بعيداً عندما أكد أن الجنود الأمريكان، الذين حوصروا بعد ذلك بقليل في أحد فنادق سان سلفادور، خلال حادثة أثارت ضجة كبيرة، هم نفس المدربين العسكريين الأمريكان الذين تولوا تدبير الأمر.

بضعة سنوات قبل ذلك، بعض أسوأ المجازر التي ارتكبتها كتيبة اتلاكاتل، حدثت تماماً بعد تدريبات مماثلة!

بعد هذا الاستعراض لتاريخ الولايات المتحدة، منذ أصولها الدموية، وحتى السنوات الأخيرة، نرى من الضروري تقييم ما يعرف «بالديمقراطية الأمريكية» وكشف الأوهام والأكاذيب المتعلقة بهذا الشكل من «الحرية» التي تجعل من نفسها ضامناً لها.

أولاً داخل البلد نفسه: ما يسم الولايات المتحدة هو اللامساواة في الثروة وبالتالي اللامساواة في السلطان.

منذ 1900: $\frac{1}{8}$ من العائلات الأمريكية تستحوذ على $\frac{7}{8}$ من الثروة الوطنية (أندري موروا: الولايات المتحدة الأمريكية).

منذ بداية القرن العشرين، جيمس تروسلو ادامز، وصف تحت عنوان «عصر الديناصورات»، هيمنة المجموعة المصرفية والصناعية المشابهة لتلك الوحوش التي عرضها أحد الأفلام، والتي تمثل تعبيراً مجازيّاً عن العالم الذي تطور منذ ذلك الحين.

هذه اللامساواة لا تتوقف عن الإتساع.

حسب تقرير البنك الدولي، «من عام 1980 ـ 1988، حصة البلدان الفقيرة والفقيرة جداً من الثروة هبطت من 23% إلى 18% تقرير عام 1990، الصادر عن نفس البنك، يوضح أنه: عام 1989 الموارد المحولة من البلدان في طريق النمو إلى البلدان الصناعية بلغت مستوى قياسياً. تسديد الديون تجاوز مبلغ 42,9 مليار دولار، بزيادة ثلاثة مليار دولار مقارنة بعام 1988. بينما انتقال الرساميل من البلدان الغنية هبط إلى أدنى مستوى خلال الحقبة الجارية» تقرير البنك الدولي 1990.

النتائج وضحها الصحفي ديريك جاكسون من «بوستون قلوب» لقد لاحظ أن اليونسيف تضع سويسرا في أول الصفوف فيما يتعلق بالدخل لكل نسمة أمام الولايات المتحدة والتي تحتل رقم ـ 2 ـ لكن الولايات المتحدة تأتي في المرتبة الثانية والعشرين فيما يتعلق بوفيات الأطفال، بعد إرلندا، أسبانيا، بينما كانت في المرتبة الثانية عام 1960. بالنسبة للأفارقة الأمريكان نسبة الوفيات تضاعفت تقريباً بالنسبة للمتوسط الوطني. في بوستون وفي حي روكمبوري، الذي أغلب سكانه من الأقليات العرقية، نسبة الوفيات تقريباً ثلاثة أضعاف المتوسط الوطني وهذا يجعل من حي روكمبوري، المفترض أنه ينتمي للأمة الأكثر ثراء في العالم ـ بعد سويسرا ـ في المرتبة الثانية والأربعين من حيث معدل وفيات الأطفال.

دراسة مكملة لمؤتمر، نشرت عام 1989، تُظهر أنّ «الخمس من السكان الأشد فقراً، شاهدوا دخلهم ينخفض 6% من عام 1979 إلى عام 1989. في نفس الوقت ارتفعت الدخول بمعدل 11% بالنسبة لخمس السكان الأكثر ثراء». هذه الاحصائيات تأخذ في الاعتبار التضخم والمبالغ المخصصة للمساعدات الاجتماعية. بالنسبة لخمس السكان الأقل حظاً الدخول الشخصية انخفضت بمقدار 9,8%، بينما ارتفعت بمقدار 15,6% دخول الخمس الأكثر حظاً.

نفس التقرير يعترف بهذا «الميز» الاقتصادي. الهوة بين الأمريكان الأغنياء والفقراء اتسعت لهذه الدرجة خلال حقبة الثمانين، وإن 2,5 مليون من الأغنياء سوف يحصلون عام 1990

عملياً على مجموع دخول 100 مليون شخص من الذين في أسفل السلم. «مكتب الكونغرس للميزانية 1989».

عام 1996، رئيس بنود (برنامج الأمم المتحدة للتنمية) جيمس قوستاف، في لقاء صحفي نشرته اللوموند، أكد على أن الهوة بين البلدان الغنية والعالم الثالث مستمرة في الاتساع. وندد بوهمين:

أولهما : أن العالم الثالث يتمتع بنمو مستمر.

وثانيهما : أن القطاع الخاص هو الحل المعجزة لمشاكل التطور.

«هناك أسطورة أولى يجب مكافحتها، يشرح السيد جيمس قوستاف ـ إنها القول بعالم يتطور والذي يفضل عولمة الاقتصاد يتجه من حسن إلى أحسن تحت قيادة خمسة عشر دراقون ـ حيوان خرافي كالديناصور ـ في الواقع يتابع رئيس بنود، في أكثر من مئة بلد الدخل لكل مواطن هو اليوم أكثر تدنياً عما كان عليه منذ خمسة عشر سنة. بوضوح حوالي 1,6 مليار فرد يعيشون حياة أسوأ مما كانوا في بداية الثمانين».

على مدى جيل ونصف، يتابع رئيس بنود، الهوة بين الأكثر ثراء والأشد فقراً تعمقت، في بداية أعوام الستين كانت النسبة 1 إلى 30 بين 20% الأكثر ثراء و20% الأشد فقراً. اليوم النسبة هي 1 إلى 60. مع أن الثروة بشكل عام ازدادت كثيراً.

العالم في طريق التطور ضحية وهم أو خرافة أخرى «إنها

الاعتقاد في أن القطاع الخاص يمثل علاجاً عالمياً. وكما أنه من غير المنتظر أن عولمة التبادل تقود إلى عالم عادل، فإننا لا نتوقع من الاستثمار الخاص أنه يقود إلى ذلك.

ليس هناك علاقة ترابط بين حاجات بلد ما والاستثمارات الأجنبية في هذا البلد. خوصصة، ليبرالية، انفتاح، إنها الشعارات الأساسية لليبرالية في نهاية هذا القرن. . إنها تشجع النمو، لكنه نمو يرافقه فقر هائل ولا مساواة صارخة وبطالة في صعود مدوخ».

في الجامعات ذات المستوى العالي، يسيطر قانون السوق، مصاريف التلميذ تكلف عائلته 100 ألف إلى 150 ألف فرنك مصاريف دراسية فقط. أما بالنسبة للتعليم العام «فإن قطاع التعليم الأمريكي منهار» هكذا يستخلص تقرير مختصين من جامعة كولومبيا (عولمة الاقتصاد 1990) 40% من الشبان الأمريكان الذين يدخلون الكليات يعترفون بأنهم لا يحسنون القراءة السليمة، 23 مليون راشد أميون.

أما في مجال الصحة، فإن مما لا شك فيه أنه في الولايات المتحدة عيادات ومستشفيات ومراكز بحوث من أفضلها في العالم، لكن نظامها الصحي مع ذلك منهار: بالنسبة لوفيات الأطفال فإن الولايات المتحدة، تصنف في المرتبة الثانية والعشرين دولياً، ونصيب الإنفاق على الصحة يعتبر الأقل مما ينفقه أي بلد من البلدان الأوروبية.

اللامساواة تقود إلى الفساد والتهرب الضريبي: الإدارة المالية الأمريكية تقدر أن 20% من الضرائب الاتحادية لم تسدد. وهذا بالنسبة لعام 1989 فقط يمثل مئة مليار دولار. السوس ينخر قلب النظام. في عشر سنوات من 1980 إلى 1990، عدد القضاة الذين حكم عليهم بسبب التهرب الضريبي والفساد أكثر ارتفاعاً من عددهم خلال 190 سنة من تاريخ الولايات المتحدة.

النظرة التفضيلية للأغنياء تقود إلى إعطائهم السلطان. جون جاي، رئيس المؤتمر القاري، ورئيس أول للمحكمة العليا في الولايات المتحدة، أكد «أولئك الذين يملكون البلاد يجب أن يحكموها»، النظام السياسي كما النظام الاجتماعي أعد لخدمة حاجات الطبقات التي تحتكر الملكية.

السياسة التي من المفترض أنها تنظم «المدينة» دخلت في دوامة السوق، كل وظيفة لها ثمن. عام 1988، الانتخابات الأمريكية لمناصب السيناتورات والنواب تطلبت ميزانية دعائية مقدارها 500 مليون دولار (أي عشر مرات أكثر من عام 1971).

من هذه التناقضات: بين رفاهية صارخة عند البعض واقصاء البعض الآخر، تولد عنف عامّ لا يقاس بما يحدث في ضواحي المدن الأوروبية، والذي ليس إلا إرهاصات لذلك. في نيويورك، حسب احصائيات البوليس، هناك في المتوسط حادث اغتيال كل أربع ساعات، اغتصاب كل ثلاث ساعات، وكل ثلاثين ثانية عمل

إجرامي. نيويورك مع ذلك ليست إلا في المرتبة العاشرة بين المدن الأمريكية فيما يتعلق بالإجرام.

عام 1989: 21 ألف حادث اغتيال جرى حصره في الولايات المتحدة. أكثر من مليون أمريكي في السجون، وحوالي ثلاثة ملايين تحت الرقابة القضائية.

هذه هي نتائج اقتصاد السوق الهمجي، حيث يسود، كما كتب هوبز في فجر الرأسمالية «حرب الجميع ضد الجميع». منطق سوق بدون عوائق مع المنافسة بين الأفراد والمجموعات المستهدفة مصالحها الخاصة فقط، هو منطق حرب.

الأزمة البنيوية في العالم الثالث أشد عمقاً في أمريكا اللاتينية، التدخل الأمريكي المكثف في أمريكا الوسطى منذ عام 1979، كان نتيجة استراتيجية تطور مؤسسة على زراعة موجهة للتصدير وأدت إلى تهجير السكان الريفيين، وتغيرات عميقة في العلاقة بين الفلاحين والأرض، وحطمت المجتمعات التقليدية ولم تحل محلها أي تنظيم مستقر وقابل للحياة. عمران أمريكا اللاتينية (49% من السكان في المدن عام 1960، 70% عام 1989) وبقية العالم الثالث يعكس الفقر المتعاظم في الأرياف، والذي انتقل إلى المدن المكتظة بالسكان منذ نهاية عام 1970. هذه الفترة المتصفة باستفحال أزمة الديون، وانخفاض أسعار المنتجات ـ غير النفط ـ جعلت عدم الاستقرار لا يتوقف عن الانتشار.

«تقرير مصرف ما بين الأمريكتين للتطور. واشنطون 1990» عام 1988، مجموع العالم الثالث المديون، سدد على شكل فوائد وأقساط 50 مليار دولار أكثر مما حصل عليه.

الفصل الثالث

أصول الانحطاط

4

بعد كل هذه الجرائم، وأفعال القرصنة، هل يمكن وصف من يندد بها بأنه مضاد للأمريكان؟

نعم.. شريطة أن نقبل أن ضد الأمريكان يبدأ مع «رفض الخضوع» (كرستيان بري: الإكسبرس 7 فبراير 1991).

هذه السياسة مشتركة بين الحزبين الرسميين الكبيرين:

في الحقيقة الولايات المتحدة تقدم المثل الأشد وضوحاً عن حكم الحزب الواحد، أنه حزب رجال الأعمال بفرعيه: ذلك الفرع الذي يسمى «جمهوري» والآخر المسمى «ديمقراطي». والذين باستثناء مسخرة «الحمار» و«الفيل» لا يملكان مشروعاً إنسانياً مختلفاً، أو بتعبير أدق لا يملكان أي مشروع عدا ذلك الذي يتعلق بزيادة الاستهلاك والإنتاج في بلدهم على حساب كل البلدان الأخرى، وكما يعلنونه بكل صفاقة:

تدمير العالم من أجل حاجات الاقتصاد الأمريكي بدأ بالطبع في أمريكا اللاتينية.

اليوم على مستوى العالم صار الأمر يتعلق بمعرفة ما إذا كل أمة ستصير بورتوريكو جديدة، بدون أي مشروع إنساني غير مشروع الولايات المتحدة والرضوخ والاستسلام.

إن هذا ما يبدو، مع تحلل الاقتصاديات والسياسات والثقافات في أوروبا، سواء تعلق الأمر ببريطانيا أو فرنسا أو اسبانيا أو إيطاليا وغيرها كل الموقعين على معاهدة ماستريخت جعلوا من أوروبا «أحد أعمدة حلف الأطلسي» الكل صار مستعبداً من طرف «القات» (سميت منظمة التجارة الدولية (O.M.C) ومن البنك الدولي، ومن صندوق النقد الدولي، الذي مثلاً، يفرض على العالم الثالث التبعية السياسية والتعاسة من أجل تسديد الديون لكنه في نفس الوقت يقبل هيمنة البلد الأكبر مديونية في العالم، الولايات المتحدة، دون أي اعتراض.

إلى متى يقبل العالم سيطرة بلد حيث الإجرام الأعلى معدلاً؟ وحيث المحكمة العليا قررت، في يونيو 1989، أنه من الممكن الحكم بالإعدام وتنفيذه على الأطفال القصر الأقل من 16 سنة؟ وهو مطبق في 24 ولاية حيث 180 شخصاً أعدموا بالكهرباء، بالشنق، بالغاز منذ 1976. وحيث 2500 محكوم بالإعدام ينتظرون في زنزاناتهم تنفيذ الحكم!

لكن ما هو أسوأ، في حقبة حيث التقنية الإعلامية (خاصة التلفزيون وقريباً طرق الإلكترون السريعة) تلعب دوراً حاسماً في

تضليل «الرأي العام» إنه غزو «الجاهز للبس» الثقافي، مكتسحاً العالم ومدمراً الثقافات.

دالاس، مادونا، شواركز نيجر، والديناصورات ويوم الاستقلال، راو شينبرج وكونينق في الرسم، الرسوم المتحركة الأمريكية ومنافستها اليابانية، والتي لم تعد «بياض الثلج - سنو وايت» وإنما بوبي ودونالد الرولينق ستون تغرق فينسيا، الروك يكتسح بلا حياء الشاشات والمدارس حتى أنها تنسى شبابنا رابلي، سيرفانتس، شكسبير، نيتشه، دوستوفسكي.

ماكدونالد وكوكاكولا، ديزني لاند والنوادي الليلية صارت رمز اللامعنى والنمطية في العالم الذي أبدع رامايانا، أو مسرح نو، والرقص الأفريقي الحقيقي أو الأمريكي الهندي، وأشعار ريمبو.

الحداثة هل تعني النسيان والاحتقار والجهل والصبيانية، لصالح الأمية الثقافية واللاثقافة الميكانكية والمعلوماتية؟!

أيها القساوسة الكبار في دين وحدانية السوق وعبادة النقود هل نقبل أن «الأولاد الذهبيين» الذين سرعان ما ذبلوا في الولايات المتحدة يصيرون طليعة للانحطاط؟!

هذه الحالة التعيسة لا تظهر اليوم فقط بسبب أن هذه الأرض الواسعة والغنية، وبسبب حربي أوروبا، الذين جعلا الذهب يتدفق إلى أمريكا عبر الأطلنطي، ألهما الطبقة الحاكمة الأمريكية، ليس فقط فردية بدون حدود (كما كانت الحدود وقتاً طويلاً)، بل أيضاً تعبر عن

واقعة أن أمريكا تعيش فوق إمكانياتها: استغلال العالم كما في الماضي، المجازر وطرد الهنود لم يكفها. وهذا ما يظهر في واقعة أن الولايات المتحدة، البلد الأغنى في العالم، هو البلد الأكبر مديونية: 3000 مليار دولار دين عام، وكمية مساوية دين خاص. وهذا يعني حوالي ثلاث مرات ديون كل بلدان العالم الثالث مجتمعة.

ومما له معنى أيضاً التقاليد التي بدأت بمطاردة الهنود وامتلاك أسلحة شخصية وحتى أسلحة ذرية «بقدر ما يوجد من مواطنين في الولايات المتحدة» هكذا الحال عند الشباب، بهيمية العلاقات الإنسانية تعبر عن نفسها من خلال عدد الشبان الذين يقتلون بعضهم بواسطة الأسلحة النارية.

آخر تقارير «مؤسسة الدفاع عن الأطفال» وهي المؤسسة الرئيسية لحماية الطفولة في الولايات المتحدة، تصف الخط الصاعد، دون انقطاع، للموتى بواسطة الأسلحة النارية بين الأطفال والمراهقين، من عام 1979 إلى عام 1991، حوالي 50 ألف أمريكي أقل من تسعة عشر سنة (9 آلاف أقل من أربعة عشر، 40 ألف من خمسة عشر إلى 19) قتلوا بالرصاص وخلال حوادث وجرائم متنوعة، خلال نفس الفترة، توقيف المتهمين، ممن عمرهم أقل من 19 سنة بتهمة القتل زادت بمعدل 93%. وكما يقول التقرير: أنهم في أغلبهم شبان يقتلون أو يجرحون شباناً آخرين. بعد الحوادث (التي لا يستعمل فيها سلاح ناري) والسرطان، جرائم القتل هي اليوم السبب الثالث للموت بين المراهقين.

«ميز اقتصادي» حقيقي يقسم أمريكا إلى قسمين. في هذا البلد حيث طفل من ثمانية لا يشبع جوعه، نسبة وفيات الأطفال تستمر في الصعود خاصة في الأحياء الأشد فقراً، متجاوزة النسبة التي نعرفها في بلدان مثل سيرلانكا، بنما، شيلي، وجمايكا.

إننا نجد في ظل الكابيتول أحياء فقيرة تنخرها كل شرور الحياة في المدن: انحرافات، مراهقين صاروا أباء أو أمهات، دمار مؤسسات مدرسية على خلفية من المخدرات. واشنطون فيها بالتأكيد أضخم ميزانية مساعدات اجتماعية في البلاد، لكن النظام الصحي فيها على نحو يجعل الولادة قبل الأوان متكررة بعد الأول من الشهر، وهو بالضبط تاريخ صرف المساعدات من قبل الدولة. خلال النصف الثاني من الشهر يجب مواجهة شكل آخر من المشكلات: لم يعد هناك نقود، إذن لا شيء يشبع الجوع. الطابق الأرضي الذي يستخدم قاعدة «مشروع صحة الأطفال» يجري اقتحامه. (التضامن الجديد رقم 4، 12 ديسمبر 1994).

العنف الوبائي في هذا البلد يمارس التخريب حتى في مستوى اللهو والشباب.

الدكتور ويلمان، أقام عام 1972، مع بعض أصدقائه، منظمة طبية مهمتها العناية في عين المكان بالجرحى خلال حفلات الروك. كتب إلى سان جوزي في كاليفورنيا هذا الوصف لعمله.

«إنهم يهزون المدرجات في ملعب الباسكيت في جامعة الولاية،

في حفل الروك هذا أصوات الغيتار كضربات المطارق، الأرض تهتز بأمواج الشباب الذين يتقاطر منهم العرق، ويتقاذفون على بعضهم البعض. في حجرة من ملحقات الملعب دافيد ويلمان ارتدى قفازاً من المطاط، وبدأ يفرز الجرحى، هذا شاب عمره واحد وعشرين سنة عاري الصدر، مع علامات عض على ذراعه اليسرى، يده اليمنى تبدو مكسورة وها هو شاب آخر مرتدياً «تي شيرت» من المعهد الإصلاحي الفيدرالي، ينزف الدم من جرح فوق عينه اليسرى...».

الدكتور داف، كما يقدم نفسه لمرضاه الجدد، هو طبيب الروك، اختصاصه حالما يعم المساء، علاج جرحى حفلات الروك: أنف مكسور، عظام مكسورة، جروح.... مسألة عادية في هذه الليالي، كما أن الجروح الخطيرة في الرأس ليست نادرة «التضامن الجديد رقم 4 ـ 12 أكتوبر 1993».

في أوروبا هذا النوع من الموسيقى لا يقود، في العموم، إلى هذا النوع من العنف. إلا أنه في أول حفل روك في وود ستوك، وآخر معارض بينيك فلويد في ساحة سان مارك، في فينسيا، فإن المدينة في الغد عرضت مشاهد مدينة قذفت بالقمامة.

لكن لا يجب أن ننسى لحظة «أمريكا الأخرى» أمريكا أمرسون وتورو وجون براون ولينكولن الذين نهضوا ضد العبودية، لكن ليست أمريكا الأخرى هذه التي فرضت رؤيتها: تورو انسحب من

هذا العالم وكتب «الحياة في الغابة» لكي يستمد من الطبيعة اتصالاً مباشراً بالله، كما كتب إلى صديقه أميرسون. لا ننسى أنه عاد إلى المدينة ليكتب كتابه حول «العصيان المدني» والذي ذكر غاندي أنه استلهمه. لكنهم جميعاً كانوا هامشيين أو متمردين تورو لجأ إلى الغابة، ورفض دفع الضرائب للمدينة وكتب إنه فقد وطنه».

أميرسون استلهم حكمته من «باقافا وجيتا» في «القانج» وليس في «البوتماك» أما لينكولن فقد اغتالته المؤسسة.

لا ننسى أيضاً خط السود العظيم، الذي بدأ من دبوا إلى مارتن لوثر كينج، والذي أظهر لنا الوجه الطيب لأمريكا الأعماق، أو الذي شع في بداية القرن العشرين مع «نهضة هارليم» لكنها ومضة لم تستمر. لا ننسى أيضاً «الشهود العظام» وهم فورد في شريطه «عناقيد الغضب». ذلك الذي تجرأ وبيّن آليات المؤامرة التي اغتالت كندي، وأيضاً ذلك الذي أعاد تجسيد مجزرة ونديد كني والتي فيها الجيش الأمريكي أغرق مقاومة السيوكس في بحر من الدماء.

لكن ما يطغى اليوم على «جزر المعارضة» البطولية، نجد الوستيرن محولة إلى ملحمة مئة عام من الإبادة، كما نجد أفلام الرعب والعنف والإباحية.

إننا لا نجد شيئاً نقوله عن الفلسفة في الولايات المتحدة، حيث النظام خنق صرخات الإنسان وقمع تساؤلاته بواسطة الوضعية والبراغماتية، مستبعداً مسائل العقيدة والغايات.

لا يجب أيضاً أن ننسى المساهمة الخلاقة للراقصين الأمريكان الذين من تيد شاون وروث سان دينيس إلى مارثا غراهام جددوا هذا الفن بأن جعلوه يترجم ما قاله شكسبير وميشل أنج في لغتهما.

لنذكر أيضاً الكتاب «الملعونين» من أدجار بو الذي اضطر إلى الهروب، للخروج من عالم لا يمكن الحياة فيه إلى «جنات اصطناعية» وأشعار تشع في الظلام كالجواهر السود. أو أولئك الذين يصورون بقوة غوغاء هذا العالم «الواقعي» مثل توماس وولف أو الذين يهزون قواعد حياة صارت فريسة «الضوضاء والهياج». بحروبها وميزها العنصري، إنه فولكنر.

إننا لا ننسى شيئاً مما قدم لنا، لكن لا ننسى أيضاً شيئاً مما نزع منا خلال مئتي عام من «اللهث خلف الذهب» المدمر للقارات والأرواح.

شعب بدون ماضٍ لا يمكنه أن يلد إلا فناً بدون جذور.

باستثناء فن تلك الجماعات التي ظلت حية، وخارج فن الهنود الأمريكان، والذي روائعه صهرت في سبائك من قبل الغزاة الذين لا يقدرون إلا وزن الذهب في هذا الفن: انكا.. مايا.. الأزتيك أو الأقدم منها، والتي من حسن الحظ تركت شواهد من حجر تخبر عن هندستها وفن نحتها. المبدعون الوحيدون في أمريكا كانوا أولئك الذين يحملون ثقافتهم من خارج أمريكا: ازدهار «البلو» ثم الجاز عند سود لويزيانا، ازدهار «نهضة» هارليم في بداية القرن وشعرائها،

مثل المجموعة الحديثة من الفنانين الطليان حول فيرلنجيتي فرسان فرانسيسكو.

خارج هذه المحاولات البطولية، والتي يمكن ذكر أمثلة أخرى منها، القوة الاقتصادية للولايات المتحدة، الراغبة في تفوق ثقافي يعطيها نكهة وتبريراً، أرادت أن تتميز بالنسبة لأوروبا بواسطة النفي والقطيعة.

قطيعة قدمت لها أوروبا القدوة في زمن إفلاس قيمها نفسها، التجديدات الكبرى في الثقافة الأوروبية سبقها دائماً استيعاب وتجاوز الماضي.

القطيعة لا تكون تجديداً حقيقياً بدون استيعاب الماضي، أولئك الذين، بالتهديد والإرهاب الثقافي، يحاولون فرض قبول أسوأ انحرافات ما يدعونه حداثة، ويتعللون بالرفض والسخرية البورجوازية في القرن الماضي ضد تجديدات الانطباعيين، لكنهم يتناسون أن كل القطيعات الكبرى عرفت نفس المصير: التعاسة التي وقع فيها رمبراندت عندما توقف عن مدح أغنياء الفلاماند، النسيان الذي خيم على قريكو، عندما لم يعد له مكان بين الرسامين في حاشية «عظماء أسبانيا». لقد أنجز أعماله العظيمة منسحباً إلى طليطلة ـ توليدو ـ.

ليس من المجدي التعلم ولا الرسم، المهم عمل شيء جديد، تماماً كما في سوبرماركت بالنسبة لمساحيق الغسيل، المهم الجديد بأي ثمن، المعايير كانت مالية وليست جمالية.

المعيار الوحيد هو الخروج عن المألوف، والذي يمكن أن يجذب الزبائن يوماً ما، ويتيح إدخال استراتيجية التبذير إلى السوق. والتي عبر عنها أحد التجار قائلاً: يجب بكل الطرق، على النمط الأمريكي إدخال فكرة شيخوخة العمل الفني، يجب أن ندفع جامعي الأعمال الفنية إلى إلقاء لوحاتهم في الزبالة، مثل السيارات والثلاجات عندما تأتي غيرها، أكثر جدة، لتحلّ محلها.

فومارولي: الحالة الثقافية 1991.

لكن هذا فقط عندما تنهار كل قيم الماضي مثلما حدث في حرب 1914 ـ 1918 الأشد دموية، والتي أخرت منتصرين ومهزومين ثلث قرن إلى الخلف، وزرعت كل بذور الفاشية. سخرية وضد نفاق «نصب الموتى» افتتح السرياليون «مبولة» في قلب باريس. وفي طرف أوروبا الآخر، ليرمزوا لإنتحار حضارة وانتحار الفن الذي يزعم أنه يعكسها. وماليفتش عرض لوحته «مربع أبيض على خلفية سوداء».

كان ذلك ما تعلنه الحرب: انهيار عالم.. أخلاقه دينه وفنه. كتب فلامينك «عند خروجي من الخدمة العسكرية، كنت ثائراً ضد الاتفاقات المحدودة لمجتمع خاضع لقوانين أنانية، حاجة ملحة للتعبير عن هذه الثورة تدفعني إلى الكتابة أو الرسم.. أقل صدمة أقل صدام كان يكفي لكي تتفجر هذه المشاعر.

الرسم كان بالنسبة لي تنفيساً، بدونه، بدون هذه الموهبة، كان

مصيري سيئاً، ما كنت لا أستطيع عمله في الحياة، كأن ألقي قنبلة تقودني إلى المحرقة، حاولت تحقيقه في الفن، في الرسم. لقد أرضيت هكذا إرادتي تدمير الاتفاقات القديمة، وأن أتمرد لكي أعيد خلق عالم آخر».

وكان هذا بالنسبة له «اللون الخالص» وحركات «الشقر».

سنوات بعد ذلك، بحجة دفع هذه المغامرة إلى أقصاها، جاكسون بولوك، لم يأخذ إلا السمة التقنية من هذا التجديد، ولأنه ليس لديه ما يقوله في هذه اللغة الجديدة، أكد أنه يعطي الصدفة مكاناً رئيسياً. وعلى لوحات منتشرة أفقياً على الأرض أخذ يصب الألوان بأن يجر فوق اللوحات العلب المثقوبة.

السوق استولى على هذا «الإنتاج» وتحدث النقاد بإسهاب عن «مدرسة جديدة» من الانطباعات المجردة، وعن التقنية الجديدة هذه «الواجهات» حققت أموالاً كبيرة.

لإعطاء فكرة عن مشاركة الفن في لعبة «الفقاعة المالية» التي صنعها «المصرف العالي» والتي عمت كل قطاعات الحياة الاجتماعية، دومينيك في كتابه «فنان بدون فن» يقدم هذا المثال: عام 1991 في المعرض الشهير «كريستيز» لوحة لكونينق، أحد الممثلين الأكثر شهرة، مع بولوك وماديرول، للانطباعية المجردة، بلغ سعرها حوالي 44 مليون فرنك، في نفس المزاد نجد لوحة رافائل بسعر 8 مليون فرنك، وتيتيان بسعر 5 مليون، وقريكو بسعر

12 مليون فرنك (مجلة الفصل 1991 ـ كريستيز).

عملية مالية صارخة أكثر تمّ انجازها مكرسة «انتصار الفن الأمريكي» (عنوان كتاب ساندلر 1990) عندما حمل روشينبرج إلى السوق الأوروبي لإخضاع هذا لسوق نيويورك، بواسطة التاجر ليوكاستيلي وبأساليب خاصة بهذا النوع من العمليات، نجح في الحصول على جائزة «بينالي فينسيا» عام 1964.

حكاية «بوب أرت» الذي استورد على هذا النحو تستحق أن تلخص: عام 1917، الرسام الفرنسي مارسيل دوشامب، أرسل إلى نيويورك، إلى جمعية الفنانين المستقلين «نافورة» في الحقيقة كانت «مبولة»، كردة فعل ضد عبثية العالم: كل شيء لا معنى له، الفن في المقدمة، لقد كان الأصل. في عام 1919 حركة «دادا» أبرزت الفراغ وسخافة المجتمع.

ردة الفعل هذه ضد لا معنى الحرب والعالم الذي قاد إليها، أنتجت مع روشينبرج بائعه المتجول ليوكاستيلي، وتحلل المجتمع الأمريكي الذي كان آنذاك مزدهراً اقتصادياً، مع ستين سنة تخلف، ما كان تنديداً بحقبة جعلوا منه مدرسة وأسلوباً.

روشينبرج يلصق على لوحة عصفوراً أو حتى معزة، بحجة العودة إلى الواقع العاري!

استيراد أوروبا لهذاَ التحلل في الفن والمجتمع الأمريكي، لم يكن نتاجه فقط تحول السينما، التي صارت مع «الوستيرن» صناعة،

مع بعض الاستثناء، لقد دخل نمط حياة جديد، مثل عنصرية «الوستيرن» حيث الهندي الطيب هو هندي ميت، وأفلام الرعب القائمة على تقنية متطورة «ذات مؤثرات خاصة» والتي صارت، تخصّصاً هوليودياً. وأفلام العنف مع مئة طلقة نار في الساعة تترجم انحلال شعب وفن وحضارة.

إحدى نتائج هذا التلوث الثقافي القادم من الولايات المتحدة، طليعة الانحطاط، كانت جعل الإجرام في مستوى الفنون الجميلة كما هو حال «المستعمرون» لبورين، و«في القصر الملكي» «وتعليب بونت نوف» من قبل كريستو.

لقد بدأ في 13 ديسمبر 1982 تغليف بونت نوف (الجسر الجديد) والذي استهلك 4300 متر قماش، 11 ألف متر من الحبال عملية ذهبية، «إنه مدهش، كتب فيركور، كالذهاب إلى أثينا للتأمل في البنتايون ثم تجده مغلّفاً» هذه المهزلة لم تكلف دافعي الضرائب من سكان باريس إلا 19 مليون فرنك.

كريستو في هذه النقطة، خسر أمام بورين، الذي نجح في انتزاع 22 مليون فرنك من أجل المعرض الذي أقامه في ساحة الشرف بالقصر الملكي.

من اليسار إلى اليمين، منطق ضد الثقافة يتتابع بشكل مستديم، حتى وإن كان هذا يعني تشويه باريس تحت تأثير مركب من عدوى المنطق التجاري الأمريكي ومضاربات الشركات المكلفة بالأعمال.

* * *

الفن مارس دائماً وظيفة هامة في الحضارات، إنه يرتبط بالواقع، لكنه يلعب فيه دوراً محركاً، مثل العقيدة عندما تكون صادقة.

إنه يكشف للإنسان سمات الإنسان، أو سمات العالم التي النظرة الاعتيادية لا تدركها.

لكن لكي لا نذكر إلا الأكثر شهرة، أي الأكثر ظهوراً في وسائل الإعلام من بين التافهين: أندي وارهول مثال نموذجي:

مستعيراً من تقنيات الدعاية طريقة نقش الصور، ومغيراً من الألوان والحبر، ليقدم أعداداً من صور مارلين مونرو.

نحن هنا في مواجهة ضد الفن، لا شيء يحمل الواقع إلى ما وراء الواقع إنه بالعكس يلتصق بأدنى آليات الدعاية «التكرارية» حيث يغيب الإنسان، على نفس شاكلة كوكا كولا وماكدونالد.

لكن قلة من النقاد يجرأون على القول: إن الملك عارٍ!

عندما مركز بومبيدو ـ باريس ـ خصص له معرضاً، فإنه جذب ـ كما يقال ـ 800 ألف زائر، مقترباً بهذا من الأرقام القياسية لأسواق (برنتمب) في موسم الميلاد.

بالعكس، ما هي خصائص فن «الفراغ» هذا؟ أو فن «الحد الأدنى» كما تقول المجلات المتخصصة؟ إن النقاد يتحدثون عن «العمل الفني» أقل مما يتحدثون عن نوايا صاحبه، وهم يعرفون كيف يمنحونه الألقاب الفاخرة.. رسام انطولوجي... الخ بينما هو

يقدم لنا مجموعة من قعور الزجاجات، أو شعر ممزوج بالصوف والحبال. . . !.

البحث لم يكن عن «الصحوة» وإنما عن التخدير. مثلاً في حفلة موسيقية ذات 130 وحدة قياس صوتي (بينما الأذن طبيعياً لا تحتمل أكثر من 90 وحدة) وبدون الدخول في مناقشة نوعية الموسيقى هذه، فإن موسيقى شوبان، إذا أذيعت بمثل هذه الكثافة تؤدي إلى نفس تخدير الوعي والحس النقدي، خالصة إذا أضفنا إليها الكاشفات الجوالة من أجل زيادة التأثير المنوم.

الهندسة، بدلاً من أن تكون نتاج حياة المجتمع، فإنها في عالم حيث العاهرات يعرضن «اللامستقبل» على صدورهن، تتكبد نفس اللاإنسانية. في الشارع نفسه ـ شارع بوبورج ـ والذي أفقه البعيد يكشف «نوتردام» تظهر الثقوب متعددة الألوان التي تجعلنا نفكر في مصنع للنفايات.

هذا الجنون بالجديد من أجل الجديد، يقود في كل الميادين، إلى أن يطرد من ثقافة الإنسان هذا السؤال:

جديد «بوب ارت» الصرخة الجديدة، القصة الجديدة، فلاسفة جدد، نتاج وقتي مثل الدعاية التي روجتها. لها نقطة مشتركة مع الاقتصاد السائد: أحد المطلعين حددها كالآتي: المطلب الأساسي إبعاد السؤال الفلسفي عن الغاية.

(ميشل ألبير رأسمالية ضد الرأسمالية 1993).

هكذا ولد ما أسماه جيل ليبوفيسكي «عصر الفراغ».

لكن هذه ليست جريمة شعب، إنها جريمة المؤسسات وقاداتها. ليس هناك شعب سيء وإنما شعوب مخدرة. الشعب الألماني الذي أنتج عدة عباقرة مبدعين في الثقافة والعقيدة والذين أثروا حياتنا، سيطر عليه سحر الموت خمسة عشر سنة.

ديماغوجية «الشعب المختار» تتجه إلى حرمان الأمريكان من ذاكرة ماضيهم، والاستمرار في توريطهم بالفاليوم الجماعي: التلفزيون، السينما، الصحافة، في مغامرة جديدة من مغامرات «المجموعة العسكرية الصناعية» والتي ثروتها وقوتها تتغذى على التعاسة وعلى السيطرة العسكرية والاقتصادية على العالم.

نفاق سادة القارة يمثل استمرارية مأساوية، منذ أن كتب كريستوف كولومب إلى ملك أسبانيا قائلاً «الذهب أكثر قيمة من كل الخيرات.. من يملكه يحصل على كل شيء يحتاجه في هذا العالم، وكذلك وسيلة إنقاذ روحه في الآخرة». وحتى رونالد ريغان (ماك أليستر: أسبانيا والبرتغال 1984).

رونالد ريغان أعلن أن ازدهار وقوة الولايات المتحدة، هما دليل على أنها «أمة مباركة من الله». أحد كبار رجال الدين الاسبان تجرأ على التنديد بهذا القول واصفاً إياه بأنه «تجديف»، لأن ثروة وسلطة الولايات المتحدة لم تأت من مباركة إلٰهية وإنما من استغلال العالم وخاصة العالم الثالث، ومن خلال تبادل غير عادل، وإرغام العالم

على استيراد المنتجات الأمريكية، وغزو الرساميل للبلدان ذات الأجور المتدنية، وبواسطة المعدلات الاستنزافية لفوائد القروض.

هذا كشف حساب خمسة قرون من الاستعمار، وخمسين سنة من نظام بريتون وودز، مع بنكه الدولي، وصندوق النقد الدولي، ثم منظمة التجارة العالمية. لكن علامة الصليب لا زالت تحفر على مقابض السيوف كصنم: ذهب وموت.

الأمر يتعلق بهذا فقط.

الفصل الرابع

استعمار أوروبا والعوالم الثلاث

1

العراق، لبنان، الصومال، البوسنا. بالأمس بنما، وقرينادا، ونيكاراغوا، غداً إيران، ليبيا، كوبا. كل هذا بعد تفكك الاتحاد السوڤييتي الذي غير من علاقات القوة التي تأسست منذ هزيمة هتلر، والتي رتبت عالماً ثنائي القطبية.

هل ثمة خط مشترك لفهم مرحلتنا؟ أي هل ثمة علاقة داخلية وعميقة تربط بين كل المشاكل الدولية؟ سواء تعلق الأمر بالتدخلات العسكرية، بدور صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، أوروبا ماستريخت، وإعادة الرأسمالية أي أوروبا الشرقية، والتعصب الديني «الإسلامي» اليهودي المسيحي؟

على خلاف وسائل الإعلام وخاصة المرئي، الذي يحذر الرأي العام بأن يقدم له عرضاً من الكوارث ودفقاً من الوقائع المصنعة سابقاً من تيمسوار إلى مقديشو، من سارييفو إلى بغداد. إن الأمر يتعلق، من أجل الكشف عن معناها، بأن نضعها في مسارها التاريخي خلال الخمسة قرون الأخيرة قرون الهيمنة الغربية المتعاظمة

على العالم كله.

في أقل من ثلاثة قرون، بعد غزو أمريكا ونهب ذهبها، والذي أعطى لتصنيع أوروبا دفعاً لا سابق له، بدأت مغامرة ما صار اليوم أكبر قوة في العالم: الولايات المتحدة.

تاريخها، كما رأينا يتسم بعملين مؤسسين: مجزرة الهنود من أجل الاستحواذ على أرضهم واستعباد السود للعمل في مزارع ومناجم البيض.

الدول الأوروبية الأخرى بمناهج مماثلة تقاسمت بقية العالم: انكلترا من الهند إلى أفريقيا الشرقية والشرق الأوسط، فرنسا أفريقيا الغربية إلى الهند الصينية والمغرب. روسيا القيصرية: سيبريا، بلجيكا: الكونغو. هولاندا: أندونيسيا.

بعد حربين من أجل تقاسم آخر للعالم، بين أولئك الذين يستحوذون على «امبراطورية» وأولئك الذين يطمعون فيها، أعيد توزيع الأوراق. أوروبا عام 1945، سواء المنتصر منها كما المهزوم، فقدت هيمنتها لصالح الولايات المتحدة، التي كانت الحربان مصدر إثراء لها حتى صارت سيدة العالم، من الناحية الاقتصادية منذ نهاية الحرب الثانية، من الناحية السياسية والعسكرية منذ انهيار النظام السوفييتي عام 1990 «النظام العالمي الجديد» حلم القادة الأمريكان هو اسم آخر للهيمنة العالمية للولايات المتحدة.

«حق التدخل» هو اسم جديد للاستعمار.

متخلصة من الثقل الموازن المتمثل في الاتحاد السوفييتي (الذي دمره القادة الروس وفككته نزعة القوميات) الأمم المتحدة، المتكونة من الولايات المتحدة ومن مدينيها وزبائنها، صارت غرفة تسجيل الإرادة الأمريكية وغطاء يقدم لأفعالها التبريرات.

الآلة العسكرية الأمريكية الهائلة، التي تكونت خلال زمن المواجهة غرب ـ شرق، صارت جاهزة لمهام أخرى.

أوروبا لا يمكنها أن تكون منافساً للولايات المتحدة، وإنما تابع. معاهدة ماستريخت تقول صراحة، وفي ثلاث مواضع: إن الأمر يتعلق بأن تكون «قاعدة أوروبية للحلف الأطلسي». أما على المستوى العسكري فإن أوروبا تلعب دور الاحتياطي من العراق إلى الصومال..

على المستوى السياسي تخضع لنفس الأوامر «السياسة الزراعية المشتركة» (Pac) تذهب إلى أبعد من المطالب الأمريكية من منظمة التجارة العالمية، بقبولها، مثلا فرنسا، وضع 15% من الأراضي خارج الزراعة من أجل فتح السوق العالمي للإنتاج الأمريكي من القمح.

على المستوى الصناعي، اللوموند 22/ 12/ 1992، تصف «احتضار الفحم الأوروبي». عام 1955 تاريخ توقيع اتفاقية روما «التي أسست أوروبا» كان هناك 2 مليون من عمال المناجم في الجماعة الأوروبية. عند توقيع معاهدة ماستريخت كان عددهم 250 ألفاً. منذ

ثلاثين سنة: الاثنا عشر كانوا ينتجون 400 مليون طن، عام 1992 هبط الإنتاج إلى 180 مليون طن (فرنسا الضحية الأولى) انتقل إنتاجها من 28 مليون طن عام1973 إلى 12 مليون طن عام 1991. الإنتاج الإنكليزي هبط 50%، ألمانيا 40%. كل هذا لصالح الصادرات الأمريكية وأتباعها من كولومبيا إلى فنزويلا وحتى أندونيسيا.

في المعلوماتية، شركة العقول الآلية، بول، رفض عرضها كمحول للطيران العسكري الأمريكي. العقد معها جرى إلغاءه من قبل الإدارة الأمريكية، شركة I.B.M رقم واحد في المعلوماتية دولياً، من أجل مواجهة سوق يسيطر عليه اليابانيون، بحثت في أوروبا عن دور ثانٍ لتحل محل المجموعة الألمانية سيمنس التي تخلت.

في مجال الفضاء، لوكهيد، بمعاونة وزراء التسين «المعتمدون من الصندوق النقد الدولي» استولت على تقنية وخبرة الاتحاد السوفييتي السابق، خاصة منصات إطلاق الأقمار «بروتون» وتكفلت بمهمة التسويق في محاولة لإبعاد منصات إطلاق الأقمار الأوروبية «أريان».

أما بالنسبة للحديد، في 27/ 1/ 1993، قررت الولايات المتحدة زيادة الضرائب على استيراده من 19 بلد، سبعة منها بلدان أوروبية هذه الرسوم الجمركية الإضافية، تمنع عملياً مصانع الحديد الأوروبية من أي بيع للحديد في السوق الأمريكي. هذا المنفذ لتصريف 2

مليون طن، الذي يعادل كل إنتاج اللورين، مهدد بالموت بسبب هذا الإجراء.

جنرال موتورز، فورد وكرايزلر، أطلقت هجوماً مماثلاً بالنسبة لصناعة السيارات. هذه الحماية «أمريكا أولاً» تظهر كما أن منظمة التجارة العالمية تعمل في اتجاه واحد: حماية السوق الأمريكي وفتح أسواق العالم كله أمام أمريكا.

على المستوى الثقافي أوروبا تنهار أمام غزو التلفزيون والأفلام الأمريكية من 250 ألف ساعة برامج، في أوروبا، مجموعة الاثني عشر «من الجماعة» تنتج 25 ألفاً. نصيب سوق السينما الفرنسية في الولايات المتحدة هو 0,5%.

أما نصيب السينما الأمريكية في فرنسا فهو 6% النسبة 120 مقابل 1. لتخريب عقول شعب بواسطة رشاشات جيمس بوند الهوليودي وهوس الدولار في مسلسلات دالاس.

هذه التبعية السياسية المادية والأخلاقية من أوروبا نحو الولايات المتحدة، تجعل العالم يدخل في مرحلة استعمار جديد. قوى الشرق وأوروبا وضعت خارج اللعبة أو صارت تابعة، المجال صار حراً لاستعمار من شكل جديد: استعمار ليس على شاكلة الامبيرياليات الأوروبية المتنافسة، والتي صارت خاضعة، وإنما استعمار مركزي وشمولي على مستوى عالمي تحت الهيمنة الأمريكية.

كشف حساب خمس قرون من الاستعمار كان مأساوياً: في عالم 1993 أربعة أخماس الموارد الطبيعية في العالم يسيطر عليها ويستهلكها خمس سكان العالم.

اللامساواة لا تتوقف عن الزيادة، برنامج الأمم المتحدة للتنمية، لاحظ في الثلاثين سنة الأخيرة الهوة تضاعفت بين البلدان الأشد ثراء في الشمال والبلدان الأشد فقراً في الجنوب.

نصيب أفريقيا من الناتج الخام العالمي هبط من 1,9% إلى 1,2%.

إن ما يدعوه بوش «نظام عالمي جديد» هو اتساع وترسيخ، في العالم كله، هذه العلاقات الاستعمارية بين مركز صار وحيداً وبقية العالم أطرافاً. علاقات استعمارية تعني تبعية عسكرية وسياسية تسمح للمهيمن جعل المستعمرات الخاضعة له ملحقاً لاقتصاديات المركز، وفرض قواعد التبادل والرسوم الجمركية من جانب واحد وفي صالح الطرف المهيمن.

هذا هو الهدف المعلن عنه عدة مرات، من قبل القادة الأمريكان، خاصة خلال الثلاث سنوات الأخيرة (منذ انهيار الاتحاد السوڤييتي): ضمان الهيمنة العالمية للولايات المتحدة.

ما هي الوسائل التي وضعت في التنفيذ؟

إنها كثيرة.

هناك **أولاً** المناهج السابقة المجربة في أمريكا اللاتينية منذ زمن

طويل وخاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية: «من التحالف من أجل التقدم» الذي تقدم به الرئيس كندي، وحتى مبادرة بوش عن «سوق واحد من ألاسكا وحتى أرض النار».

الآلية بسيطة، منح قروض، استثمارات، وحتى هبات لبلدان أمريكا اللاتينية. من حيث المبدأ، من أجل مساعدتها في «التصنيع» في الواقع من أجل تمكين الشركات المتعددة الجنسية في الشمال، من زيادة أرباحها، بزرعها في البلدان حيث اليد العاملة زهيدة الأجر، وحيث البنية التحتية تتحملها الحكومات التابعة. في نفس الوقت سعر المواد الخام القادمة من هذه البلدان، يصير منخفضاً مما يجعل التبادل أكثر ظلماً.

في عام 1954، كان يكفي البرازيل 14 كيس قهوة لشراء سيارة جيب من الولايات المتحدة. في عام 1962 صار ذلك يستلزم تسعة وثلاثين كيساً. عام 1964 يشتري الجامايكي جراراً أمريكياً مقابل 680 طن سكر. في عام 1968 صار يحتاج إلى 3600 طن لشراء نفس الجرار. هكذا البلدان الفقيرة تستمر في دعم البلدان الغنية!

تسديد فوائد الديون يمثل عدة مرات الرأسمال المستلم. كل دولار يُعطى يعود على الولايات المتحدة بدولارين أو ثلاث. تسديد الفوائد يساوي في أغلب الأحيان مجموع الصادرات. مما يجعل هكذا كل تطور مستحيلاً. الأمر إذن لا يتعلق ببلدان في طريق التطور، كما يدعي نفاقاً، وإنما ببلدان محكوم عليها بالتعاسة

المتزايدة بواسطة تبعية متعاظمة.

المساعدة المزعومة لبلدان العالم الثالث هي إحدى العوامل الفعالة في تقوية تبعيتها وتخلفها.

المساعدة «العمومية» متعددة الأطراف حددت بأقل من 1% (07% من الناتج الوطني الخام في الدول المانحة). في الواقع أقل من نصف هذه المساعدة يجري تسليمه.

تصنيع بلدان العالم الثالث و«نقل التقنية» هما وسيلتان أخريان للسيطرة وزيادة الأرباح بالنسبة للبلدان الغنية.

كشف الحساب: هذا البلد، أحد أغنى بلدان العالم من الموارد الطبيعية يسكنه فقراء. الثروة تتراكم عند قطب واحد، عند أقلية، والذي يجعل من 150 مليون نسمة، 130 مليون يعيشون في فقر، ونصف هؤلاء في حالة فاقة مطلقة.

مثال نمطي عن مساعدة البلدان تقدمه «المعجزة البرازيلية» فيما يتعلق بالتطور الصناعي أو التدخل البيئي من البلدان الغنية في غابات الأمازون.

«التدخل البيئي» كاسم جديد للنهب والتخريب الاستعماري، ليس واضحاً في أي مكان قدر وضوحه في غابات الأمازون. الشركات المتعددة الجنسية لعصابة السبعة الكبار (G7) «أي السبع بلدان الأكثر تصنيعاً والمهيمنة حالياً على الإنسانية»: قودييو، نيبون ستايل، فولكس فاجن وغيرها. . دمرت آلاف الهكتارات من الغابات

وأغرقت مئات الآلاف غيرها لإقامة سد لتوليد الطاقة الكهربية، بينما استغلال عقلاني للبيوماس، المحافظ على الغابة، يسمح بإنتاج ما يعادل 5 مليون برميل نفط سنوياً (أي أكثر من إنتاج السعودية).

الشركات المتعددة الجنسية لها أهداف أخرى، استثماراتها ونقلها للتقنية غيرت من التوازن البيئي في إحدى أهم رئة للعالم: بعذر المشاركة مع شركات محلية (متعاونة) فإنها تفرض تقنيتها، مقيمة مثلاً في توكروي سداً هائلاً تطلب قطع مئات الآلاف من الهكتارات من أشجار الغابة. بحجة توفير الطاقة الضرورية لمصانع معالجة البوكسايت (شديد التلويث لكي لا يقام في الولايات المتحدة)، والحصول في البرازيل على نفط بسعر 161 دولار للطن الواحد، والذي يباع في نفس اللحظة بسعر 261 دولار في سوق أمريكا الشمالية.

هذا هو منطق الوعاظ في كل المجالات. في البرازيل، الشركات المتعددة الجنسية تسيطر على 85% من إنتاج الكاكاو، 90% من إنتاج القهوة 60% من السكر 90% من القطن، 90% من الأخشاب.

كما أن الشركات الأجنبية تسيطر على 80% من البوكسايت، 80% من الأحجار الكريمة، 100% من إنتاج الكارتز ذي النوعية الممتازة (الضروري جداً في الصناعات الإلكترونية).

في كل المجالات (سيارات، الكترون، اتصالات،

بيتروشيمي . .) بمعاونة أمراء الصناعة المحلية، صُنع نموذج «تطور» والذي مركز القرار فيه يقع خارج البلاد، مؤسساً هكذا تبعية سياسية مباشرة أو غير مباشرة.

أولاً من أجل ضمان تسديد الديون (البرازيل تخصص 40% من دخول صادراتها لتسديد فوائد الديون، الأرجنتين تخصص 54%).

أما الإجراء الأكثر ضماناً فهو إقامة دكتاتورية عسكرية. السلطان الإمبيريالي الأمريكي يمارس أولاً من خلال الشركات المتعددة الجنسية وعندما يظهر تهديد سلطان اشتراكي، كما في شيلي، فإن مذكرة من ITT تقترح تطبيق ضغوط اقتصادية بهدف إسقاط النظام.

هذا الإسلوب لا يستبعد التدخل العسكري المباشر من الجيش الأمريكي، كما حدث في قواتيمالا عام 1954، من أجل انقاذ مصالح شركة «الفواكه المتحدة» وفي كوبا، عندما نظم كندي عام 1961 انزالا في «خليج الخنازير» بمساعدة أنصار النظام السابق ـ الدكتاتور باتيستا ـ المهاجرين في الولايات المتحدة. وعام 1964 كان دور قويانا البريطانية، وعام 1965 كانت جمهورية الدومينيكان. وقريباً منا قرينادا وبنما.

لكن الإجراء الأكثر فعالية هو تسهيل وصول دكتاتورية عسكرية إلى السلطة في كل بلد تخشى فيه أمريكا على مصالحها، باسم النظرية الأمريكية المتعلقة «بالأمن الوطني» ضد الشيوعية. في زمن القوة السوفيتية، كان بالإمكان جعل الشعوب تعتقد أنها، بالتبعية للولايات المتحدة، تدافع عن الديمقراطية وعن الاستقلال الوطني،

هكذا حكم الجنرالات البرازيل منذ كاستيلو برانكو عام 1964 وحتى جيزل. تحت حكم الجنرالات، في لعبة نموذج التصنيع الضخم، المنجز من قبل الشركات المتعددة الجنسية الأمريكية، والسلاح الذي يتيح ممارسة القمع والإرهاب ضد الشعب، فإن الديون لم تتوقف عن الزيادة: مثلاً من عام 1972 إلى 1982 انتقلت الديون من 12 إلى 60 مليار دولار. أي تضاعفت خمس مرات في عشر سنوات.

«ليس إلا دكتاتور عسكري يمكنه استنزاف دم بلد حتى النخاع».

من إجمالي ديون الأرجنتين البالغة 54 مليار دولار، 15 مليار خصصت للإنفاق على السلاح تحت حكم الجنرالات. تسديد الديون وشراء السلاح، قبل رئاسة الان قارسيا، يمثلان 50% من الميزانية في البيرو. أما الرقم القياسي فكان نصيب شيلي في عهد الجنرال بينوشيه بلغت الديون 1500 دولار لكل نسمة من السكان.

لكن بينوشيه حصل على رقم قياسي آخر، إنه «الليبرالية». كتابع مخلص للديمقراطية الأمريكية، أنجز بينوشيه «التحرير التام لاقتصاد السوق (بما في ذلك سوق العملات من خلال نظام خوصصة شامل، خالقاً بهذا الشروط المثالية لقمع رهيب ضد شعبه، وضد الحرية ولصالح الشركات المتعددة الجنسية ذات الهيمنة الأمريكية، وسيطرتها على اقتصاد البلاد.

بفضل هؤلاء الدكتاتوريين العسكريين، تبعية أمريكا اللاتينية الاقتصادية لأمريكا صارت أمراً واقعاً، ومعها بالطبع التبعية السياسية

بسبب قوة الضغط الاقتصادي على السلطات من خلال رفض القروض أو الاستثمارات.

حينئذ يمكن للولايات المتحدة مواصلة تحقيق أهدافها المتمثلة في «حرية السوق» بواسطة وسائل أخرى غير الدكتاتورية العسكرية.

صار ممكناً مثلا قبول قادة منتخبين، عندما حل الفساد محل القمع. هكذا قبلت الولايات المتحدة في السلطة قادة منتخبين مثل كولور في البرازيل، منعم في الأرجنتين، الذين حلا محل الجنرالات والمطلوب منهما دفع ديون الجنرالات ونسيان جرائمهم.

هيمنة صندوق النقد الدولي F.M.I يمكن أن تتأبد، دون مخاطر، في البلدان المقيدة بسلاسل الديون، والتي اقتصادها صار في أيدي الشركات الأجنبية.

صندوق النقد الدولي يمكنه فرض،ليس فقط على العالم الثالث، وإنما مستقبلاً ربما على كل العالم، نمط التطور الأكثر توافقاً مع مصالح المركز العالمي: تطوير زراعات واحدية، إنتاج واحدي، تراجع الزراعة الغذائية، وكذلك الحرف المحلية، تبعية واستغلال متعاظم لليد العاملة، زيادة الديون بسبب الاستيراد المتزايد.

النتيجة العامة هي: منذ بداية سنوات 1980، انخفض الدخل حسب كل مواطن 15% في أمريكا اللاتينية، 20% في أفريقيا. نظام الهيمنة هذا يحمل اسماً يبدو بريئاً: خطة تعديل بنيوي أو هيكلي.

والتي تعني عدم منح أي مساعدة أو قروض إلا وفق شروط سياسية محكمة. وعندما برامج صندوق النقد الدولي تطبق حرفياً في بلد ما، فإن حكومته تحظى بمعاملة متميزة من الولايات المتحدة وأعوانها الأوروبيين.

خطة تعديل أو تصويب أو تصحيح، تتكون في غالب الأحيان من العناصر التالية:

- تخفيض قيمة العملة بهدف تحبيط الاستيراد وتشجيع التصدير.
- تخفيض حاد في الإنفاق العمومي، خاصة في المستوى الاجتماعي.
- تقليص ميزانيات التعليم والصحة والإسكان.
- إلغاء دعم الاستهلاك بما في ذلك الاستهلاك الغذائي.
- خوصصة المشروعات العامة ـ بيع القطاع العام، أو زيادة تعريفاتها ـ كهرباء، ماء، مواصلات.
- إلغاء الرقابة على الأسعار ـ تحرير الأسعار.
- إدارة الطلب إذن تقليص الاستهلاك، والذي يكفله تحديد سقف الأجور.
- الحد من منح القروض وزيادة الضرائب ومعدلات الفائدة.

كل هذا من أجل خفض معدل التضخم. هذه السياسة التصويبية

تجر إلى انتفاضات المجاعة ضد التهاب الأسعار كما حدث في المغرب عام 1981 ـ 1984، كراكاس عام 1985 ومارس عام 1989، الجزائر أكتوبر عام 1988، الأردن عام 1996.

الفصل الرابع

استعمار أوروبا والعوالم الثلاث

2

احتقار اقتصاديات المعيشة، وخاصة زراعة الغلات الغذائية، وأولوية التصدير ـ وهو المورد الوحيد للعملات الأجنبية لتسديد الديون وفوائدها بالدولار ـ البلد التي تجري مساعدته على هذا النحو ينتج أكثر مما يستهلك ويستهلك أكثر مما ينتج.

هكذا منذ عشرين عاماً، صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، يدمران منطقة الجنوب من الأرجنتين وحتى تانزانيا، من الباكستان وحتى الفيلبين. ويبدءا الآن يطبقان هذا المنهج في بلدان أوروبا الشرقية.

للوصول إلى هذه الأهداف، أهداف صندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية ـ القات سابقاً ـ: الهيمنة على سوق دولي متجانس، تؤسس «وحدانية سوق» حقيقية، قائمة على عبادة النقود. فإن القادة الأمريكان يطبقون مناهج متنوعة، حسب القارات وحسب الأنظمة السياسية.

في أفريقيا مثلاً يمكن ملاحظة ثلاث متغيرات أساسية: «عند زيارة الرئيس السنغالي عبدو ضيوف للولايات المتحدة في 15/ 9/ 1996. سكرتير الدولة المساعد للشؤون الأفريقية، هيرمان كوهين أعلن: أن فترة الثلاثين سنة التي قررتها المنظمة الأفريقية من أجل اندماج الاقتصاديات الأفريقية، طويلة جداً. إننا نعتقد ـ يقول هيرمان كوهين ـ أن إلغاء الحواجز التجارية الأفريقية يجب أن يتم سريعاً. وحيث أن السيد عبدو ضيوف كان متفهماً فإن الرئيس بوش قرر إلغاء 42 مليون دولار من ديون السنغال».

أما في الجزائر فإن المسألة تطرح بشكل آخر، ردود الفعل الرافضة لسياسة صندوق النقد الدولي، التي ظهرت لأول مرة من خلال اضطرابات الجزائر في أكتوبر عام 1988، ووجدت تعبيرها في الحركة ذات الأغلبية ـ الإسلامية ـ المعارضة صراحة «لوحدانية السوق» طرحت هكذا سؤالاً جيداً، إنه السؤال الأساسي في وقتنا: إنه رفض وحدانية السوق، أو هذه الليبرالية التي تنتج الإقصاء وتبعية أربعة أخماس العالم، وفقدان الجميع لمعنى الحياة. إنها سباق نحو الربح لمن في أيديهم خيوط اللعبة، فقر وإقصاء بالنسبة للأغلبية الباقية.

مع أن الإجابات التي تقدمها الحركة الإسلامية لا تمثل مشروعاً حقيقياً، ولا بديلاً عن انهيار الغرب قابلاً للحياة، إلا أن رفضها لمبدأ النظام الذي يزعم الهيمنة على العالم يجعل منها تجسيداً

للشر[1] ليس فقط لأسباب اقتصادية (ديون الجزائر تبلغ 21 مليار دولار، وتسديد كل عام 5 مليار دولار ونصف فوائد) وإنما لسبب سياسي رئيسي وحتى ديني. ذلك لأنها تضع موضع سؤال غاية المجتمع المؤسس على اقتصاد السوق. بالنسبة لمستغلي العالم الذين يمارسون عبادة «وحدانية السوق» فإن الأمر يتعلق بحرب دينية حقيقية، إنهم هكذا يصفون كل من يقف في طريق «ديانتهم» بأنه شيطان 1 أياً كانت الميزات، الأخطاء، الجرائم، كل معارض لوثنيتهم وهيمنتهم يصير «هتلر» سواء كان سلفياً عراقياً أو صربيّاً أو ساندانيست أو معارضاً بيرونياً. وبمباركة من «الديمقراط» الخلص في واشنطون أو في باريس، يجري تطبيق نكتة برتولد بريخت «الشعب صوت ضد الحكومة الإجراء الأكثر سهولة هو حل الشعب».

في الصومال تنوع ثالث، تحت اسم يجعلنا نحلم «حق التدخل

(1) قد يبدو في هذا القول تناقض مع الواقع، الناطق باسم الجبهة يقيم في الولايات المتحدة، ولها مكاتب إعلامية في بلدان أوروبية أخرى. وليس من المستبعد أن الجبهة تتلقى دعماً منها. إذن كيف تجسد الشر في نظر الولايات المتحدة وهي تدعمها ولم تمس الجبهة مصالحها، وكل ما تفعله هو ذبح وقتل ومجازر مسلمين أبرياء وتدمير بنية تحتية ليس من صالح أحد غير «وحدانية السوق»؟.

الجواب بسيط المخابرات المركزية وحتى الصهيونية اخترقت الحركة الإسلامية وبدلاً من مواجهتها ومقاومتها سعت إلى تحويلها إلى أعمال إجرامية وإرهابية. إنها بهذا تضرب عصفورين بحجر: إجهاض الصحوة الإسلامية الرافضة للهيمنة الغربية وتشويه صورة الإسلام على يد جماعات ترفعه شعاراً.

الإنساني» وهو حق يخص الغرب وحده (هل نتخيل شعبا أفريقيا يتحجج بحق التدخل الإنساني، ليتدخل ضد الميز العنصري نحو السود والهنود في الولايات المتحدة خاصة بعد الانفجارات الشعبية في لوس انجلوس؟!)

وهو حق قابل للتطبيق (انطلاقاً من مواصفات أعدت للصومال) على نصف قارة أفريقيا.

لكن التدخل انتقائي، الرئيس بوش وضح تماماً هذه النقطة، في خطابه الأخير في الكلية الحربية في وست بوانت «لا يجب أن نرد على كل حالة عنف مبادىء الأمة لا يجب أن تدخل في تناقض مع مصالحها».

هذا التمييز الرئيس بين «المبادىء» والمصالح، يفسر لماذا حق التدخل طرح بالنسبة للصومال؟ الجواب في أسباب ثلاثة على الأقل:

1 ـ أهمية القرن الأفريقي في مراقبة دقيقة للخليج.

2 ـ التنقيب عن النفط الذي بدأ في الصومال على يد أربع شركات أمريكية كبرى، والذي استمراريته تتطلب سلطانا سياسياً مستقراً أو مطيعاً.

3 ـ أخيراً، وفوق كل شيء، وضع دمية في السلطة، والذي يقبل بدون أي تردد أوامر صندوق النقد الدولي. «المحاولة الخجولة لترأس مفاوضات بين الأطراف المعنية من قبل ساسة فرنسيين

لا زالوا يعتقدون أن أفريقيا لا زالت محمية فرنسية، استبعدها الأمريكان بعنف».

هذا هو التدخل الإنساني المدفوع جيداً من المصالح الأمريكية.

هذه الانتقائية تجسدها بشكل واسع عدة أمثلة: يجب نشر أرمادا جوية لحماية الأكراد في العراق، لكن أكراد تركيا (الذين يمثلون ربع الشعب) ليس لهم حق في هذا التدخل الإنساني. لما ليس للفلسطينيين، أو شعب هايتي الذي عاد للوقوع تحت الإرهاب، وليس للسلفادوريين الملقى بهم بين أنياب فرق الموت.

الدفاع عن «القانون الدولي» وعن الديمقراطية، هي أيضاً أسماء أخرى لإخفاء التدخل. . إنه الاستعمار الجديد.

مجازر الخليج تمثل تجسيداً صارخاً: الدفاع عن الكويت كان دفاعاً عن الحق والديمقراطية!

الحق هو حق الأقوى.

هكذا تمت إعادة الديمقراطية إلى الكويت، ديمقراطية تشبه جداً ديمقراطية الدكتاتوريين في أمريكا اللاتينية، إعادة الأمير إلى الحكم بعد قمع وطرد الفلسطينيين أدت إلى ولادة ديمقراطية كاريكاتورية: 11% من السكان لهم حق الإقتراع. ومع أن الأغلبية في هذا البرلمان «الوهمي» هي للمعارضة، فإن الوزارات أسندت إلى أعضاء العائلة «الحاكمة»، والذين بإمكانهم هكذا الاستمرار في الخلط بين مالية الدولة وثرواتهم الخاصة. النتائج كانت بليغة فيما يتعلق بفساد

النظام، سلسلة من الفضائح تفجرت، والتي مسؤوليتها، كما يقول رئيس البرلمان «تقع على الوزراء الذين توالوا على رأس وزارة الاقتصاد من عام 1986، آخرهم كان خليفة الصباح عام 1991».

مليارات الدولارات اختفت هكذا من خزانة الكويت خلال حرب الخليج فضيحة «شركة كويت أويل تانكر»، المسؤولون في هذه الشركة اختلسوا، حسب اعترافات وزير النفط، ما بين 700 و900 مليون دولار كذلك فضيحة الفرع الرئيس لمكتب الاستثمار الكويتي، مؤسسة مملوكة للدولة، والذي عقب عملية تهريب أموال في أسبانيا، صار يعاني فاقداً مقداره 4 مليار دولار. أما في فرنسا فكان إفلاس المصرف الكويتي الفرنسي في باريس.

مكافأة على هذا، قدم بوش آخر هداياه للكويت: دبابات «ابراهم» (m142) بمبلغ إجمالي 2 مليار دولار، في وقت يموت فيه طفل عراقي كل أربع ساعات بسبب الحصار.

هذا بعد أن صُبَّ على العراق، خلال الحرب، من القنابل ما يعادل قنبلة هيروشيما ثمان مرات، قتلت، حسب الرقم الأدنى الذي يأخذ به الصليب الأحمر الدولي، حوالي 210 ألف شخص.

هذا هو كشف حساب «الدفاع عن القانون الدولي» الذي يعمل في اتجاه واحد. إنه يطبق مثلاً بعنف وصرامة في حالة ضم الكويت، لكنه يتجاهل تماماً ضم القدس. صحيح القدس ليست «إلا مدينة مقدسة» لكن مدينة الكويت ألف مرة مقدسة لأنها محاطة بأبار النفط!

الأسلوب الذي طبق على العراق هو أسلوب التدمير الشامل «إعطاء مثل، عبرة» رادع لكل بلدان العالم الثالث خاصة إيران، وليبيا. هدفان قادمان، لأنهما بلدان يملكان موارد نفطية والتي لا زالت خارج نطاق السيطرة الأمريكية.

* * *

أسلوب آخر أقل كلفة، يطبق حيثما يكفي إضرام فتن طائفية أو وطنية أو مواجهات مزعومة عرقية أو دينية. .

الوطنية اختراع أوروبي[1] ودون الدخول في تفاصيل تاريخية، فإن تكوُّن أوروبا، خاصة منذ معاهدة ويست فالي 1648، والتي وضعت حداً نهائياً للمسيحية التي كانت توحد أوروبا، على أساس «كيانات وطنية» قامت على قاعدة اقتصاد السوق، سوق تحميه الدولة ـ الوطنية ـ والجيش. هذه هي نقطة البداية، سواء تعلق هذا بوحدة قديمة، مثل فرنسا، حيث الملك شارل الخامس، في نهاية القرن الرابع عشر، أصدر قانوناً بمقتضاه «إلى الملك وحده في كل مملكته يعود الأمر في أي معارض وأي أسواق» وجعلها في حمايته. هذا القرار استهدف تجاوز الخصوصيات الإقطاعية. إنجاز هذه الوحدة الوطنية كان عمل الثورة الفرنسية. والذي يعبر عنها القسم المؤسس الذي أقسمه لافايت في عيد الاتحاد 14 يوليو عام 1790، المتعلق

(1) المقصود الوطنية كمفهوم سياسي وهو نتاج تكون الدولة الوطنية المؤسسة على: أرض سكان نظام سياسي. دون اعتبار لأي تكوين اجتماعي.

بالحفاظ على الدستور ضمان الوحدة السياسية لفرنسا، وأيضاً كفالة أمن الأشخاص والملكيات وحرية الانتقال والسلع.

في القرن التاسع عشر، العصر الذهبي للبورجوازية التجارية والصناعية، هذه الوحدة الوطنية، التي أنهت كفاحها ضد بقايا الإقطاع، أخذت تتأكد ضد المنافسين الخارجيين، أخذت إذن تبحث عن مبرر أديولوجي.

كل أمة تدعي لنفسها الإرث الديني للمسيحية. «الله أنجز عمله بواسطة الفرنسيين» أما الوطنيون الألمان فإنهم ينشدون «الله يخص الألمان» لكن مع انهيار السيطرة الدينية، استلزم الأمر أسساً أخرى. للوطنية «جغرافية الحدود الطبيعية» وأحياناً «الأرض الموعودة» والهضبة الملهمة عند بارس، ثم البيلوجيا والعرق باستغلال نظريات قوبينو وشامبرلان، وأخيراً وفوق كل شيء الأساطير التاريخية التي تستهدف الإقناع بأن «الأمة» موجودة منذ آلاف السنين. الوثائق الأسطورية للشعوب استعملت في ألمانيا. مثلاً التاريخ الألماني ـ برست 1824. وفي فرنسا «وثائق مجهولة من التاريخ الفرنسي ـ قيزو 1833»، في إنكلترا «حول أصول إنكلترا 1838».

مع الفتوحات الاستعمارية، كل مستعمر يحدد محمياته في كل القارات والتي صارت فيما بعد «أمماً». مثل الحدود الحالية لبلدان أمريكا اللاتينيَة تناظر ـ تقريباً ـ حدود المستعمرات الأسبانية والبرتغالية أما الحدود الحالية للبلدان الأفريقية فقد تحددت من قبل

المستعمرين الأوروبيين حسب التقسيم الذي تم وفق معاهدة برلين 1885. وهذا حسب علاقات القوة بين المستعمرين، ووفق مبدأ: ذلك الذي يملك الشاطىء يملك عمق البلاد. تقسيم الامبراطورية العثمانية، من قبل المنتصرين في الحرب العالمية الأولى حدد حدود البلدان العربية في الشرق الأوسط والشرق الأدنى حسب الأطماع المتنافسة عند إنكلترا وفرنسا، في الحل الوسط الذي مثله اتفاق سايكس بيكو 1917.

يمكن تعداد الأمثلة عن تصدير «الوطنية» هذه وأديولوجيتها إلى العالم كله، انطلاقاً من أوروبا الاستعمارية.

في فترة تصفية الاستعمار، الصدامات «الوطنية» بين المستعمرين سابقاً، مثلت انتصاراً متأخراً للاستعمار، والذي استخدم الوطنيات بعضها ضد بعض. لقد كانت «الجامعة العربية» حلماً إنكليزياً قديماً، في زمن تعلق الأمر فيه بتقطيع الامبراطورية التركية، وذلك بنزع العرب من «الأمة» الإسلامية. بينما كانت الأديولوجيا الوطنية التركية من صنع أحد الأوروبيين «فامبيري غاما»، مثلما أن الوطنية العربية عند البعث، كان منظرها وصانعها مسيحي هو ميشل عفلق[1].

---

(1) قارودي لا يميز بين الوطنية بالمفهوم السياسي المستورد من أوروبا وبين القومية العربية ذات الأساس الاجتماعي والثقافي التي تتمحور حول الجنس العربي الذي لم يأت من أوروبا، وإنما وجد منذ آلاف السنين، والذي ليس نتاجاً سياسياً بينما الوطنية، بالمفهوم السياسي هي نتاج الدولة. في المفهوم القومي الأمة تصنع دولتها، في مفهوم الوطنية السياسية الدولة تصنع أمتها. ولهذا مفهوم الوطنية =

على المستوى السياسي، من بين ألف مثل، هذا أتاح اضرام الصراع بين العرب والإيرانيين[1] وتجهيز العراق عسكرياً ضد إيران بهدف إضعاف هذا في انتظار تدمير ذلك.

اليوم مع انهيار الاتحاد السوڤييتي. تفكك البلاد، بعناية إلٰهية بالنسبة للخصوم، أنجزته حروب داخلية بين دول المحيط، بين مسلمين ووطنيين في تاجكستان، أرمن وأزاريين، ومجازر أفخازي، وفي الشيشان ضد الروس.

هنا يكفي ترك الأمور تجري، وفي الحد الأقصى تمريراً وترك السلاح يمر، عندما أحد الأطراف يبدو عليه الضعف، من أجل استمرارية التدمير الذاتي.

المثل النمطي جداً تقدمه حالة يوغسلاڤيا السابقة، خلال حوالي نصف قرن، سكانها، مع اختلافهم في اللغة والدين والتاريخ والبنية

= السياسي يمكن أن يتناقض مع الانتماء القومي العربي. ثقافة قارودي الغربية لم تمكنه من إدراك الفرق، وإلا لأدرك أن القومية العربية لم يصنعها أحد حتى وإن أعلنها حزب ما شعاراً، إنها من صنع جنس وثقافة وانتماء يضرب في أعماق التاريخ. الوطنية السياسية المستوردة من أوروبا أداة تشتيت، القومية أداة توحيد.

(1) من غير الصحيح اعتبار الحرب بين إيران والعراق صراع عرب وفرس هذا تسطيح للأمور لم يكن لائقاً، لم يحارب كل العرب الفرس ولم يناصر كل العرب العراق. ببساطة الحرب بين إيران والعراق مثل اجتياح الكويت ـ العربي ـ من قبل العراق ـ العربي ـ نفس الفعلة خلف الأمرين: الذين زودوا العراق بالسلاح في حربه مع إيران، زودوا إيران أيضاً في نفس الوقت، كما أن نفس السلاح الذي زودت به العراق غزا الكويت.

الاجتماعية وكذلك الاقتصادية، لم يعرفوا لا الاضطهاد ولا المواجهة بشكل عام.

النزاعات الوطنية تفجرت مع إقامة غوغائية السوق، مثلاً في الجزء الأكثر ثراء من البلاد، سلوفينيا، ظهرت الرغبة في الانفصال عن الأعضاء الآخرين الأقل ثراء في الاتحاد. قوى التمزق حصلت على دعم قوي: ألمانيا وفق سياستها التقليدية المستهدفة منفذاً على بحر الأدرياتيك، اعترفت من جانب واحد باستقلال سلوفينيا والبوسنا وكرواتيا، المنفذ نحو البحر الأبيض المتوسط، الولايات المتحدة، التي ألمانيا شريكها الرئيس في أوروبا قبلت حالاً. أما تركيا فقد رأت في هذا فرصة استعادة موقع قدم في البلقان الذي كان خاضعاً للامبراطورية العثمانية، خضوعها لحلف الأطلسي سمح لها، دون مواجهة سادة الأطلسي، أن تطرح نفسها مدافعة عن مسلمي البوسنا وكوزوفو. الفاتيكان أضاف إلى هذا دعمه لكراوتيا الكاثوليكية.

الأوروبيون، وخاصة فرنسا التي شعرت أولاً بمخاطر انفجار يوغسلافيا، مالت في أول الأمر إلى الحفاظ على الوحدة، لكنها انقادت إلى مواقف الأمريكان والألمان، واتهمت الصرب، الذين يحاولون الحفاظ على الوحدة، بأنهم معتدين على «الانفصاليين». وسائل الإعلام تكفلت بجعل الصرب شياطيناً في هذا الصراع، حيث الهمجية ليست احتكار طرف واحد.

منذئذ بدأت المجازر.

لأن الأوروبيين والأمريكان لم يأخذوا في الاعتبار تداخل الجماعات في يوغسلاڤيا: باسم حق تقرير المصير (وهو حق لم يؤخذ به فيما يتعلق بالأقليات الموجودة في داخل كل دولة جديدة والتي اعترف باستقلالها) كل طرف ليس أمامه إلا اللجوء إلى دفاعه الخاص. مسؤولية الأوروبيين في هذه الغوغائية الدامية ساحقة، جاعلة من المشكلة غير قابلة للحل وفق القانون وقاتلة وفق القوة.

لكن لا نذكر إلا مثلاً واحداً: البوسنا تضم 44% مسلمين 30% صرب 18% كروات. البعض يخشى إقامة «جمهورية إسلامية» التي أعلن عنها الزعيم البوسني على عزت بيقوڤيتش، البعض الآخر يخشى هيمنة الصرب مدعومين من بلغراد. كل هذا أدى إلى مواجهة دامية بين الكروات والمسلمين، الصرب والكروات، المسلمين والصرب، بعنف. تصفية الحسابات بين سكان مختلطين جداً يتداخل بعضهم مع بعض.

في هذه الظروف، يصير صعباً جداً وغير ذات جدوى التدخلات العسكرية ومفاوضات السلام. عندما مثلا، للدفاع عن «القبعات الزرقاء» ضحايا هذه الغوغاء، يراد انطلاقاً من حاملة طائرات من موقعها في الأدرياتيك، إطلاق صواريخ، فإن كل صاروخ يضرب البوسنا سوف يقتل صربا ومسلمين وكروات معاً.

أما بالنسبة لمفاوضات جنيف، فإنها من البداية معيبة بسبب الخطأ الأوروبي الأساسي. الأوروبيون عندما اعترفوا بالدول الجديدة لم يطلبوا ضمانات من أجل حماية الأقليات. مع أنه اليوم كل يبحث

عنها لحسابه الخاص (كل يحاول استقطاب الأقليات) على عزت بيقوفيتش يريد دولة واحدة، لأنه في إطار اتحادي جمعته (المسلمين) تكون أقلية إذا ما تحالف الصرب مع الكروات.

صرب وكروات البوسنا بالعكس يتمسكون بحل اتحادي، والذي يعطيهم ضمان بلغراد بالنسبة للصرب، وزغرب بالنسبة للكروات، في حالة محاولة إنشاء جمهورية إسلامية. يضاف إلى هذا الخلاف حول رسم الحدود، لأن تداخل الجماعات يستبعد تقسيماً على أساس عرقي. المسألة إذن ترجع إلى تقسيم «كميّ» وهذا يعني حسب علاقات القوة كما كان دائماً رسم الحدود في مسار كل التاريخ.

هكذا رجعنا، بسبب العماء المقصود، من القوى الغربية، إلى مشاكل القرن الحاضر، والتي سميت «مسألة الشرق» هذه المشكلة تزداد اليوم خطورة مع خطر اضطرابات تشمل معاً أوروبا والشرق الأوسط[1].

لقد حاولنا استخلاص خط يقودنا ويسمح لنا بربط المشاكل الرئيسية الدولية في نهاية القرن العشرين، بأن صعدنا إلى سببها الوحيد والعميق رغم تنوع الظاهر: الهيمنة العالمية للولايات المتحدة ووحدانية السوق التي تريد فرضها عالمياً.

---

(1) الخطورة اليوم تأتي، ربما، من أن المسلمين - في البلقان وغيرها، لم يعودوا ذلك الكم الذي يتصرف فيه الأوروبيون كما يحلو لهم. المترجم.

ما استمر هذا:

أن تدعى حرية: اقتصاد السوق التي بدون حدود على أنه المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية.

أن يدعى تقدماً الزيادة المستمرة في السلطان التقني والعلمي المستهدف الهيمنة على الطبيعة وعلى الإنسان.

أن يدعى تطوراً الزيادة العمياء في الإنتاج والاستهلاك.

فإن اللامساواة سوف تزداد والإقصاء يزداد، كما يزداد العنف الذي ينتج عن كل هذا.

- ليس هناك حرية وديمقراطية إلا عندما كل إنسان يشارك في القرارات التي يتوقف عليها مصيره.

- ليس هناك تقدم إلا عندما غابة المنافسة وإرادة القوة والنمو وتمتع الأفراد والجماعات والأمم على حساب بعضها، يحل محله جماعة حقة، أعني جماعة، حيث عكس الفردية، كل عضو يعي أنه شخصياً مسؤول عن مصير كل الآخرين.

- ليس هناك تطور إلا تطور الإنسان. عكس نظام ينتج الثروة وتراكمها عند القلة في المجتمع، وتراكم الفقر المادي والثقافي عند الكثرة: المجتمع يكون متطوراً عندما يخلق شروطاً اقتصادياً وسياسية وثقافية وروحية من أجل أن كل عضو من أعضائه: يملك بداية حظاً مساوياً لكي يطور كل الإمكانات الخلاقة التي يحملها في ذاته.

الفصل الخامس

محاولات الاشتراكية المجهضة

لقد استلزم الأمر قرنين من الزمان، بعد الثورة الفرنسية، للتنديد بما دعاه ماركس، منذ منتصف القرن الماضي «بذخ الرأسمالية»، ولإدراك العودة إلى الغابة، التي تمثلها أديولوجية وممارسة «حرية السوق»، والتي قادت اليوم إلى تقسيم العالم إلى اثنين: شمال ـ جنوب، مع نتائج النموذج الأوروبي للنمو، الذي يكلف العالم الثالث ضحايا قدر ضحايا قنبلة هيروشيما كل يومين. والهوة لا تتوقف عن الاتساع.

في داخل البلدان الغنية نفسها لا تتوقف الهوة عن الاتساع، بين الذين يملكون والذين لا يملكون. ارتفاع البطالة، والإقصاء واللامساواة.. والهوة تكبر دون انقطاع.

حالياً أكثر من تسعمائة مليون عامل في العالم عاطلون، بين 1990 ـ 1993 إنتاج بلدان العالم الثالث انخفض بمقدار 10%.

هكذا الحال أيضاً مع قيام الرأسمالية في بلدان أوروبا الشرقية،

في عام 1992، 75% من الأسر البلغارية دخلها أقل من الحد الأدنى الرسمي للأجور، مقابل 42% عام 90. عام 1992، أكثر من 50% من الأسر البولندية وصلت مستوى خط الفقر، مقابل 40% عام 1991. وهكذا هو الحال في «الاتحاد السوفييتي» حيث مئة مليون شخص دخولهم أقل من خط الفقر عام 1991.

في بلدان ما وراء الصحراء ـ أفريقيا ـ معدل البطالة بلغ 51%. أي ضعف معدل أعوام الخمسين. في أمريكا اللاتينية، البطالة في القطاع المدني ارتفع معدلها من 13,4% إلى 18,6%، بينما ثلثمائة وخمسين شخصاً يملكون دخلاً يساوي دخول مليارين ونصف من سكان العالم.

الثورة الفرنسية استبدلت هرمية «الدم ـ نبالة الأصل». بهرمية النقود ـ نبالة النقود ـ واهتمت من خلال قانون «لوشابلير» في يونيو 1791 بمنع التنظيمات العمالية. لقد جردت من السلاح مقدماً الفئات الاجتماعية الأقل حظاً والقادرة على تهديد الهرمية الجديدة. هذا المنع استمر قرناً كاملاً، وحتى أنشاء النقابات عام 1887.

بابوف 1760 ـ 1797. بين حدود تلك الثورة، التي خلقت علاقات جديدة قائمة على الدفاع عن الملكية وحريتها في النمو على حساب غير المالكين. في رقم 34 من صحيفة «منبر الشعب» كتب بابوف: ما هي الثورة الفرنسية؟ إنها حرب معلنة بين الأغنياء والفقراء!

ضد الغوغائية الاقتصادية التي أقامها نظام التيرميدور عام 1795، وفي «إعلان الفقراء» الذي ظهر في العدد 35 من صحيفة «منبر الشعب» ندد بابوف بـ«القانون البربري الذي يفرضه الرأسمال» بابوف انتحر قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه، في فيندوم 28 مايو 1797.

نابليون رسخ، بفضل الدكتاتورية، النظام الذي نشأ باسم الحرية أحد وزرائه «شابيني» الممثل النموذجي للأرستقراطية الجديدة، أرستقراطية النقود، كتب إلى كومت دانتريق «الشرعي» الذي ظل مخلصاً للنظام القديم: «نحتاج إلى ملك والذي يكون ملكاً لأنني مالك» رسالة 21 أغسطس 1801.

نابليون قنن، بطريقة واضحة جداً ومنهجية جداً، في قانون «نابليون» عام 1804، مبادىء الملكية و«دعه يعمل» التي تأسست عام 1789 لوي بلانك 1812 ـ 1882 في كتابه «تاريخ عشر سنوات» كشف عن هذه الفكرة الأساسية، نابليون، يقول لوي بلانك، واصل عمل الجمعية التأسيسية، الطغيان مخفياً في «دعه يعمل». لقد شجعها وباختصار لقد رسخ كل ما يخدم اليوم قاعدة للهيمنة البورجوازية.

نابليون في الواقع يعطي المثل الأول عن هذه الحقيقة، التي تأكدت منذ ذلك الحين، من لوي فيليب وحتى نابليون الثالث وإلى بينوشيه... والتي مفادها أن الليبرالية الاقتصادية لا تتوافق مع حرية الإنسان بقدر ما تتوافق جيداً مع النظام السياسي الدكتاتوري، كما أن الديمقراطية تخفي دكتاتورية النقود هذه.

نظام كهذا، يمكنه أيضاً العثور في الدين، كما في الإلحاد، على مبرراته هنا أيضاً يعتبر نابليون رائداً، رويديرير، في مذكراته، يورد هذه المسارة على لسان نابليون «المجتمع لا يمكنه الوجود دون لا مساواة في الثروة، وعدم المساواة في الثروة لا توجد بدون دين. عندما إنسان يموت من الجوع إلى جانب آخر متخم، لا يمكنه قبول هذا الفرق إذا لم توجد سلطة تقول له: الله أراد هكذا. . يجب أن يكون هناك فقراء وأغنياء، لكن في الآخرة سيكون الأمر مختلفاً».

لهذا السبب، هذا الملحد ـ نابليون ـ حرص على أن يتوّجه البابا.

هذه اللغة هي بالضبط التي يتمسك بها شاتو بريان «دولة سياسية حيث أفراد دخولهم بالآلاف بينما آخرون يموتون جوعاً، هل يمكن أن تبقى عندما لا يكون ثمة دين والآمال التي يقدمها خارج هذا العالم لتفسير التضحية؟!».

مذكرات ما وراء القبر ـ شاتو بريان:

الاشتراكية ولدت أولاً من الثورة ضد لا إنسانية النظام «الحرية الاقتصادية» والتي دعاها المسيحيون الذين رفضوا المشاركة في هذا النظام. الأب لاكوردبير مثلاً، صاغ مبدأ لا إنسانية الإنسان هذه، حين ذهب إلى أنه «بين قوي وضعيف. . الحرية تقمع والقانون يُحرر».

الاشتراكية ولدت من خلال البحث عن «القانون» الذي يتيح للإنسان أن يصير إنساناً.

لقد فشلت في هدفها هذا ثلاث مرات.

- عام 1848 لم تكن إلا تمرداً، جرت هزيمته في ثلاثة أيام.
- عام 1871 كومونة باريس لم تعش إلا ثلاثة شهور، ثم سحقت بواسطة القوى المتعاونة بين بسمارك وتيير. الجيش البروسي يحاصر باريس ويعيد إلى تيير الجنود الأسرى في سيدان بسبب خيانة بازين، الذي طلب من قادة الجيش البروسي ترك جيشه المحاصر يخرج من سيدان لمواجهة تمرد محتمل في باريس.
- في الاتحاد السوفييتي عاد الأمل للظهور مع ثورة أكتوبر 1917. لكي ينهار سبعون سنة بعد ذلك. الثورة عاشت في حالة حصار منذ ولادتها، بإرادة كليمانصو وتشرشل، اللذين اخترعا قبل غيرهما «سياسة الأسلاك الشائكة». جدار برلين محاولة الاستجابة لنفس السياسة.

الحصار الرأسمالي، ابتداء من الدعم الممنوح عام 1918 للمضادين للثورة، مثل دانكين، فرانجل، من كل حكومات أوروبا الرأسمالية وحتى الحرب الباردة ضد «امبراطورية الشر» و«حرب النجوم» الريقانية، لم يتوقف إلا مدة أربع سنوات: بعد أن رأوا في هتلر أفضل سد ضد البلشفية، وشجعوا صعوده كقوة، بأن قدموا له الحديد والمال حتى عام 1938، والتنازلات الضرورية، مثل ميونيخ عام 1938، لكي تتاح له ممارسة هذه الوظيفة.

بينما هتلر، كمقدمة لتنفيذ هذه المهمة، حرص على ألا يقع في فخ بين الشرق والغرب، غزا فرنسا، وهاجم إنكلترا. عندئذ صار الخلاص الوحيد بالنسبة لأوروبا الاستنجاد بالاتحاد السوفييتي. فاضطروا إلى التحالف معه.

الاتحاد السوفييتي تكبد الاحتلال الشامل من قبل ثلثي الجيش الألماني لكنه أخيراً حرر أوروبا، ابتداء من ستالينغراد وحتى برلين، بأن حطم الجيش الألماني. وعندما دفع في هذه الحرب أكبر الخسائر الناتجة عن البطولة والتضحية ـ 17 مليون موتى ـ فإن الدائرة أغلقت عليه منذ خطاب تشرشل في فولتون 1946، مفتتحاً صليبية جديدة.

الاتحاد السوفييتي سقط، ليس بسبب هزيمة عسكرية، وإنما بسبب إنفجار اقتصادي وسياسي. ليس لأنه تبع نظريات ماركس وإنما لأنه تخلى عنها[1].

ماركس تعرف في كومونة باريس على «الشكل الذي عثر عليه

---

(1) في الحقيقة ليس في فكر ماركس ما يمكن أن يطبق في نظام دولة وفقاً لنظرية ماركس مرحلة الاشتراكية ـ الشيوعية ـ تشترط الوفرة التي تصنعها الرأسمالية وعندما يحدث هذا فإن «نظام المرحلة» سوف يظهر تلقائياً كما ظهر نظام الرأسمالية وقبله نظام الإقطاع. قيام الدولة المتبنية الشعار الماركسي أجبرها على أن تفعل ما كان يجب فعله على الرأسمالية للوصول إلى «الشيوعية» الحصار ومنطق الدولة حالا دون إنجاز هذه المهمة. الدولة «الماركسية» فشلت في الحلول محل الرأسمالية.

أخيراً «لنظام اشتراكي» لكن ما يسمى كومونة باريس، على المستوى الاقتصادي، هو إدارة العمال أنفسهم للشركات التي تخلى عنها الرأسماليون الذين التحقوا بصد الثورة في فيرساي بقيادة تيير[1]».

هذا ما دعاه لينين بعد ذلك، في آخر مقالة له في البرافدا «النظام التعاوني» الذي كان بالنسبة له جوهر الاشتراكية، والذي سمي عام 1968 إدارة ذاتية[2].

على المستوى السياسي، ماركس لم ينقطع، منذ تأسيس الأممية الأولى على يده عام 1864، عن رفض مبدأ «الحزب الواحد». إنه يريد أن يجمع فيه، على العكس، كل أولئك، مهما كانت أديولوجيتهم، الذين يريدون تدمير النظام الرأسمالي[3].

عندما حيا الكومون على أنها «الشكل المعثور عليه أخيراً لنظام اشتراكي» فإن ستين عضواً في اللجنة المركزية لكومون، من بينهم أغلبية كبيرة من الرودونيين، وأقلية من البلانكيين وماركسي واحد.

---

(1) مع ذلك نحن نعرف أن ماركس اعترض أول الأمر على ثورة الكومون. انطلاقاً من أن تحليله لوضع الطبقة العاملة الفرنسية، قاده إلى أن الظروف لم تنضج بعد لهذه الثورة. لكنه لحق بها ومجدها بعد أن صارت أمراً واقعاً وهذا يفسر أقلية المساهمة «الماركسية» في الكومون. تماماً كما أن الحزب الشيوعي الروسي محق بالثورة الروسية، بعد أن اعترض عليها، عندما صارت حقيقة واقعة.

(2) لكن لا ننسى أن لينين نفسه قد ذهب إلى أن أملاك خمسة مليون مالك في روسيا لن يعجز عن إدارتها اثنا عشر مليون موظف.

(3) لكن هذا لم يمنعه من طرد الفوضويين من الأممية ونقلها خارج أوروبا لتموت في المنفى، بهدف إبعادها عن تأثير منافسيه.

على المستوى الوطني، الكومون تأسست على مبدأ «الفيدرالية» اللامركزية جداً، والذي لم يكن بالإمكان تحقيقه في الواقع، لأن باريس كانت معزولة عن بقية فرنسا بواسطة جيوش فرساي وبروسيا.

كومونة مارسليا ظهرت بدون أي تدخل من كومونة باريس.

النظام السوفييتي تشكل على عكس هذا المبدأ، مع مركزية تخطيطية والتي تستبعد، ليس فقط أي إدارة ذاتية، أو نظام تعاوني حقيقي، وإنما أيضاً يحل محلها عقوبات أحياناً دامية انطلاقاً من إدارة المركز.

الحزب الواحد يستبعد أيضاً أي مبادرة من القاعدة، ويفرض في كل المجالات، من الاقتصاد، إلى الدين والفنون، دوقمانطيقية خانقة وقاتلة.

الاتحاد صار شكلياً محضاً ووهمياً، بواسطة المؤسستين العملاقتين التخطيط المركزي والحزب الواحد.

ما هي جذور هذا الانحراف؟

دون إهمال الأسباب الخارجية، فإنه منذ البداية تداخلت مشكلات بناء الاشتراكية مع مشكلات التخلف، في بلد رأسماليته كانت متخلفة مقارنة برأسماليات أوروبا الغربية. الحصار المفروض من قبل البلدان الرأسمالية، مقاطعتها، وتدخلاتها، أرغمت الاتحاد السوفييتي على محاولة عبور مراحل التطور الصناعي التي تم تجاوزها في الغرب منذ زمن، بالقوة. النزيف المادي والبشري الناتج عن الحرب ضد هتلر، والتي حمل الاتحاد السوفييتي ثقلها

الأكبر. المنافسة الإجبارية التي أدخلته في سباق منهك إلى التسلح، والذي فرضته عليه الولايات المتحدة وأعوانها، خلال الحرب الباردة. لكن مع ذلك لا يمكن التقليل من دور الأسباب الداخلية.

أولاً : قراءة حرفية وأصولية لماركس فرضت على بلد متخلف نسبياً نموذج نمو، والذي استخلص ماركس قوانينه ابتداء من تاريخ مختلف تماماً.

لقد صاغ ماركس قوانين النمو القصوى للرأسمالية الأكثر تقدماً في زمنه، الرأسمالية الإنكليزية، بأن أقام علاقة بين الاستثمارات الموجهة لإنتاج أدوات الإنتاج، وتلك المخصصة لإنتاج السلع الاستهلاكية. هذه النظرية الوحيدة للنمو التي عاشت أكثر من قرن.

اتباع دوقمانطيون جعلوا من هذا القانون الوصفي لتطور الرأسمالية الإنكليزية في القرن التاسع عشر، قانوناً معيارياً لتطور الاشتراكية الروسية في القرن العشرين. إنه خطأ قاتل، والذي حال منذئذ دون التفكير في الاشتراكية انطلاقاً من غاياتها وجعل من الدوقما أولوية مطلقة للصناعة الثقيلة، مما أعاد إنتاج لا إنسانية الصناعة الهمجية في بداية القرن التاسع عشر في إنكلترا وفرنسا.

في ظروف التأخر الاقتصادي في روسيا عام 1917، وظروف إعادة البناء، بعد دمار الحرب العالمية الثانية، أولوية مطلب النمو الصناعي يمكن أن تكون ضرورة تاريخية، لكي لا تسحق روسيا تحت وطأة حصار القوى الرأسمالية لها.

الأضرار البشرية لم تصر واضحة إلا بعد الإنطلاق الصناعي عام 1937 «والمحاكمات الكبرى» لكنها عتم عليها، بسبب ضرورة المواجهة. ولم تحدث حركات التحرر الأولى في ألمانيا والمجر ثم في تشيكوسلوفاكيا إلا بعد إعادة البناء.

ثانياً : الانحراف الثاني كان نتاج الخلط بين الاشتراكية وملكية الدولة ماركس كان يسخر من أولئك الذين يعرفون الاشتراكية بأنها «التأميم» بسمارك ـ يقول ماركس ـ سيكون أكبر اشتراكي في أوروبا لأنه أمم البريد»[1].

لينين في آخر مقالة له في البرافدا، حول الحركة التعاونية، عرَّف الاشتراكية بأنها «خلق شبكة تعاونية مدارة ذاتياً». في الريف ـ يقول لينين ـ سيستغرق هذا عشرة أو عشرين سنة، وسوف يتحقق على قاعدة، التجارب الناجحة، دون استعجال وعي الفلاحين بقيمة النظام. عندما ستالين زعم تجميع الزراعة في بضعة شهور وبطريقة سلطوية، فإنه وجه لهذه الزراعة ضربة لم تنهض بعدها حتى اليوم.

«تشريك أدوات الإنتاج في بلد رأسمالية متأخرة، أدى إلى تحقيق التصنيع، ليس انطلاقاً من تعاونيات مدارة ذاتياً ولكن من

---

(1) جوهر فكر ماركس أن المجتمع الاشتراكي هو نتاج تلقائي لتطور أدوات الإنتاج، أي تطور الرأسمالية. في هذه الحالة ليس للدولة ما تفعله. هكذا في حالة روسيا لم يكن أمام الدولة بدأ من أن تحل محل الرأسمالية. وفي غير روسيا تطور الرأسمالية لم ينتج حتى اليوم هذا التحول التلقائي الذي ليس للإنسان يد فيه.

أعلى» هذا يعني بواسطة الدولة والمركزية. الخطة بدلاً من أن تكون أداة أنسنة الاقتصاد، وتوجيه الإنتاج وفق حاجات الناس، وليس وفق الأرباح، صارت مؤسسة هرمية، وبأسلوب شبه عسكري، دون أي مشاركة من القاعدة. في هذه المؤسسة التكنوقراط والبيروقراط وأعضاء جهاز الحزب يملكون كل السلطات، ويقررون باسم العمال الذين لا يستشارون. وإذا حدث هذا فبطريقة شكلية محضة، دون أي تأثير على الإدارة المركزية.

ثالثاً : الإنحراف الثالث كان الخلط بين التخطيط، والذي ليس له إلا دور إرشادي، وبين أسلوب الإدارة من أعلى، الذي يحدد الاستثمارات والأسعار ومعايير الإنتاج والتوزيع التجاري، ونقل السلطات ابتداء من بيروقراطية مركزية وأجهزة محلية معينة من قبلها.

هذا الانحراف الثلاثي قاد الاقتصاد إلى الغوغائية، وقاد الحرية إلى الزنزانة.

إن أسوأ ما في تطور هذه «الاشتراكية» هو استعادتها مسلمات قاعدية من الرأسمالية، وعقيدة غربية في نموذج وحيد للتطور مختلطاً مع النمو الكمي الذي يكفله العلم والتقنية الغربية.

بالعكس أبحاث ماركس تأكدت بشكل صارخ:

لقد تأكد بشكل صارخ زيف آراء آدام سميث وليبراليته الاقتصادية، النظرية الأساسية عند آدم سميث هي: إذا كل واحد

طلب مصلحته الشخصية فإن الصالح العام يتحقق» هذه النظرية دحضها قرنان من تراكم الثروة في يد أقلية والفقر والبطالة والاقصاء نصيب أغلبية الإنسانية ليس فقط في البلدان المستعمرة سابقاً وإنما أيضاً في البلدان الاستعمارية السابقة والجديدة.

نظرية ماركس الأساسية هي أن الرأسمالية تخلق الثروات (في هذه النقطة لا يدخر ماركس مدحه وإطراءه لها) لكنها في نفس الوقت تخلق التعاسة بسبب اللامساواة التي تنتج عنها ضرورة.

إن المحصلة المأساوية لانتصار «الليبرالية الاقتصادية» المؤقت، على مستوى العالم، يمكن وضعها في صيغتين:

- عالم ممزق حيث نمو الغرب يكلف أربعة أخماس العالم ضحايا قنبلة هيروشيما كل يومين.
- عالم ممزق حيث في البلدان الغربية، عدد العاطلين، الإقصاء، البائسين لا يتوقف عن الزيادة.

من كان محقاً؟ آدم سميث أم ماركس؟

التاريخ أصدر حكمه: أن ما سوف يصف القرن العشرين هو إفلاس الليبرالية الاقتصادية وليس الاشتراكية.

القرن الواحد والعشرين لن يبقى على قيد الحياة ما لم يتخلَّ جذرياً عن الليبرالية الاقتصادية، وما لم يخلق شكلاً جديداً من الاشتراكية، أياً كان الاسم الذي يمنح لها، للخروج من ما قبل التاريخ الحيواني، حيث الإنسان ذئب للإنسان، لندخل في تاريخ ذي وجه إنساني ومقدس.

اشتراكية كهذه، ذات توجه نحو خلق وحدة رمزية للعالم، انطلاقاً من الإخصاب المتبادل بين كل الثقافات، لا يمكن أن تولد من الحضارة الغربية وحدها.

لينين ذكرنا ومعه كل الحق، أن فكر ماركس كانت له ثلاثة مصادر الفلسفة الألمانية، الاقتصاد السياسي الإنكليزي، والاشتراكية الفرنسية.

ماركس نفسه كان واعياً بأن المسار التاريخي الذي رسمه «شيوعية بدائية، عبودية، إقطاع، رأسمالية ثم اشتراكية وشيوعية» لا ينطبق بكل دقة إلا على حضارات عالم البحر الأبيض المتوسط، آخذاً في الاعتبار منذ ذلك الحين الخصوصيات الجرمانية[1].

لم يتوقف ماركس عن نقد القراء الدقما نطيقيين (نحن نقول السلفيين) لأعماله. ناهضاً مثلا ضد تفسير كتاباته من قبل صحفي روسي هو ميكايلوفسكي، كتب ماركس عام 1877 إلى مدير المجلة قائلاً: نقادي يشعرون بأنهم مجبرين على تحويل ملخص لتاريخ تكوين الرأسمالية في أوروبا الغربية، إلى نظرية تاريخية فلسفية للمسار العام الذي يفرضه القدر على كل الشعوب، أياً كانت هذه الظروف التاريخية التي توجد فيها الشعوب. وللأسلوب الذي به يستطيع كل شعب بعد ذلك الوصول إلى الشكل الاقتصادي الذي

(1) لكنه امتدح الاستعمار الغربي ورأى في هذا وسيلة إدخال المستعمرات التي هي خارجه ولم يأخذ في الاعتبار خصوصيات البلدان الواقعة تحت الاستعمار والتي ترغم على دخول حلبة السوق الرأسمالي. مقالته عن الجزائر الفرنسية!.

يضمن، مع توسع كبير في قوى الإنتاج، والعمل الاجتماعي، التطور الأكثر كمالاً للإنسان. لكن أطلب منهم العفو إن هذا يشرفني كثيراً لكنه يخجلني أكثر».

وفي رسالة منه إلى فيراز أسوليتش 8 مارس 1881، يقول «أنه لا يتعرف على المزعومين ماركسيين روس، والذين لا يأخذون في الاعتبار التطور التاريخي الخاص ببلدهم، خاصة وجود الكومونات الريفية، والتي إنطلاقاً منها، يمكن، ربما، خلق اشتراكية ليست نتاج تناقضات رأسمالية متطورة جداً كما هو الحال في إنكلترا[1]. وذكر بأن وجهة نظره «محدودة جداً تقتصر على بلدان أوروبا الغربية».

عدة مرات، وخاصة في مقدمة «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» يشير إلى «خصوصية نمط الإنتاج الآسيوي» والذي تناوله ابتداء من دراسة حول المجتمع الهندي. هذا المفهوم استبعده

(1) هذا يعني استثناء من قاعدة المراحل وتعطيلاً للحتمية التاريخية التي تشرط الاشتراكية بتطور أدوات الانتاج.

يجب ملاحظة أن قارودي أهمل ـ عن عمد ربما ـ الإشارة ولو العابرة إلى الأساس الفلسفي الذي بدونه الماركسية ليست ماركسية: إنه المادية الجدلية. والتي تزعم اكتشاف قانون تطور المجتمع من خلال جدلية مادية. ما عدا هذا يمكن قبول اختلاف التفسير فيه. وهو ليس احتكاراً للماركسية فلا أحد يجهل مثلاً أن تراكم الثروة عند البعض يعني فقر الآخرين. الاستثناءات التي يشير إليها قارودي تفقد التفسير الماركسي كل مصداقية.

السبب في هذا التجاهل نراه في أن المنطلق الروحي الحالي لقارودي لم يعد يقبل هذه المادية. فماذا يبقى إذن من ماركسية ماركس؟!.

المنظرون الروس رسمياً على أنه مفهوم ضد ماركس! خلال مناقشات تيفليس ولينينقراد عام 1930، 1931.

بينما ماركس، انطلاقاً من معلومات هزيلة جداً والتي كان يمكن الحصول عليها في وقته، حول الحضارات غير الغربية، بدأ دراسة «الأشكال ما قبل الماركسية للإنتاج وأنماط الملكية» في كتابه «مبادىء نقد الاقتصاد السياسي 1857، 1858».

مهما كان الرأي الذي لدينا عن الاستنتاجات العسفية التي قام بها ماوتسي تونغ من هذه النظريات، والذي استبدل ضمنياً أو صراحة الثلاثة مصادر الغربية في فكر ماركس: جدل تاو إلى جانب جدل الفلاسفة الألمان، الأخلاق الكونفوشيوسية بالتعارض مع «الليبرالية التجارية» لآدام سميث، ثورات الفلاحين الصينيين مكان الاشتراكية الفرنسية. إلا أنه لا يمكن اعتبارها ضد ماركسية. وإنما على العكس محاولة لعدم اعتبار الماركسية فلسفة تاريخ مثل فلسفة هيجل، والذي في تاريخ الفلسفة لم يتطرق أبداً للفكر غير الأوروبي، والذي بدأ مباشرة بالفلسفة اليونانية.

اليوم من الضروري الوضع موضع سؤال، جذرياً، الثقافة والحضارة الغربية ومسلماتها، ودورها المدمر للثقافات الأخرى، انطلاقاً من الفكرة الملعونة «الشعب المختار» والتي تتضمن رفض الآخر وحتى إبادته. الغرب اعتنق فكرة «الشعب المختار» من أجل نفي وحتى تدمير الآخر، مما أدى إلى نفي أو تدمير أشكال إنسانية

أخرى. انهيار الغرب النهائي يهدد اليوم مستقبل الإنسان نفسه.

زمن حوار الغرب الثقافي مع نفسه، وهيمنته، وانفصاله، ولّى. زمن حوار الحضارات جاء، إذا أراد الإنسان عبور المرحلة التاريخية الثالثة من تاريخه دون أن يموت، فإن حوار الحضارات ضرورة.

المرحلة الأولى كانت ولادة الإنسان مع الأداة.

المرحلة الثانية كانت ولادة الحضارة مع الزراعة.

المرحلة الثالثة هي مرحلة معالجة الذرة في قلب المادة، ومعالجة الجينات في قلب الحياة. الإنسان منذئذ له سلطان إلغاء كل انجازاته السابقة، عنده السلطان التقني، بواسطة معالجة الجينات يمكنه تحويل الإنسان إلى الحيوان الذي كان قبل الآلة. عنده السلطان التقني بواسطة معالجة الذرة يمكنه إلغاء كل أثر للحياة على الأرض.

أحلام ديكارت وفاوست بالهيمنة على الطبيعة قادت إلى تلويث العالم وإنهاك الموارد الطبيعية.

دوقما آدام سميث قادت إلى تحول الإنسان إلى روبوت (إنسان آلي) شره للتلاعب بالأدمغة والعقول.

حضارات أخرى، في آسيا، أمريكا اللاتينية، أفريقيا الإسلام أقامت وعاشت علاقات أخرى مع الطبيعة ومع الإنسان ومع المقدس.

المسائل المطروحة هكذا على مستوى العالم تتطلب إجابات أيضاً على مستوى العالم.

إننا لن نحل هذه المشكلات إلا إذا توصلنا إلى إعادة خلق النسيج الإنساني الممزق بفعل أربع قرون من الاستعمار والهيمنة الغربية، لن نستطيع حلها إلا إذا توصلنا إلى تطوير حوار حقيقي بين كل حضارات وثقافات العالم.

الهدف الرئيس من حوار الحضارات هو المساعدة على خلق وعي ـ ليس فقط بين الاختصاصيين أو بضعة من الفلاسفة، وإنما بين الجماهير. خلق وعي بماهية المشكلات العالمية التي تطرح نفسها اليوم، والتي أهمها نتجت عن هيمنة غربية طويلة الأمد. ولا يمكن حلها إلا من خلال حوار مع الحضارات غير الغربية، بهدف إيجاد علاقات جديدة وحياة جديدة، بين الإنسان والطبيعة، بين الإنسان والإنسان، بين الإنسان والمقدس.

هكذا فقط يمكن أن نتصور ثقافة عالمية، مؤسسة وحدة إنسانية حقيقية، ليس على أساس خليط انتقائي، ولكن على أساس تصور، ليس هيمنة، وإنما تناسقي للثقافة.

الفصل السادس

أوهام وأكاذيب الغرب

إنه الطريق الأساسي من أجل أن الشعوب، التي رزحت وقتاً طويلاً تحت سيطرة الغرب، تتخلص أخيراً من قانون تطور غريب عن ثقافتها فرضه عليها الاستعمار.

الأمر لا يعني نكران ما قدمه الغرب، وإنما يعني أن نعطي له مكانه، كل مكانه، لكن لا شيء أكثر من مكانه. الأمر بالأحرى يتعلق بإخضاع العلم والتقنية لغايات واعية وإنسانية حقاً.

هكذا فقط تستطيع الإنسانية مواصلة ملحمتها الإنسانية إنسانياً والتي بدأت منذ ثلاثة مليون سنة.

أحد رواد الفضاء، الذي مشى على سطح القمر، كتب عند عودته: «عندما نراها من القمر فإن الأرض جميلة، لامعة، إنها واحدة ومسالمة». للمرة الأولى عيون إنسان ترى الأرض في كليتها، بدون حدود، في فضاء بدون أفق محدود.

هل سنتوصل إلى إدراكها هكذا في الزمن؟ في وحدتها

التاريخية؟ منذ الفجر الأول للحضارات. منذ بزوغ الفكر والحب وحتى آمالنا ومشروعنا عن وحدة إنسانية!

إنه منذ الآن ممكن. من أجل تغيير جذري للعلاقات الاجتماعية، يجب «خلق نمو جديد، والذي لا يكون نمواً مدمراً للإنسان ولحريته» نمو جديد لا يقود إلى «توازن الرعب» المزعوم، والذي هو تهديد أساسي للسلام ولأمن الشعوب. نمو ليس كمِّياً، وإنما نوعياً، مثل ذلك النمو الذي تحلم به أم لوليدها، ويحلم به كل منا لمن يحب. نمو بالمعنى الذي يفهمه به القديس جريجوار دونيس، عندما كتب: «الله هو الاكتشاف الأبدي للنمو الأبدي».

- فتح أوروبا للعالم، وأولاً للعالم الثالث، هذا يعني أن نصغي للثقافات الأخرى، لأن المشكلات التي يطرحها النموذج الغربي للنمو هي مطروحة على مستوى العالم، وتهم كل العالم، ولا يمكن حلها إلا من خلال شورى عالمية بين الثقافات والشعوب وحكمة العوالم الثلاث. هذا أحد الشروط الرئيسية لسلام حقيقي، أعني بدون ظلم وبدون سيطرة.

- إحداث تغيير جذري في التربية والتعليم، إن موضوع التربية والتعليم ليس تكييف الإنسان مع احتياجات النظام القائم، وإنما موضوعه اختراع المستقبل، تكييف النظام مع احتياجات الإنسان. هدفه يجب أن يكون تعليم الطفل أن

العالم ليس واقعة جاهزة لا محيد عنها، وإنما عمل يتطلب الخلق.

* * *

المهمة الأولى للمثقفين هي كشف اللغة الكاذبة التي تقدمها الكتب المدرسية ووسائل الإعلام، والتي تخدم اليوم الغرب للإبقاء على هيمنته بواسطة أديولوجيات خادعة عن الحداثة.

ليس هناك أي مسلمة من مسلمات هذه الحداثة المزعومة ليست كاذبة.

وأول هذه المسلمات الكاذبة مسلمات الديمقراطية، والدفاع عن حقوق الإنسان، والحرية.

الديمقراطية كانت دائماً ولا زالت غطاء لأقلية من ملاك العبيد إلى سادة الثروة.

ما يدعى ديمقراطية أثينا في عهد بركليس، والتي تقدم كنموذج «على أنها أم الديمقراطيات»، كانت في الحقيقة حكومة عشرين ألف مواطن حر على مئة ألف عبد، محرومين من كل الحقوق، إنها أوليقارشية استعبادية سميت زيفاً ديمقراطية.

ديمقراطية للسادة وليست للآخرين.

إعلان استقلال الولايات المتحدة يعلن المساواة في الحقوق

لكل الناس، لكن بعد هذا الإعلان، يُبقي على العبودية لأكثر من قرن، والميز العنصري ضد السود حتى يومنا هذا.

ديمقراطية للبيض وليس للسود.

إعلان حقوق الإنسان والمواطن، الذي أصدرته الثورة الفرنسية، يؤكد عالياً «كل الناس يولدون أحراراً ومتساوين في الحقوق» لكن الدستور، الذي كان إعلان الحقوق مقدمة له، استبعد من حق الاقتراع ثلاثة أرباع الفرنسيين، لأن فقرهم يجعل منهم «مواطنين سلبيين».

ديمقراطية للأغنياء وليس للفقراء.

هكذا الحال أيضاً بالنسبة لحقوق الإنسان.

حقوق الإنسان منصوص عليها في «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» الذي أصدرته الأمم المتحدة عام 1948.

لكنها كلها تجريدات في تناقض صارخ مع الواقع. إننا لن نذكر إلا مثالين:

- ماذا يعني إعلان «الحق في العمل» عندما النظام ينتج ملايين العاطلين، ولا يتوقف يوماً عن زيادة عددهم؟!
- ماذا يعني «حق الإقتراع» عندما ومنذ وقت طويل حلت «ورقة المصرف» «النقود» محل بطاقة الاقتراع!؟

ليس فقط لأنه في الولايات المتحدة، مثلاً، يستلزم خمسمائة مليون دولار للقيام بحملة انتخابية من أجل وظيفة «سيناتور» أو نائب. وإنما أيضاً لأنه في كل البلدان، الثروة تتيح شراء الأداتين الرئيستين في السلطان: وسائل الإعلام من أجل التلاعب بالرأي العام، وصناعة السلاح لإقناع الناس كحل أخير!

هذا الإعلان عالمي!

كل العالم يمكنه إعلان حقوق الإنسان: المساواة الكاملة أمام القانون. العاطل عن العمل والملياردير لهما حق متساوٍ أمام القانون! العاطل والملياردير لهما حق متساوٍ في إنشاء صحيفة أو تأسيس شبكة مرئية. المساواة أمام القانون تمنع أيضاً الملياردير وهذا العاطل من سرقة رغيف خبز، وإذا فعلا عقوبتهما متساوية!

إنه على كل حال ملاحظ أن أولئك الذين يعلنون أنفسهم «مدافعين عن حقوق الإنسان» على مستوى العالم، مثل السبعة الكبار (أو عصابة السبعة الأكثر ثراء في العالم) الذين اجتمعوا في ليون عام 1996، ممثلين في قادتهم «للكفاح ضد الإرهاب» هم في الواقع رؤساء الدول الأكثر إرهابية في العالم، والأشد انتهاكاً لحقوق الإنسان. ليس فقط آخذاً في الاعتبار تاريخهم البعيد (مجازر الهنود في أمريكا، معاهدة العبيد السود، وعموماً الاستعمار) وإنما أيضاً من خلال جرائمهم القريبة، مثل ضرب الڤيتنام بالقنابل النابالم، تقديم

الأموال والسلاح والمدربين للجلادين في رواندا، والذين هم هكذا مسؤولون عن موت 400 ألف إنسان، والمذنبون حالياً بقتل 250 ألف طفل في أقل من خمس سنوات في المستشفيات (الرقم من منظمة الصحة العالمية) ورقم آخر بنفس الحجم خارج المستشفيات بسبب الحصار الذي يفرضونه على العراق، ونحن لا نمل تكرار القول: أولئك الذين من خلال نموذج النمو الليبرالي المفروض على العالم يكلف العالم ضحايا قنبلة هيروشيما كل يومين.

أساتذة الأخلاق، هؤلاء الغربيون، يعطون العالم المثل عن «السلفية» الأشد جذرية.

السلفية هي ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، وبالتالي الادعاء بحق، وحتى واجب، فرضها على الآخرين. المثل الأشد كمالاً عن «السلفية» هو الاستعمار[1]، والذي مبرره المزدوج كان أولاً: نشر

(1) يستخدم الكاتب مصطلح Integrisme الفرنسي. وهو يعني نظرية تهدف إلى الحفاظ على كلية نظام ما دون تعديل أو تجديد. والمصطلح يشير في الأصل إلى موقف الكاثوليك الرافضين لأي تطور.

يريد بهذا الكاتب القول إن الدول الاستعمارية تريد الإبقاء على نفس النظام الاستعماري القديم. رافضة أي تطور أو تجديد على حساب النظام الاستعماري. مدعية أنها تملك الحقيقة وأن من واجبها فرضها على العالم. تحديث العالم المتخلف حل محل نشر الإنجيل.

رأينا ترجمة المصطلح بالسلفية. من حيث أن موقف السلفية أيضاً الاحتفاظ بالمفهوم القديم للدين ورفض أي تجديد أو تطوير. وادعاء أنها الوحيدة على حق. وبالتالي لها فرض هذا الحق على الغير ولو بالقوة. =

الإنجيل، من أجل أن تفرض على العالم تصورها الخاص عن الدين. العساكر والتجار يتكفلون بالباقي، أعني المجازر والاستغلال. ثم بنفس المنفذين، عندما تراجع الدين، قدمت للعالم «حذاقتها».

عندما اتحد المستعمرون تحت قيادة الولايات المتحدة، النظام العالمي الجديد لم يكن شيئاً آخر إلا تأبيد الغوغائية العالمية الاستعمارية السابقة. منذئذ باسم «الليبرالية الاقتصادية الشمولية» التي جعلت الهيمنة وتخريب العالم أكثر فعالية، ولكن بواسطة وسائل اقتصادية (دون استبعاد التدمير العسكري). بعد إلغاء الميز العرقي في جنوب أفريقيا، الصهيونية الإسرائيلية، التي كانت أفضل حلفاء الميز العرقي، هي آخر ممثلي الاستعمار التقليدي، أي العرقي.

السلفيات الأخرى نتجت عن ثورة ضد هذه السلفيات الجذرية الغربية وعملائها «إسرائيل، إيران الشاه، زائير موبوتو. . . .» الثورة الثقافية في الصين كانت أول من مثل الرفض التام للغرب، مع

= السلفية الدينة والسلفية الاستعمارية حسب الكاتب يشتركان في:

1 ـ الإبقاء على القديم ورفض أي تجديد أو تطوير.

2 ـ الادعاء بملكية الحقيقة «الشعب المختار».

3 ـ ادعاء واجب فرض هذه «الحقيقة».

4 ـ احتقار الآخر وقمعه وحتى تدميره.

تطرفها (ابتداء من القمع العنيف وحتى اعتبار بتهوفن موسيقي بورجوازية). إيران الخميني مثلت ظاهرة مماثلة لرفض نمط الحياة الغربية (وأيضاً تعذيب وموت) الغريب عن ثقافتها العريقة جداً.

كل السلفيات الأخرى (مع تطرفها، وأحياناً تخلفها) هي ردة فعل ضد السلفيات الغربية الجذرية، من أجل الدفاع عن هويتها ردة الفعل هذه أحياناً تكون ماضوية، لأنه في مواجهة الغزو الثقافي تحلم هذه السلفيات بعصر ذهبي سابق على هذا العدوان الغربي. ولا تقود بالتالي إلا نادراً إلى مشروع مستقبل حقيقي[1].

---

(1) السلفيات الاستعمارية الغربية استغلت نهبت دمرت الثقافات شوهت الهويات، لهذا تخشى صحوة الدين القادر على استيعاب العصر وتقديم مشروع مستقبلي للإنسان، والقادر على بعث الهوية دون الانغلاق، ولأن المواجهة المباشرة مع هذه الصحوة ليست في صالح السلفيات الغربية، فإنها سعت بإفسادها من الداخل: عملاؤها الأكثر تطرفاً ـ في الدين ـ وأموالها وسلاحها، جعلوا إلى حد كبير الصحوة كابوساً دامياً. هكذا باسم الصحوة الدينية يقضى على الصحوة الدينية. السلفية الغربية لا شك ماهرة في تدبير «التدمير الذاتي». المترجم.

الفصل السابع

الحضارة وعقائد العوالم الأخرى: لاهوت التحرير

1

إحدى المشكلات الأكثر صعوبة حلها، التي تواجه محاولة الكشف، في البلدان غير الغربية، عن المبادىء المؤسسة لنمو حقيقي، نمو الإنسان وليس الناتج الوطني الخام، هي العثور، في ثقافات توقف تطورها بسبب خمسة قرون من الاستعمار، عما كان أساس مجدها، وعما تستطيع اليوم تقديمه لبناء حضارة مؤسسة على علاقات أخرى من الطبيعة والإنسان والله.

أولاً في علاقتنا بالطبيعة:

بدلاً من اعتبار الطبيعية مخزن موارد ومرمى نفايات، مخزن يمكن الحصول منه، بدون نهاية، عن الطاقات المحركة والمواد الخام، ومرمى قمامة لنفاياتنا، فإن علينا الإدراك بأن الطبيعة ليست ملكنا، وإنما نحن ملكها.

صديق أفريقي أسود، قال لي يوماً «الأرض تخص جماعة كبيرة، بعض أعضائها ماتوا، البعض يعيش حالياً، والبعض الآخر لم

يولد بعد. نحن مسؤولون عن كل شيء وعن الكل».

ونحن؟ هل نفكر في أجيالنا القادمة، الذين خلال قرون قادمة سيقاومون اشعاعات نفاياتنا الذرية؟

زعيم هندي أجاب الغزاة الأمريكان، الذين كانوا يضغطون عليه للتوقيع على اتفاق يتعلق بالأرض، وبالتنازل عنها، قرب حدود مونتانا في منطقة ميلك ريفر: «طالما شَعَّت الشمس وجرى الماء، هذه الأرض ستكون هنا تمنح الحياة للناس وللحيوانات أنتم تعتقدون ربما أن الخالق أرسلكم لكي تتحكموا فينا حسب إرادتكم... افهموا جيداً سبب حبي للأرض، لم أقل أبداً أن الأرض ملكي استغلها كما أشاء.. إنها هنا بفضل الروح العظيم ونحن لا نستطيع بيعها لأنها ليست ملكنا».

في نظام حيث كل شيء يشترى ويباع، أين صار فينا هذا الاحترام للطبيعة ولله؟!

في لوحة صينية ترجع إلى فترة سونق «القرن الثالث عشر» نعيش حضور تاو «الكينونة واحد مع الكل»، شبكات الأنهار، سلسلات الجبال، السحب، والأشجار، وهذا الكائن البشري الصغير في دفق الأشكال، يعطينا الشعور بأن الذي أطر اللوحة ليست العين الهندسية للإنسان الغربي: المشهد هو رمز مرئي للعالم كله بقوى تأتي من ما وراء اللوحة، وتستغرقنا في شكل من الوحدة الكونية قريبة من الصلاة عند هؤلاء الرسامين من أجل اللامتناهي.

ماذا بقي في حياتنا (ومن فنوننا المسماة عصرية) من هذه المشاعر المحيطة؟

في علاقتنا مع الآخر علينا أن نجد ما وراء أنانا، مركز ومقياس كل شيء، أن نجد حس الجماعة، أعني كلية إنسانية، فيها كلٌ يشعر أنه مسؤول عن مصير كل الآخرين.

تجربة أربعة أشهر، في قرية صغيرة «بسارى» على حدود غينيا والسنغال، ألف كيلو متر من الساحل، حيث لا أحد من السكان مسيحي ولا مسلم، وإنما ما ندعوه، بسبب عدم وجود تسمية أفضل، وثنياً[1] أقنعتني بهذا.

---

(1) Animisme عام 1781 تشير إلى نظرية فسيولوجية طبية تفسر الوقائع الحيوية بواسطة فعل الروح. ويشير المصطلح أيضاً في العموم إلى مذهب يرى للأشياء روحاً كروح الإنسان، أي أن كل شيء حي وله روح. اعتقاد قديم لا زالت آثاره باقية، مثلاً عندما نسيل دم ضحية على عتبة بيت جديد. فإن هذا يتأسس على الاعتقاد في أن للبيت «روحاً» يتطلب رضاها قرباناً.

فلسفيا نجد هذا في مذهب «وحدة الوجود»، وهو مذهب يرفض معاً مادية الوجود وروحية الوجود. الوجود كل يتبدى بمظهرين مادي وروحي. اسبينوزا مثلاً يمثل هذا المذهب. كما نجده عند المتصوفة الذين يرون الله في كل شيء وكل شيء في الله.

يبدو أن الكاتب صار يميل إلى مذهب وحدة الوجود هذا، الله والعالم كل واحد يبدو على نحوين. من هنا يأتي «إسلام» قارودي مع عدم إنكاره المسيحية. وحدة الوجود توحد كل الديانات باعتبارها تعبيرات متنوعة لواحد أعمق: روحانية إدراك وحدة الوجود تستوعب كل الديانات وتتجاوزها. إنها الصوفية المتجاوزة لكل الديانات، ليس برفضها وإنما بالوصول إلى أصلها جميعاً.

وحتى في باريس، معاشر جماعات المهاجرين، مغاربة أو سنغاليين. . . الخ تظهر ما يجب علينا تعلمه منهم، عندما تبادل المساعدة والجماعة الإنسانية بينهم تحل محل الإحسان، الذي تقوم به مؤسسات المساعدات الاجتماعية عندنا.

في علاقتنا بالمقدس:

نحن في حاجة إلى إيمان الآخرين وكذلك شكلهم وعدم اعتقادهم لكي نتخلص من آلهة القوة، من هؤلاء الملوك المهددين بالصواعق مثل زيوس وجوبيتر وآلهة الجيوش مثل «يهاف» وكل الأصنام، آلهة قبائل المدينة مثل أثينا، أو آلهة منحازين يمنحون النصر أو يأمرون بالمجازر لحماية شعبهم «المختار» ضد الآخرين، إله قاضٍ متوعداً بجهنم أولئك الذين لا يطيعون قوانينه وواعداً بالجنة لمن يخضعون لها.

عيسى نهض يشهد على الله في العجز والفقر وقطيعة جذرية مع كل الآلهة القدماء، مرجعاً صدى كل حكمة الشرق. حكمة فيداس التي كتبت ابتداء من الألف الثاني قبل الميلاد، والتي قال عنها حكيم هندي «ديننا الفيداسي الخالد هو مصدر كل الديانات وكل الثقافات وكل الحضارات».

الأب الجزويتي سونشانان يقول عن الفيداس أنها «نشيد الطقوس المطلقة» (صوفية الهند والغموض المسيحي 1974) معلنة الوحدة المقدسة الأولى للعالم، ووحدة الإنسان مع المقدس. «هذه

أسماء متعددة لكنه واحد» «تغني نشيد ريج فيدا مسبحة بالوحدة المقدسة، وبالكل، أكثر من ألف سنة قبل أي روحانية أخرى.

أناشيد الفيدا وشروحها في أوبانيشاد، قرون بعد ذلك، تعبر عن نفس النظرة، مستبطنة أكثر، الإنسان يسكنه المقدس «أنت هذا»، أعني «البراهمى». هذه وحدة الكل، التي ندعوها الله، تكمن بكاملها في الإنسان، أتانا العميق في هوية معه.

البراهمى يكون وراء ما هو كائن وما ليس كائن، إنه في داخل كل ما هو كائن، وخارج ما هو كائن، كالمملكة التي يعلنها عيسى، هذه المملكة حيث لا ندخل بواسطة الفتح وإنما بواسطة الزهد والورع.

هذه أيضاً تعاليم «ريشيز» وزهاد الهند، الذين يطالبون بأن نتخلى عن كل شيء يخصنا، كل ما يتعلق بنا: رغباتنا الجزئية والأشياء التي نعتقد أنها تشبع رغباتنا، لكي لا نشكل إلا واحد مع ما هو الحقيقة النهائية للعالم. هذه الوحدة المطلقة والتي بشكل لا يقبل القسمة هي: وجود، وعي وسعادة قصوى. هذه الصياغة الأولى للثلاثية: صمت الله، الأب اللامرئي. كلام الله، الابن الذي يجعل مرئياً، بواسطة حياته، كلماته وأفعاله، كل ما نستطيع معرفته عن الله الخفي، اللامرئي. وأخيراً حضور الله، الروح التي تجعل من كل إنسان وعداً إلهيّاً من الله الذي صار إنساناً من أجل أن يصير الإنسان إلهاً، كما يقول آباء الشرق.

«الحالة التي فيها يتحقق الارتباط مع الكل، والتغلغل في كل

شيء بواسطة الوحدة مع المقدس، هي الهدف الأقصى وإنجاز الإنسانية» (طاغور 1867 ـ 1941).

هذه أيضاً رسالة التاوية الصينية، مستبعدة أي ثنائية «كل الموجودات، وأنا، ونحن واحد في الأصل» هكذا كتب تشوانق تسو في القرن الرابع ق.م «كل الموجودات هي واحد في كل عظيم: الكينونة واحد مع الكل».

هذه الصوفية هي السمة الداخلية في كل فعل إنساني حقاً، أعني فعل لا يتصرف إلا وفق الكل، متخلصاً من كل رغبة جزئية، سواء كانت مصلحة شخصية أو مصلحة جماعة جزئية: عرق.. أمة، كنيسة، ووطن وحزب. إن هذا نقيض المفهوم القبلي عن «الشعب المختار» في العهد القديم، والذي كان عيسى في قطيعة جذرية معه.

هذه هي الصحوة التي كان بوذا شاهدها العظيم!

لقد نسجت إرادياً هذا الاستدعاء للحكمة القديمة، مع رسالة الحياة والموت التي مثلها عيسى، لأن عيسى كان الرسول الأقرب لنا، العقيدة واحدة بين الناس والذي جسد هذه الحكمة في شخصه، في شخص والذي حبه يحولنا ويعطي معنى لحياتنا، موته هو بعثنا.

«لقد جعلتنا نولد» كما كتب أحد الروحانين البزانطيين، في القرن الرابع عشر «أنا أحب إذن أنا موجود».

عيسى هو أولاً الخروج من الذات، الخروج أيضاً من انتماءاتنا الجزئية، القطيعة المطلقة مع العهد القديم، الذي ينتهك عيسى كل

قوانينه، هذه القوانين كما ندركها منذ أن القديس بول لم يهتم بعيسى إلا ابتداء من موته، ولم يرجع أبداً لحياته وكلماته وأفعاله، جاعلاً من صليبه «عربة نصر»، وبعثه، الذي جعله معجزة القوة الإلٰهية، لكي يجعل من الحواريين السابقين عن الأناجيل الثلاثة شهوداً من أجل إعادة بناء هذه الحياة ابتداء من مقتطفات من العهد القديم كما لو أن عيسى لم يحمل جديداً «الأنبياء وموسى قالوا مسبقاً ما سوف يحدث ولن أقول أكثر» وكما لو أنا عيسى اكتفي بلعب دور كتب مسبقاً من قبل الأنبياء.

مسيح بول ليس عيسى المسيح.

المسيح هو الترجمة الإغريقية للمسيح اليهودي، الذي كان عليه إعادة إقامة مملكة داود. يجب إذن أن يكون من نسل داود واستمرارية له، زعيم حربي لعصابة من المرتزقة، والذين كتب صمويل والملوك تحكي لنا غزواتهم الدامية.

عيسى ليس داود جديداً، كما أنه ليس ابن إلٰه الجيوش، كما أن الحب الذي يعظنا به ليس إنجاز ثارات العهد القديم، وليس أيضاً التضامن القبلي حيث «حب البعض للبعض ينحصر في حب الذين من القبيلة» كما يؤكد هذا التلموذ.

عندما شرح كلمة «القريب» في إطار التشريع الإنجيلي، خصص ذلك التلموذ بأنه يعني «الإسرائيلي» مستبعداً «الوثنيين».

لكن هذا فقط لأن النص المكتوب يقتضي هذا التفسير.

ستكون، قال عيسى (جان 34.13) وصية جديدة لأنها لا تظهر في لوحات موسى.

هذا التغير من الأدنى إلى الأعلى، إلى جعله زعيم حرب على شاكلة داود «بول وحده جرؤ على إعطاء مثل إبادة الكنعانيين على أنها سابقة واعدة بانتصارات أخرى» جعل من المسيحية يهودية معدلة، ومن عيسى إنجاز الوعد المعطى للشعب «المختار».

هكذا محيت الجدة الجذرية في رسالة عيسى، بواسطة تحويل حياة عيسى الورعة والفقيرة إلى وظيفة المسيح المجيدة، حاملاً نهاية ظافرة للتاريخ اليهودي.

«في العقلية الشعبية، كتب الشارح الكبير دود مؤسس المسيحية عام 1977) ارتبطت التقوى بدور سياسي وعسكري «لابن داود» القيام بهذا الدور كان آخر شيء يرغب المسيح القيام به».

وأضاف في «رموز مملكة الله».

«كلمات عيسى ليس لها مثيل في تعاليم اليهود، مهمة عيسى لا يجب اعتبارها محاولة إصلاح اليهودية، إنه يقدم شيئاً جديداً تماماً، والذي لا يمكن أن يتفق مع النظام التقليدي».

لاهوتي آخر، هو قونزاليس فوس، كتب «الله الذي يكشف لنا عنه عيسى ليس إله العهد القديم».

بول، عندما هوَّد المسيحية هو أصل كل لاهوت الهيمنة: لاهوت القسطنطينية، الذي يربط الكنيسة بالسلطة منذ القرن الرابع.

ولاهوت الصليبية ومحاكم التفتيش والاستعمار المتلفع بالإنجيل، والمتعاون مع فرانكو كما مع بيتان. ولاهوت التنديد بلاهوت التحرير، والذي هو، مع ذلك، أحد أهم الآمال في زماننا. ولاهوت الذين يعارضون انفتاح الفاتكان، لأنها تمنع التعالي المقدس بأن تفكر فيه خارجياً، وهذا ينزع من الإنسان مسؤولياته نحو إله ينظم من الخارج، ومن أعلى مصير الإنسان.

التجارب التاريخية لبناء الاشتراكية تحت اسم «الماركسية» فشلت، وفيما وراء أخطاء البشر، فإن الخطأ النظري الأساسي، لما سمي «الاشتراكية التاريخية» هو الادعاء بأنه من الممكن تحرير الإنسان بتجريده من بعده المتعالي[1].

لاهوت التحرير لم يقبل هذا التصور الاختزالي للإنسان، إنه ينطلق من يقين أن كل معركة من أجل التحرير تحتاج للتعالي أكثر من حاجتها للحتمية. لقد فتح طريقاً، لم يعرف من قبل، إلى الاتحاد الذي لا تنفصم عراه بين العقيدة والتاريخ. في نفس الفعل إنه يذكر البعض بالبعد المتعالي للتاريخ، والبعض الآخر يذكرهم بالبعد التاريخي للتعالي.

---

(1) إشارة واضحة إلى أنه صار يرفض الأساس الفلسفي المادي للماركسية. التي استناداً إلى فيورباخ، في «جوهر المسيحية» ذهبت إلى أن الدين أفيون الشعوب. ورأت أن هذا يستلزم تحرير الإنسان من خرافة الدين كشرط لتحرره من الاغترابات السياسية والاقتصادية. قارودي يرى الآن أن القضاء على البعد المتعالي (الروحي) في الإنسان هو خطأ أساسي. لم يحرر الإنسان بل رده إلى مستوى بهيمي حين جعل منه وجوداً مادّياً صيرفاً دون أي إمكانية للتعالي.

إن لاهوت التحرير هكذا تجاوز ثنائيتين معكوستين والذين يسدان الطريق نحو تحرير تام للإنسان: عقيدة في التعالي منظور إليه كخارجي لا تأخذ في الاعتبار النضال التاريخي للإنسان، وانخراط في التاريخ دون مرجعية مطلقة.

هذه الانحيازية المزدوجة أدت، في الغرب، إلى عجز مزدوج: عجز المسيحية التي بدون تأثير تاريخي على الحركات العينية لتحرير الإنسان. وإفلاس أولئك الذين يقاتلون في تاريخ مغلق.

لاهوت التحرير يمثل جهداً معاصراً عظيماً من أجل وضع حد لهذا الطلاق بين التعالي والتاريخ.

ليس صدفة تاريخية، أن لاهوت التحرير هذا، ولد في البلدان الأقدم وقوعاً تحت الاستعمار، في أمريكا اللاتينية. بين جماعات القاعدة أو بين الناس الأشد فاقة ينمو الوعي بالفقر، وإن الفقر يعني ألا تكون شيئاً. مفهوم حب، يستبعد من الاعتبار، الانسحاق المأساوي، لأعداد غفيرة من البشر، كشرط للثروة الصارخة عند بعض الناس، يحمي الوضع القائم.

انطلاقاً من هذا الوضع التاريخي، العيني، المعاش بكل شدته وقسوته في أمريكا اللاتينية وفي أفريقيا، فإن رجال لاهوت التحرير في كنيسة فتحها الفاتيكان الثاني، والبابا جان الثالث والعشرين، على العالم من أجل خدمته وليس للسيطرة عليه، بدأوا يفكون رموز عالم كهذا على ضوء مطالب عيسى المسيح من الذين يريدون اتباعه:

التخلي عما يملكون، ليس فقط من أجل «نجدة» الفقراء وإنما أيضاً ليكونوا فقراء بين الفقراء، فقراء بأعمق معاني الكلمة: مظلومين، مضطهدين فيزيقيا من قبل الفئات المسيطرة ومغربين روحياً بواسطة الأديولوجيات المهيمنة.

هذا الخيار التفضيلي للفقراء، تأكد بفضل رجال لاهوت التحرير عام 1968 في «ميدلين» بكولومبيا، خلال الاجتماع الاستثنائي لرجال الكنيسة في كل القارة. «المجلس الكنسي لأمريكا اللاتينية» يمزق وهماً: إنه ذلك الذي باسم الحياد السياسي للدين وباسم الحب، بارك مجازر الهنود واستعباد السود، واليوم يبارك تقسيم العالم بين أقلية مترفة وكثرة معدمة.

هذا الوعي بوضع تاريخي على ضوء عيسى، وهذا الموقف المكافح للامعنى العالم، حيث فيه أغلبية كبرى من الناس ـ خاصة في العالم الثالث، لكن ليس فيه وحده ـ مضروب عرض الحائط «بصورة الله»، سوف يقود إلى قراءة جديدة للأنجيل، وعكس جذري للمسار اللاهوتي التقليدي في الغرب: بدلاً من زعم «استنتاج» نظرية اجتماعية أو سياسية، من نصوص إنجيلية، دون الأخذ في الاعتبار الواقع التاريخي لكل مرحلة، الإنطلاق من هذا الوضع التاريخي العيني لفك رموز معناه على ضوء رسالة عيسى المتمردة على السلطات الدينية والسياسية في زمانه، والذي قاده إلى الموت.

هذا المنفذ الوحيد الذي فتحه عيسى في تاريخ الإنسان، كان النموذج المتعالي المعاش في التاريخ.

«لاهوت التحرير» للأب قيتيرس، من البيرو. «عيسى المحرر» للأب ليونارد وبوف من البرازيل، «التاريخ ولاهوت التحرير» لانريكو دوسيل من الأرجنتين، «تحرير اللاهوت» للأب سيقوندو، هذه الأعمال تمثل علامات هذا البحث، وهذا الإنقلاب العظيم.

نقدهم للماركسية هو الأكثر عمقاً، ذلك لأن أي نظرة لا تدحض جدياً إلا إذا استخلصنا آخر قطرة حقيقة تحملها، وإلا إذا كشفنا عن أصل أخطائها.

الماركسية، كما التيوبيات الاشتراكية التي سبقتها، ولدت في القرن التاسع عشر، في المحتوى التاريخي للثورة الصناعية، والتي تقدمها التقني يعطي للرأسمالية طعم أسطورة فاوست أو بروميت، والمتمثل في عقيدة ـ شبه دينية ـ في التقدم. هكذا قذف إلى الظل بملايين البشر المسحوقين، في مدن مكتظة حيث الإنسان تحول إلى ملحق للآلة وللسوق.

لاهوت التحرير طرح المشكلة الأساسية: التغيير الجذري الذي يحتاجه العالم، ليتجاوز اللامساواة (والعنف الذي ينتج عنها) لا يمكن أن يقوم على عقيدة في «الحتمية» سواء كانت عقيدة التقدم عند الليبراليين أو تنوعاتها «الجدلية» عند سلفي الاشتراكية المسماة علمية. إنها في الواقع «وضعية». لأن العلم يمكن أن يقدم لنا أدوات رائعة، لكنه لا يستطيع أن يحدد لنا الغايات القصوى.

كل أمل في تغيير، يقلب انحرافاتنا الجديدة، يتضمن مسلمة

معاكسة للحتمية: إنه التعالي. أعني الإمكانية بالنسبة للإنسان لأحداث قطيعة مع الغايات، أو بالأحرى غياب الغايات، التي يفرضها النظام.

العقيدة في التعالي هي رهان، مسلمة، مثل العقيدة في الحتمية الكلية والتي في دوامتها فعل الإنسان ليس إلا حالة خاصة من حركة الأشياء.

الاختيار وحده يسمح بإعطاء معنى لحياتنا، بأن تعاد إليها مسؤولية قهر الانحرافات القاتلة لزماننا.

هذا التعالي كمسلمة لكل فعل تحريري، لاهوت التحرير لا يدركه على أنه خارجي، وإنما كإمكانية مستمرة للقطيعة والتجاوز بالنسبة للماضي. عيسى أعطى المثل المطلق عن هذا، بأن كرس حياته وموته للكفاح ضد السيطرة «المقدسة». لكن القراءة التقليدية للرسالة المقدسة كانت من أعلى، من السلطان.

الفصل السابع

الحضارة وعقائد العوالم الأخرى : لاهوت التحرير

2

قراءة لاهوت التحرير للإنجيل هي قراءة من القاعدة، أعني انطلاقاً من المستبعدين، من الذين يعملون، يعانون، يتألمون يعيشون ويموتون دون معرفة ما جدوى حياتهم ومعاناتهم وموتهم. بالنسبة لهؤلاء المستقبل هو الأمل الوحيد في البعث، أعني العبور من الموت إلى الحياة الحقة: حياة ذات معنى.

ليس هذا بالعطف عليهم، بالإحسان إليهم، وإنما بالصيرورة واحداً منهم، مشاركتهم وجودهم، آلامهم، تعاستهم، وآمالهم. اللاهوتي يعيش لاهوته ليس على أنه مهنة «ليبرالية» وإنما كشهادة مناضلة على الرسالة التي من أجلها واجه عيسى الموت على الصليب.

العثور على ما هو أساس في هذه الرسالة، التي لا بديل عنها، والعمل وفقاً لها وطبق دعوتها، هو ما هو جديد في لاهوت التحرير: الأب قوستاف قوتييرس، في كتابه «لاهوت التحرير» يرى في رمز الحكمة النهائي عند ماثيو «خلاصة الرسالة الإنجيلية». نحن

لا نحكم على حبنا من خلال الآخرين، ولا من خلال القانون، وليس من خلال أي حكمة، وليس حتى من خلال أي عقيدة، والتي لا تزدهر إلا في فعل كما حدده عيسى: «إطعام الجائعين، إكساء العراة، ضيافة الغرباء، في كل مرة تقومون فيها بهذه الأمور الصغيرة فإنكم تفعلون هذا لي» (ماثيو 25 ـ 40).

هذا البيان الإنجيلي، يقول الأب قوتييرس، يتحقق من خلال خيار تفضيلي للفقراء «الكفاح ضد كل ظلم، سلب، أو استغلال، الإلتزام بخلق مجتمع أخوي وأكثر إنسانية، هذا يعني أن نحيي حب «الأب» ونشهد عليه».

ويضيف «الوحيدون الذين يرون في هذا اختزالا سياسيا هم الذين يصنعون الإنجيل في خدمة الأقوياء».

رجال لاهوت التحرير أخذوا مأخذ الجد إعلان البابا الذي يعتبر الوضع الحالي للعالم هو «وضع خطيئة». مفتاح كل تفكير سياسي أو ديني وكل فعل هو «وضع الخطيئة هذا» المشوه لكثرة من الناس الذين «خلقوا على صورة الله». «الكينونة كل للكل» تتطلب وضع نهاية لهذا الإنقسام القاتل، تحرير للإنسان والتحرر من الخطيئة ليسا إلا شيء واحد. التاريخ المقدس والتاريخ بالمعنى الاعتيادي هما تاريخ واحد لهذا التاريخ لهذا التحرير المقدس والبشري بشكل لا يقبل القسمة.

التمييز الخادع لهذين المستويين، مستوى المقدس ومستوى

التاريخ البشري يجعل الإنجيل، في الواقع، في خدمة الأقوياء.

في أمريكا اللاتينية هذا التمييز أدخل بطريقة صريحة بواسطة صورتين لعيسى في الكنائس، برسومها ونحتها: المسيح المنتصر ومريم في لباس الملوك والملكات، وعيسى المهزوم، هيكلاً عظمياً عادياً، مسيح الفاتحين والأغنياء والأقوياء، وعيسى الفقراء والمهانين.

«وجه عيسى، كتب الأب ليوناردو بوف، وصلنا محملاً ومحاطاً بألقاب وبيانات دوقمانطيقية، والتي تستهدف إخفاء أصله ووجهه الإنساني، وإدخاله التاريخ بجعله نصف إله خارج عالمنا. العقيدة يجب أن تحرر وجه عيسى من العوائق التي تحاصره وتحط منه: إعلان أن عيسى هو المسيح، سيد، ابن داود ابن الله، لا يعني بعد ما نعتقده، إذاً لم يكن لدينا الاهتمام بمعرفة ما تعنيه هذه الأسماء بالنسبة لحياتنا. العقيدة في عيسى لا تترجم من خلال صيغ عتيقة حتى لو كانت مقدسة، وليس من خلال عالم آثار إنجيلي، الاعتقاد في عيسى، بالمعنى الذي فيه الأمر يتعلق بفعل ملتزم لوجودنا، ومتضمناً طريقة حياة، يعني مواجهة كلية الحياة الشخصية والاجتماعية والثقافية والدينية، وشاملة بواقع عيسى.

هكذا فقط يتوقف الدين عن أن يكون أفيوناً واغتراباً، هكذا فقط تصير العقيدة إرهاصاً لمستقبل ذي وجه إنساني. أعني مقدس بواسطة المشاركة في مجيء المملكة الإلهية.

إحدى السمات الأكثر تجديداً في لاهوت التحرير، هي أنه وضع نهاية لهذا الاستعمار الديني للاهوت المقدم على أنه إنجاز التاريخ اليهودي. والذي صار أوروبياً من خلال الفلسفة الإغريقية، ومنظماً على أساس امبيريالي روماني. بقية العالم لا يمكنه استقبال رسالة عيسى إلا سجينة في هذه الثقافة: ليس هناك «تاريخ مقدس» إلا تاريخ اليهود، ولا لغة دينية غير العبرية، الإغريقية، أو اللاتينية..

وكما كتب أنريكو دوسيل: الكنيسة المسيحية في أمريكا اللاتينية (كما في أفريقيا وآسيا) كانت ملحقاً لتاريخ التبشير.

ويضيف «إنهم الأوروبيون الذين اكتشفوا «المجتمعات الدينية» الأخرى، والتي سيطروا عليها بفضل قوة السلاح، والبارود والخيول... في هذا المستقبل القريب هكذا يكون الكلي العيني، هكذا المشروع الإنساني القادم الذي يستوجب على الأوروبيين أنفسهم الانفتاح عليه؟... أمنا أمريكا الهندية، أبونا أسبانيا، لكن الوليد ليس أمريكياً هندياً وليس أسبانياً، وليس أوروبياً، وليس الانكا ولا الأزتيك، إنه شيء جديد: ثقافة جديدة هجين.

هكذا ولد، في أمريكا اللاتينية، تصور أخيراً عيني للكلية، كانساً المفهوم اللعين عن «الشعب المختار» والذي خدم مبرراً للاستعمار المتخفي تحت ستار «نشر الإنجيل».

هذا التحرر امتد ليشمل قارتين آخرتين، كانتا مستعمرتين بواسطة

السلاح والتجارة، لكنهما لا زالتا مستعمرتين من قبل الكنيسة.

خلال خمسة قرون من حكم «الاستعمار الديني» بدون منازع والذي تمثل في فرض المسيحية على القارات الثلاث، في شكلها التي اكتسبته في الغرب، هذا الدين قدم كما لو أن الله لم يتحول إلى إنسان، وإنما تحول إلى أوروبي.

العلاقة مع الله تكون تجربتها أكثر سهولة، إذا تخلصنا فقط من الثقافة اليهودية الإغريقية، عندها نحن نقترب من الوحدة الثلاثية للأب والابن، بعد أن نكون عشنا وفق نموذج الأب بانيكار وعقيدته اللاثنائية، أو أيضاً استمعنا إلى صوفيين أمثال ابن عربي الذي رأى في عيسى «ختم القداسة» والذي حياته تكشف لنا، من خلال خضوعه التام لله، كل ما يمكن أن يكون مرئياً من اللامرئي الله المتعالى. عن هذا الإله المتعالي، يقول روزبيهان شيراز: قبل أن توجد العوالم وصيرورة العوالم، الذات الخالدة كانت وحدة الحب والمحب والمحبوب.

* * *

في إحدى أقدم الروحانيات، في الهند، ثمة لاهوت في طريقه إلى الخروج من الظل.

منذ بضعة سنوات، رجال اللاهوت الهنود، وضعوا قواعد لاهوت تقوم على تأمل وتجربة العقيدة المعاشة في إطار بلدهم.

في 12 مارس 1992، في هونق كونق، افتتحت ندوة حضرها لاهوتيون، قدموا من مختلف أجزاء قارة آسيا. في ختام هذا اللقاء صدرت وثيقة نقدية موضوعها: «مستقبل الفكر الاجتماعي المسيحي» وقع عليها كل الحاضرين. في هذه الوثيقة يندد اللاهوتيون بالسمة الأنانية الأوروبية التي تسم التعاليم الاجتماعية الكنسية، والتي لا تعترف بمساهمات المؤتمرات الدينية في المناطق، وكذلك لا تعترف بخصوصية الكنائس المحلية.

قساوسة من آسيا، حاولوا بطريقة إبداعية، وضع التعاليم الكاثوليكية في علاقة مع الصعوبات التي يطرحها الوضع الآسيوي، من سوء الحظ، لجنة إصلاح، جاءت من روما، تحاول اليوم التوغل في آسيا، إنها ترى الوضع بطريقة سطحية، وعن بعد. وتتصور بطريقة غير جادة، أن رجال الكنائس لم يتحدثوا إلا عن «حوار... تحرير... ثقافة... وأنهم أهملوا دعوات عيسى المسيح».

هذه اللجنة أدت إلى انقطاع مؤسف في نمو وتطور منسجم لأفكار اتحاد مؤتمرات كنائس آسيا، اللاهوتي الهندي فيليكس ولفريد، أعلن في هذا الخصوص «يجب أن نأمل أن تصدير هذه اللجنة إلى آسيا من الفاتكان، ليس إلا ظاهرة عابرة، وأن اتحاد مؤتمرات الكنائس يستمر في مواصلة الخط الذي رسمته الوثائق العديدة، وأن يساهم بهذا في ظهور صورة جديدة لعيسى تتفق مع عبقرية آسيا».

أحد القساوسة المملوء حماساً ونشاطاً في حركة خيرية، علق على جدار كنيسته لوحة كتب عليها «عيسى هو الجواب» لكنه في صباح اليوم التالي استيقظ ليكتشف أن الأولاد الأشقياء كتبوا تحتها «لكن ما هو السؤال؟»

خلال عدة قرون، حاول المسيحيون اكتشاف حياة وشخص ورسالة عيسى المسيح من خلال أسئلتهم الخاصة والتي ولدت في ثقافة ومجتمع المرحلة. هل نرفض نفس الإمكانية لآسيا اليوم؟ لندع آسيا إذن تكتشف وتعيد اكتشاف صورة لعيسى أكثر تكيفاً لتجيب على تحديات القارة. الفاتيكان أُبلغ هكذا بتصميم رجال اللاهوت الآسويين على التفكير في مستقبل الكنيسة في هذه القارة، بإسلوب آخر غير أن يكونوا وسيلة نقل الخطاب الرسمي الروماني.

إرادة ترسيخ رسالة عيسى في حضارات وثقافات ليست غربية، هي أحد الوعود الخصبة في المستقبل.

الوسيوس بيرز، جزويتي، ولد في سيرلنكا، هو مؤسس ومدير مركز بحوث تولانا من كيلانيا قرب كولومبو. متخصص في الهند الكلاسيكية وفي الفلسفة البوذية، انخرط في برنامج بحوث واسع حول الأدب والفلسفة البوذية في العصور الوسطى في بالي. وهو مدير «حوار» مجلة دولية للبوذيين والمسيحيين، يصدرها المعهد الديني في كولومبو. ولقد كتب كثيراً حول التبشير ولاهوت الأديان، ولاهوت التحرير الآسيوي والدراسات البوذية.

ريمون بانيكار، من أب هندي وأم كتلانية، قام بجهد كبير ليبين أن «إحدى أعمق مؤسسات الحكمة الهندية» تناظر بعض سماتها الثلاثية المسيحية.

محاولاً فك لغز دوقما الثلاثية، من خلال تأمل معاش للاثنائية، بين أنه عندما ندرك أن الغاية القصوى لكل إنسان، حسب الصوفية الهندية، هي التعرف على أن الشخص هو في هوية مع الحضور الكلي في «أنت هذا» الذي نجده في «أوبانيشاد» الهندوسية، فإن هذا يساعد على تجاوز وهم التعالي منظوراً إليه على أنه خارجي.

ريمون بانيكار، خاصة في كتابه «الثلاثية والتجربة الدينية» وهو قمّة أعماله، قدم تعبيراً نموذجياً عن حوار حقيقي لعقيدة متخلصة في كل أنانية عرقية.

وعي مماثل آخر بمطالب كلية العقيدة، والتي هي شرط بقائنا في القرن الواحد والعشرين جرى في أفريقيا:

عام 1977، في ساحل العاج، وتحت رئاسة أرشفيك أبيدجان الأب ياقو، عقد مؤتمر رجال اللاهوت الأفارقة السود: «حضارة سوداء والكنيسة الكاثوليكية».

الأب جان مارك الا، باسم العالمية المسيحية، ذكر بأن «الثقافة اليهودية البحر المتوسطية، والتي حملت حتى الآن المسيحية، ليست إلا ثقافة من بين غيرها، كاثوليك ليس مرادفاً للرومان».

هذه الإرادة في تصفية الاستعمار «الديني» واعتبار الثقافة الغربية

نسبية، من أجل إنقاذ القيم الكلية للمسيحية، تعبر عن نفسها بقوة في كتاب أحد الجزويت، في الكاميرون، الأب هقبا: «تحرير كنيسة تحت الوصايا». «المسيحية ليست ديناً غربياً لكنها دين شرقي، احتكره الغرب، والذي طبعه بطابع فلسفته وقانونه وثقافته، والذي صار يقدم هكذا منذئذ لشعوب العالم الأخرى. إن علينا أن نضع طابعنا على نفس الدين بأن لا نرفع أعلى في مستوى الوحي المقدس الفلسفة الأرسطية التوماوية أو الفكر البروتستانتي الجرماني أو انجلوساكسوني أو أشكال الفكر والعادات القولوا (فرنسا) أو الأسبان، والتي تمسحت إن لم تكن قدست في أوروبا».

الأب أوزانا يستخلص الدروس من الأب زوا، إيفك ياوندي «إننا الورثة الشرعيون للأديان الأفريقية التقليدية، التي أعدت الإنسان الأفريقي أكثر من غيرها لمجيء عيسى المسيح، إن لها دور مماثل لدور العهد القديم».

اليوم تأمل جديد في الوحدة المتعالية للحكمة، وفي أديان العالم، ضرورة من أجل تأسيس «جماعة دينية» لا تقتصر فقط على المذاهب المسيحية، لكنها تنفتح عما تقدمه الثقافات والعقيدة لكل الشعوب، من أجل مجيء الإنسان الكلي.

تطرقنا سريعاً هكذا، لكل روحانيات العالم، من أجل إعادة قراءة رسالة عيسى، هذه القراءة ليس لها علاقة بأي انتقائية أو توحيدية للآراء أو المذاهب. الأمر يتعلق باستخلاص، ما وراء

ثقافتنا، الثوابت العالمية الكلية التي تدخلنا في حياة عالمية وتجعلنا نعي خصوصية شهادة عيسى على مملكة الله.

عيسى لم يأت فقط لإنجاز وعود كتاب مقدس سابق (العهد القديم) لقد جاء من أجل الإجابة على السؤال الرئيس، لكل الناس حول معنى الحياة والموت.

العقيدة هي أولاً قطيعة، التعالي وتجربة القطيعة، والتحرير. ما هو أكثر إثارة للحماس، والأكثر إحباطاً في أفعال وأقوال عيسى، هو أنه ليس أبداً في المكان الذي ننتظره فيه، إننا ننتظر دائماً من أقوال أو أفعال أن تكون امتداداً لغرائزنا البيلوجية.. رغباتنا.. مصالحنا.. تاريخنا الشخصي.. ثقافتنا... وقوانيننا.

لكن السمة الأكثر وضوحاً في حياة وموت عيسى المسيح، هي أنهما يتملصان من كل الشروط البيلوجية والبسكلوجية أو الاجتماعية، إنها حياة لم تخضع أبداً للروتين، حيث لا شيء يكون نتاجَ ماضٍ، ولكن حيث كل شيء حرية اختيار، انتزاع من الأنانية أو العادات، بزوغ جديد.. بزوغ شعري لإنسان.

عش، لا أقول وفق قانون عيسى، ولكن وفق ما أدعوه «شاعرية» عيسى. هذا يعني وعي أن باستطاعة طبيعتي تجاوز الطبيعة، وعي أن كل فعل من أفعالي، كل حدث أكون شاهداً عليه، أشارك فيه، وأن حياتي الشخصية، كما المجتمع أو التاريخ الذي أعيش فيه، ليس حلقة في سلسلة من العلل والنتائج: إنها ما هي

بالنسبة للغاية القصوى التي تواجهها والتي تمنحها معناها. هذا هو المعنى العميق لإعلان عيسى قدوم «مملكة الله».

المسألة ليست تحديد هذه «المملكة» في مكان ما من الفضاء البعيد، أو في المستقبل، كأي يثوبيا، لكن الأمر يتعلق بأن أتكبد أو أعاني مطلبها القريب، كما لو أن كل ما أعتقده مهماً في العالم وفي مهامي سوف ينهار في لحظة قادمة، كي لو أن علي أن أعيد النظر في كل أحكامي وفي كل سلوكي وفقاً لهذا الواقع الأشد عمقاً الأشد قرباً، لأن المملكة هي الآن.. في داخلنا وفي خارجنا. مملكة ليست عدالتها القانون وإنما الحب من حيث المبدأ.

العقيدة تنشأ عندما أتوقف عن طرح السؤال كيف، وأن أسأل نفسي لماذا؟

عندما أتساءل حول الغايات وليس فقط حول الوسائل هذا يعني الوضع موضع سؤال لأهدافي الشخصية والاجتماعية فعل القصيدة هذا يحطم الدائرة المغلقة لعاداتي ويقيني.

عندما رجل السياسة يتوقف عن الاهتمام فقط بوسائل الوصول إلى السلطة، أو الاحتفاظ بها، ويطرح السؤال حول غايات المجتمع ككل، والإمكانيات المطلوب اختراعها، لخلق في القاعدة، في كل إنسان، اختيار الغايات والمشاركة الفعالة في تحقيقها... عندئذ السياسي يصير نبياً.

عندما الفنان يتوقف عن الاهتمام فقط بتأثير خصوصيته الفردية

وتنظيم مهنته ونجاحه من خلال ميزاته الفنية، وعندما بالعكس، يصغي ليصير وعي الجماعة، عندما يجعل عمله ليس مجرد انعكاس الواقع، وإنما على العكس، بواسطة تجربة الممكن، يساعد الجماعة على وعي مشروعها وآمالها ومستقبلها، عندئذ يصير الفنان مبدعاً.

عندما العاشق يرى حبيبه، ليس كوسيلة للأخذ، وإنما فعل للعطاء، للعطاء من الذات، تقديم حياته حتى تفضيل حياة الآخر على حياته، عندئذ يتعلم، كما كتب روزبيهان الشيرازي «الكشف عن لغة الحب المقدس في كتاب الحب الإنساني» العاشق عندئذ يصير صوفياً.

لكن هذه القطيعة، هذا التعالي ليس بعد عقيدة.

العقيدة هي فعل تفريغ الذات.

إنها تجربة «الفراغ» و«الليل المظلم» عند سان جان دولا كروا أن نسكت الرغبات التي تعوي بقوة في داخلنا، أن أنزع نفسي من حدود وسطي الاجتماعي، أن أمحو الصور التي تبهرني دون أن تطمئنني.. أن أنفصل عن الكلمات والتصورات التي صنعت للتعامل مع الأشياء.

فعل التفريغ هذا، الذي يدعوه اللاهوتيون المسيحيون «الغنوص» هذا الفعل الذي، الحقائق الأربع المقدسة عند بوذا، في قسم بينارس، بينت لنا الطريق، والذي تأملات زازين تقدم لنا تجربته، فعل التجرد هذا هو المدخل الممكن إلى «الصحوة» إلى حياة جديدة، اسم بوذا نفسه يعني «الصاحي»:

هذه الحياة الجديدة هي أولاً الوعي بأنني لا أكفي نفسي بنفسي، وأنني لا أوجد إلا من علاقتي مع الآخر. . وكل آخر. . وفق الصيغة التي قدمها روحاني بيزنطي في القرن الرابع عشر، كالسيت: «أنا أحب إذن أنا موجود».

نحن هنا بعيدون جداً عن الفقر الديكارتي وعبارته «أنا أفكر إذن أنا موجود» مختزلاً هكذا الإنسان إلى فرد واحد، والروح إلى مجرد الذكاء فقط.

أحد الصوفيين المسلمين في القرن 13، الشيخ أبو سعيد، اكتشف ما دعاه سر الشيطان، الشيطان قال «إذا قلت أنا فإنك تصير شبيهاً بي».

التجربة العميقة هنا في تجربة الصليب، والتي هي قطيعة مع كل الصور التقليدية لله: قوة. . جمال. . عقل. . عدالة. .

التعرف على الله في هذا المصلوب، هذا الضائع، هذا المستبعد أو المنبوذ، الضعيف لأن الناس تخلوا عنه، حين لم يحاول أحد حتى الدفاع عنه، ورفاقه الأكثر قرباً أنكروه، ضعيف لأن تخلى عنه حتى «أباه» وقبل أن يطلق صرخته الأخيرة من الألم طرح السؤال الذي يحز في النفوس: لماذا تخليت عني؟! كل تجربة عقيدة هي محاولة إجابة على هذا السؤال الرهيب، والتي تتيح لكل أن يحيا قدسياً حياته كإنسان، أعني أن يحيا حياته بمسؤولية كاملة عن مصيره وتاريخه.

فعل العقيدة ليس تأملاً في «الصليب» وإنما أن نحيا هذه التجربة الرهيبة والمحررة: الصليب.

ما وراء هذا فقط يبدأ الطريق الجديد، ما وراء البعث، عيسى لم يمت لكنه قتل، أناس اختاروا قتله، وهو اختار الموت(*) هذا

(*) الكاتب يتبنى الرأي السائد في الكنيسة الذي يقول بموت المسيح مصلوباً، ويفسر بعثه بأنه روحي وليس جسدي. بالطبع ليس هذا ما يقوله القرآن ﴿وما قتلوه وما صلبوه لكن شبه لهم﴾.

لكن ما يبحث عنه الكاتب في المسيح ليس صورته الكنسية وإنما روحانيته وتجرده.

في هذا الفصل يذهب قارودي إلى ضرورة انفتاح المسيحية على الثقافات والحضارات الأخرى. في هذه الدعوة لا يستند فقط إلى أن وحدة الوجود تجعل العقائد والثقافات الروحية تنوعات لحقيقة واحدة. وإنما أيضاً إلى ما يسمى «مسيحية» اليوم ليس في حقيقته إلا الثقافة والفلسفة الغربية. المسيحية عندما خرجت من الشرق، وتبناها الغرب صبغها بفلسفة وثقافة، سواء في هذا الكاثوليكية، والبروتستانتية والأرثوذوكسية... إلخ كلها نتاج حضارة غربية توشك على الإفلاس. أن تفرض هذه المسيحية على الشعوب الأخرى ـ كما هو الحال ـ يعني أن تؤمن ثقافة وفلسفة أوروبا تحت ستار العقيدة المسيحية، «حركة نشر الإنجيل» التي بررت الاستعمار لم تكن إلا حركة نشر ثقافة وحضارة أوروبا، وهذا ما أدى إلى ما أسماه قارودي «استعماراً دينيّاً» أوروبا لم تكتف باستعمار غيرها سياسياً عسكرياً، اقتصادياً. إنها استعمرته «دينياً» من خلال هيمنة كنائسها ومذاهبها الدينية. والتي جعلت «عيسى» موظفاً في وزارات المستعمرات.

إذا كان من حق أوروبا أنها صاغت المسيحية، أو رسالة عيسى من خلال فلسفتها وثقافتها وأسئلتها وانشغالاتها، فلماذا لا يحق للشعوب الأخرى أن تفعل الشيء نفسه: صياغة رسالة المسيح وفق ثقافات وعقائد الشعوب الأخرى.

يبدو في نظره أن الكنيسة بين خيارين: إما أنها تبقى غريبة على سطح حياة=

الفعل، وهذا الاختيار يعطي معنىً كاملاً لبعثه، موته لم يكن موتاً طبيعياً، إنه اختيار حياة جديدة، بعثه ليس العودة إلى حياة بيلوجية وإنما بداية حياة جديدة.

العقيدة هي فعل استقبال هذه الحياة الجديدة، غزو هذه القوة، وهذا الفرح.

العقيدة هي تجربة المنابع.

العقيدة ليست تجربة حدودي، وإنما بالعكس تجربة القدرة

= الناس، بعيدة عن مشاكلهم وآمالهم، نتاج أوروبي في ثقافات غير أوروبية، وإما أنها تنفتح على محيطها وثقافته وعقيدته ومشاغله ومشاكله، والتي ليست بالضرورة على شاكلة ثقافة ومشاغل ومشاكل أوروبا، فتتجدد في أعماق الناس.

لاهوت التحرير يتبنى الخيار الثاني. إن لاهوت التحرير، كما يراه قارودي، ليس فقط ضد الظلم والفقر واللامساواة والعبودية والإقصاء، لكنه أيضاً ضد الاستعمار الديني، من أجل كنيسة تستجيب لحاجات ومشاكل وثقافات محيطها في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا. مما يضع نهاية لاحتكار أوروبا للمسيحية واستخدامها أداة للسيطرة والنهب والاستعمار.

هكذا يبدو جلياً أن بقاء المسيحية في أمريكا اللاتينية وأفريقا وآسيا يتوقف على «تحريرها» من هيمنة الثقافة الأوروبية. وفك ارتباط «رسالة عيسى» بالتاريخ اليهودي ـ الأوروبي الذي يعيقها كرسالة عالمية.

إذا لم يحدث هذا فإن رفض هيمنة أوروبا سوف يجر إلى رفض المسيحية. هذه المسيحية ليست إلا التعبير الثقافي عن الاستعمار الغربي.

إذا كانت الكنيسة في البلدان غير الأوروبية لا ترغب الوصول إلى هذه النهاية، فإن عليها أن ترفض ثقافة وفلسفة الغرب، لتخلص جوهر رسالة المسيح، وأن تنفتح على محيطها. لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية وفي آسيا وحتى في أفريقيا يبدو أنه أدرك هذه الضرورة. **المترجم**.

اللامتناهية لتجاوز حدودي، ليست تجربة نقص ما، وإنما تجربة فائض ما، إنها في المركز وليست في الأطراف، هكذا قال بوفهوفير.

الفصل الثامن

كيف النجاة؟

1

انطلاقاً من كشف الحساب هذا، للثقافة الغربية، السائرة نحو الإفلاس، وهذا الطواف من خلال عقيدة وثقافات الآخرين (أعني عقيدة وثقافات أربع أخماس العالم)، فإن الأمر يتعلق الآن باستخلاص تصورات مستقبلية:

كيف الخروج من تناقضات ومأزق نظام لا يقود إلا إلى الموت؟!

يجب التغيير أو الموت!

ما هي الاستراتيجية التي تتيح لنا بناء عالم ذا وجه وإنساني في القرن الواحد والعشرين؟

من منظور فلسفة الفعل، الذي يحررنا من السيطرة المترتبة عن فلسفات الوجود الغربية، السائدة منذ خمسة وعشرين قرناً، يجب الخروج من المأزق الزائف.

أولاً تغيير الإنسان من أجل تغيير العالم، أو تغيير البنى،

وعندئذ إنسان جديد يظهر ضرورة.

الأخلاقيون، وخاصة مسيحية بول، المنخرطة في الاتجاه الأول، لم ينجحوا من خلال مواعظهم في تحرير الإنسان من السيطرة والاستبعاد والحروب التي تترتب عنهما، وهذا منذ ألفي عام.

آخرون، يعتقدون أنفسهم أكثر واقعية، انخرطوا في الاتجاه الثاني، الرسولية السوفيتية حاملة وهم الاتجاه الثاني: لنغير البنى التحتية الاقتصادية بوضع نهاية للملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، وذلك بتأميمها، هكذا «يولد إنسان جديد».

لكنه لم يولد، وعودة الرأسمالية أتاحت ولادة مافيا، حيث ثروات مضاربية وطفيلية تنمو بسرعة «الفقاع» السام. واتساع نطاق التعاسة والفساد والدعارة والمخدرات، وكل الشرور التي تسم الانحطاط الليبرالي.

لقد صار واضحاً أنه لا يمكن فصل المسارين: لا ذلك الذي يؤسس على تعالي الفعل الخلاق، ولا ذلك الذي يتطلب من هذا الخلاق ألا يقتصر على «استعادة» بعض الأرواح حتى لو كانت أرواح قديسين، لكنهم لا يملكون خياراً إلا بين المنفى الإرادي أو التهميش.

في فلسفة الفعل، هذان الشكلان لمواجهة ما هو كائن، مرتبطان لا ينفصلان: العقيدة والفعل ليسا إلا باطن وظاهر الإنسان ككل.

العقيدة مفصولة عن الفعل تتبخر في مجرد تقوى شخصية، الفعل المفصول عن العقيدة يرد الإنسان إلى حيوانيته الأولى.

إنه في النضال من أجل تغيير البنى تتكون الروحانية دون أن تفقد أياً من أبعادها الباطنية.

إنه في العودة اليومية إلى التأمل في الغايات القصوى لأفعالنا، وفي وحدتنا «الصوفية» مع «الكل» يكون فعلنا غير مختزل في البحث عن الوسائل، عن الإنتاجية، عن الفعالية. وإنما نعي أن الطبيعة هي جسمنا، وأن روحنا مسكونة بحضور كل ثقافات الإنسانية في كليتها التاريخية، وليست «أنا» متوحد. وإن عقيدتي ما وراء الثقافة التي تعبر عن نفسها فيها، تلتقي مع كل الثقافات التي تعيش من خلال تجارب الثقافات الأخرى، دون رغبة «تغيير» أعني دون أن أختزل هذه العقيدة الأساسية والأولى إلى أسلوب في الحياة.

الصيغة التي شوهت غالباً، والتي تعود إلى «الكيير» تفسر هذه النظرة للإنسان، يقول لكيير: «اعمل وبعملك تصنع نفسك، نحن لسنا شيئاً آخراً إلا ما نعمله». هذه الصيغة لا تصير مشوهة إلا عندما نحرم الفعل من أبعاده الباطنية أو الفاعلية.

عندئذ المعركة من أجل بناء عالم آخر، وليس عالم الحماس أو اليتوبيا، يجب أن تطور في ثلاثة مستويات: مستوى التعليم والتربية، مستوى الفنون، ومستوى السياسة. بطريقة تجعل الفعل والعقيدة، فعل الإبداع الفني، الفعل السياسي لا تشكل إلا فعلاً واحداً.

1 ـ قلب التعليم والتربية:

لا يتعلق الأمر باقتراح «إصلاح» التعليم والتربية، لأن محتوى وبنى التعليم والتربية الحالية ليست للإصلاح وإنما للهدم.

نظامنا الحالي نتج عن ذلك الذي، الأول بعد الثورة الفرنسية، حدد دوره: نابليون. اهتمامه الأول عندما أقام «الليسيه» كان وظيفياً، تكوين أطر جيوشه، إدارته، وإعادة إنتاج هذا التعليم.

منذئذ، من السيد «فاتيمسنل» في عهد «عودة الملكية» وحتى وزراء التعليم الحاليين، عدة إصلاحات جزئية أدخلت، لكي يستجيب أفضل للاحتياجات الجديدة. مثلاً مع تطور الصناعة، التي تتطلب تقنية أكثر فأكثر وعلى كل المستويات، «دمقرطة» المدرسة، المدرسة الابتدائية ثم المدرسة التقنية لإعداد البعض ليكونوا عمالاً، والذين لم يعد بالإمكان أن يكونوا أميين مع تطور وتعقد العلم. البعض الآخر ليكونوا مهندسين أو أطراً. وهذا ما قاد إلى إصلاح المحتوى فألغى اللاتيني، الذي مثل حتى ذلك الوقت «تاج» الإنسان المثقف. وحلت الرياضيات محله، الرياضيات علم أساس لكل التقنيات الجديدة.

لكن هذه التكييفات المتتالية مع الاحتياجات الجديدة «للنظام الاجتماعي» لم تضع موضع سؤال الأساس: تأبيد النظام بتكوين، خاصة، النخب المتخصصة أكثر فأكثر، مثلاً في الفيزياء النووية في الجينات، في الاقتصاد السياسي، المعلوماتية. لكنها محرومة من

ثقافة، ليس عامة، وإنما «استيعابية» أعني ثقافة تطرح مسألة الغايات القصوى لأبحاثها وإنجازاتها.

الأمر إذن لا يتعلق بإصلاح النظام، وإنما قلبه جذرياً، هذا لن يتحقق بواسطة مئات الإصلاحات المقررة أو المصوت عليها، وإنما بواسطة تحولات في العقليات التي تؤيد النظام دون غاية أخرى غير «زيادة الناتج الوطني الخام» والاستهلاك، أو القوة وغزو الأسواق.

هل يتعلق الأمر بأن نصنع في مدارسنا أطباء أسنان، كناسين أو عسكريين، أو يتعلق الأمر بإعداد الناس ليكونوا إنساناً.. أعني مبدعين؟!

هذا يتطلب معاً تغيرات جذريّة في المحتوى كما في بنى التعليم والتربية.

أولاً من أجل أن نتعلم كيف نأخذ مسافة بالنسبة لثقافتنا الغربية، وأن نتعلم، ليس فقط في «كوليج دي فرانس» أو الدراسات العليا، أو مدرسة اللغات الشرقية، ولكن من قبل الجماهير، ثقافة الآخرين. وليس فقط في المدارس بأن يضاف ملحقاً لبرامج الدراسة، وحيث لن نجد المعلمين القادرين على هذا، لأننا لم نكونهم إلا في مدرسة «أوروبا» لكي لا آخذ إلا مثل، وهو قريب جداً مني، إنه الفلسفة. متى وضع في برامج «الاقريقاسيون»، خارج الخط الذاهب من أفلاطون وحتى هيدقر، فلسفة تشوانق سو، انكاوا أو الغزالي؟

مع ذلك خارج المدرسة، الفرصة لا تنقصنا، لمقابلة الذين

يحملون هذه الفلسفات في ذاتهم: في أمريكا كما أوروبا يتواجد الصينيون، والهنود في إنكلترا، العرب في فرنسا، والترك في ألمانيا.

ربما على هذا المستوى تكون البداية: موقف آخر نحو المهاجرين، الذين يحملون، أحياناً لا شعورياً، قيم الجماعة والعقيدة هكذا يمكن أن يبدأ، في الجماهير، إدراك الآخر وثروات الإنسانية التي يحملها. أن نعي أن هناك شيء ما يمكن أن نتعلمه من الآخر، وليس أن نبحث من أعلى «أنانيتنا الأوروبية» محاولة دمجه في انهيارنا:

في انهيارنا حيث:

1 ـ العلم صار عقيدة ـ علمانية.

2 ـ التقنية صارت تكنوقراطية ـ حكم التقنيين.

3 ـ والسياسة صارت مكيافلية.

العلمانية[1] اتخاذ العلم عقيدة ـ هي شكل من الغيبية، أو

---

(1) العَلمانية ـ بفتح العين ـ وهي مذهب يرى أن مهمة الدولة تتعلق بالمسائل الدنيوية وليس العقيدة. كما أن العقيدة (الكنيسة) لا تتدخل في المسائل الدنيوية. بينما العِلمانية ـ بكسر العين ـ مذهب يجعل من العلم عقيدة. حين يزعم أنّ العلم قادر على حل المشكلات وينفى من المشكلات ما لا ينطبق عليه المنهج العلمي.

الخلط يمكن أن يحدث بين المفهومين ـ خاصة في الثقافة العربية ـ وهو ربما مسؤول عن اعتبار العَلمانية كفر وإلحاد. العلمانية في مفهومها الأول لا تقود إلى مثل هذا، بينما في مفهومها الثاني الذي يتأسس على إنكار كل ما وراء المحسوس يمكن أن يقود إلى الإلحاد.

بالأحرى سلفية شمولية قائمة على هذه المسلمة: العلم قادر على حل كل المشكلات. ما لا يستطيع العلم قياسه، توقعه يصير لا وجود له هذه الوضعية الاختزالية تقصى الإبعاد السامية للحياة: الحب، الإبداع الفني، العقيدة.

التكنوقراطية، في هذا الشكل من الروبصة[1] والذي يقوم في التقنية من أجل التقنية، لا تطرح أبداً مسألة الغايات، إنها تقوم على هذه المسلمة: كل ما هو تقنياً ممكن هو مطلوب وضروري. هذا التفكير يقود إلى أسوأ أنواع الضلال بما في ذلك السلاح النووي وحرب النجوم، إنه دين تعبد فيه «الوسائل»، دين الوسائل.

المكيافلية: إنها الحيوانية في سياسة تتحدد من خلال تقنيات الوصول إلى السلطة، وليس كتأمل في غايات الجماعة الإنسانية ثم تضع في التنفيذ الوسائل اللازمة للوصول إلى الأهداف.

ألهذا نفخر بأننا «أدمجناهم»؟ أو أننا نضيف إلى إنسانية حقة الوعي بأن فرنسا، والتي منذ قرون، أثرت ثقافتها بواسطة مزج عشرين عرقاً، الذين كونوها خلال القرون، كما يقول ميشليه ورينان؟[2].

---

(1) الروبصة: مرض نفسي، يعني المشي أثناء النوم واليقظة النومية.

(2) يشير الكاتب إلى الدعوة الشائعة في أوروبا وفرنسا هذه الأيام إلى دمج الأجانب. يفهم من قارودي أنه ضد هذا النوع من الدمج والذي يعني سلخ الأجانب من ثقافتهم وإدخالهم في ثقافة غريبة عنهم. قارودي يرى الدمج ليس من خلال سيطرة ثقافة معينة وإنما من خلال حوار الثقافات وتبادلها الإثراء.

فرنسا ليست كياناً سابقاً على الفرنسيين. «أجدادنا القولوا» كما لو أننا لا نحمل في دمائنا إلا «فيرسينجيتوريكس»، أو في ثقافتنا اعتناق «كلوفيس» للمسيحية. أسطورة استخدمتها حتى اليوم أسوأ النزعات «الوطنية». كما لو أننا لم نكن أيضاً رومان بسبب استعمارهم «القول» جرمان بواسطة الفرانك، وسيلت مع البروتون وغزوات النورماند، وعرب مع ما حمله شعراء الأندلس إلى ترو بادور اوكسيتاني.

يمكن أيضاً، من أجل تطوير على مستوى الجماهير، هذا العبور من تصور امبيريالي إلى تصور انسجامي للعلاقات بين الشعوب، تغيير نظام تصدير «الثقافة» المتمثل في المتعاونين. لقد حلمت زمناً طويلاً، وأخشى أن يطول هذا الحلم، بإرسال متعاون من أصل آسيوي، قادماً من الألف الثالث، للقيام بدراسة أتنولوجية للقبائل التي تعيش في شبه الجزيرة هذه في «أقصى آسيا» المسماة أوروبا.

عالم الأجناس هذا ـ اتنولوق ـ المتكون على أساس مبادىء البوذية المتعلقة بالسيطرة على الرغبات، وحتى إخمادها، سيكرس تقاريره الأولى في موضوع «تقنيات تطور الجشع في عالم ما قبل التاريخ»، (لهذه القبائل البدائية) والدعاية والتسويق، وهو يذكر، مع الاهتمام العلمي بالإشارة إلى مراجعة، إن عند السوفسطائيين الاتينيين، حسب قول أفلاطون، يعتبر الخير هو أن تكون الرغبات قوية، وأن توجد وسائل إشباعها. ولكن يمكنه أن يضيف: في نظام النمو السائد في العصر الاركيولوجي للنصف الثاني من القرن

العشرين، نظام النمو لا زال يقوم على هذا المفهوم السوفسطائي الاتيني. تقنيات الجشع «دعاية.. تسويق..» نجحت في خلق حاجات نمطية مانحة مجالاً حراً لفعل الشركات المتعددة الجنسية في أرجاء العالم. متناولاً السمة الطقوسية في وحدانية السوق، ودين النمو عند هذه الشعوب ـ ما قبل تاريخية ـ ويدرس أنماط تعليم طبقة الكهنة التكنوقراط وأتباعهم الشرهين، التلفزيون ووسائل الأعلام الأخرى، ابتداء من دوقما أساسية: استبعاد أي سؤال حول لماذا وصول الغايات. مطلع جداً على بيلوجيا وقتنا، سوف يصل إلى هذه الخلاصة، المستمدة من أبحاث لابوريت: إن حاكم شبه الجزيرة ـ أوروبا ـ لم يستخدم إلا مخه المماثل لمخ الحيوانات الزاحفة.

عالم السلالات هذا، المستغرب ـ ثقافة غربية ـ يتناول الاستشراق، هذه المرحلة ما قبل التاريخية القائمة على الأنانية الاتنية، اتهاماته قاسية، ربما مبالغة في التعميم، لكنها مؤسسة على بعض الأمثلة الشهيرة، والتي للأسف لا يمكن دفعها:

مثلاً المؤسس، المستشرق، معلم الجميع «سلفيستر دوساكي» ذلك الذي علم غوته حضارات الشرق، كان هو نفسه الذي صاغ بيانات بونابرت عند غزوه مصر، وبيانات الجيش الفرنسي عند غزو الجزائر.

ماكس مولير، أحد أهم رجال الاستشراق التقليدي، كان يعطي في كمبردج الدروس لتكوين الإداريين الإنكليز في الهند،، السيدة

روث بانديكت التي كتبت هذا الكتاب الرائع: السيف والمسيح، حول اليابان، كتبته بطلب من «مكتب الحرب» التابع للجنرال ماك أرتور، من أجل ادماج اليابانيين أفضل في نظام السياسة الأمريكية.

مثل هذه الفكرة المرعبة للاستشراق، تقترح الصيرورة «مستغرباً» أعني أن نبدأ النظر إلى الغرب بمجهر، تقريباً كما ينظر علماء الحشرات إلى الحشرات، وكما ينظر الغربيون أحياناً إلى البلدان غير الأوروبية[1].

تغيير الموقف من الثقافات الأخرى لا يبدأ في المدارس ولا في الجامعات، وإنما بين الجماهير. ابتداء، لكي لا نأخذ إلا هذين المثالين عن الموقف من المهاجرين وعن المفهوم وحيد الطرف من المتعاونين، التعليم المؤسساتي لا يمكن التسرب إليه إلا من «القاعدة»، لأنه لا الحكومة يمينية أو يسارية، ولا الأحزاب، ولا هرمية الكنيسة تسير في هذا الاتجاه.

---

(1) قارودي يتخيل أحد البوذيين جاء ليدرس شعوب أوروبا وما يسودها من جشع وتقنيات تخدم هذا الجشع. هذا البوذي سوف يرجع إلى السوفسطائيين من أجل تأصيل هذا التوجه، وقولهم «إن اللذة هي الخير الأقصى» إن هذا سوف يبدو غريباً جداً بالنسبة للبوذي الذي تعلم كبح رغباته وحتى القضاء عليها، عالم الغرب سوف يبدو بدائياً في عيون البوذي. الأوروبيون درسوا العالم الآخر، وأصدروا عليه أحكاماً من خلال حضارتهم والتي ليست بدون عيوب ـ الاستشراق ـ ماذا لو أن رجالاً من العالم الآخر درسوا حياة الأوروبيين؟ كيف يظهر هؤلاء في عيون العالم الآخر؟ قارودي يتخيل أحكام العالم الآخر على أوروبا.

وهكذا الحال بالنسبة للتاريخ والذي يقول عنه بول فاليري في «نظرات حول العالم الحالي» «التاريخ هو المنتوج الأشد خطورة الذي أنتجته كيمياء الفكر، إنه يجعلنا نحلم، يهيج الشعوب، يعطيها ذكريات كاذبة، يبالغ في ردود أفعالها، يبقى على جروحها مفتوحة، يعذبها في راحتها، يقودها إلى هذيان العظمة أو هذيان الظلم ويجعل الأمم قاسية لا يمكن احتمالها وغير ذات جدوى».

التاريخ يبرر ما نريد، إنه لا يعلمنا أبداً أي شيء، لأنه يحتوي على كل شيء، معطيات وأمثلة كل شيء.

لقد رأينا الدور الذي لعبه التاريخ الرسمي في العقيدة الوطنية[1]. وهكذا الحال بالنسبة لتبرير الخصوصية الغربية، عندما تقدم وبشكل منظم معارك ماراتون ومعركة بواتيه[2] بطريقة سمجة ومشوهة، تجعل منها انتصاراً حاسماً للغرب على الشرق، بينما معركة ماراتون بقرن، والتي بولغ في أهميتها من قبل هيرودوت (الذي مدح الاتينين مقابل أموال قدمت له كما كشف عن هذا بلوتارك) وفي عام 386، نجد تيرباز، ملك الفرس، يملي شروطه كسيد على المدن الإغريقية بغطرسة جعلت ازوكرات يعترض قائلاً «إنه هو الذي يدير شؤون الإغريق ويأمر بما يجب على كل واحد

(1) يقصد هنا الوطنية بالمفهوم السياسي. والتي تقوم على: أرض سكان نظام سياسي. وهي ذات سمة عدوانية كما ظهرت في أوروبا وأدت إلى سلسلة من الحروب من أجل الاستحواذ.

(2) معركة وقعت بين المسلمين القادمين من الأندلس والفرنسيين. المترجم.

عمله.. لم ينقصه إلا إقامة حكام على المدن.. ألا ندعوه الملك العظيم كما لو أننا نحن أسراه!».

كما أنه عدة قرون بعد معركة بواتيه كان العرب في ناربون صاعدين نهر الرون، كما يشهد على ذلك كتابات ذات حروف صوفية على كاتدارئية بوِّي. خلال ستة قرون أيضاً كانت قرطبة مركز إشعاع ثقافي في كل أوروبا، وعلوم، كما يشهد على ذلك روجر باكون، والشعر التروبادوري الاكسيتاني ودانتي.

نصيب الاستخدام النفعي للتاريخ في أهداف سياسية هو أيضاً كبير، عندما يتعلق الأمر بالمرحلة المعاصرة، حيث، ولن نذكر إلا مثلا واحداً، من أجل تبرير الإفراط في التسلح والهيمنة الاقتصادية فإنه تجري صياغة تاريخ «العدو» لكي يُجعل منه شيطان، الاتحاد السوفييتي مثلاً كان «امبراطورية الشر». وبوش بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وجد في الإسلام بديلاً عن هذا «الشيطان» ليبرر نفس السياسة. لقد اختُلق تاريخ مقدس، والذي كان أولاً تاريخ «العبرانيين» ثم استحوذ عليه المسيحيون، الذين ادعوا وراثته، من أجل تبرير حروبهم الصليبية أو استعمارهم.

التاريخ لا يمكن إعادة كتابته من قبل المؤرخين المتكونين في هذه المدرسة، وإنما انطلاقاً من تغيير حقيقي للعلاقات بين الشعوب وخاصة مع الشعوب غير الغربية.

هذا التمييز الضروري فيما يخص المركزية الاتنية الغربية، يترجم

في التعليم (سنرى فيما بعد أن الأمر لا يتعلق بالمدرسة فقط) بواسطة معرفة مساهمات كل شعب في جعل الإنسان إنساناً.

التاريخ الرسمي يلعب دوراً قاتلاً، إننا سنراه عندما نذكر كل الاختراعات الصينية، الهندية أو الإسلامية، والتي كانت سابقة على غزو العالم من قبل الغرب، وأن الغرب جعلها فقط في خدمة إرادته القوة والثروة.

التاريخ الرسمي، ذلك الذي يعلم لنا في المدارس أو في القواميس، كتبه دائماً المنتصرون، لقد أرادوا دائماً البرهنة على أن سيطرتهم كانت نتاج تفوق ثقافتهم وليس فقط سلاحهم. حتى أنه من بين كل الممكنات الإنسانية، لم يحدثنا التاريخ هذا إلا عن الذين انتصروا، إن التاريخ هو تاريخ الهيمنة.

في المفهوم الغربي، كل التاريخ كان ثمرة اكتشافات تقنية حتى ما قبل التاريخ كان هناك العصر الحجري، البرونزي، الحديد، كما بعد ذلك التاريخ الحديث الذي بدأ عام 1492 مع بداية الاستعمار: هناك مرحلة الآلة البخارية، الكهرباء، الذرة.

إنها المقياس الوحيد «للتقدم» والهيمنة، ذلك لأن تقسيم المراحل جرى انطلاقاً من «امبراطوريات» من عائلات «مصر الفراعنة» الامبراطورية الرومانية سجينة حدودها أو قلاعها وجيوشها، خارج ذلك ليس هناك إلا برابرة.

وماذا لو اخترنا خاصية أخرى؟!

مثلاً، لكي لا نتحدث إلا عما ترك أثراً: الفن. عندئذ الأحداث الهرميات ستكون شيئاً آخراً. رسم حيوان لاسكو هو معاصر لخطوط ماتيس البيانية.

بناء تاج محل هل يستحق أن يغلفه كريستو؟

أين نضع رامايانا في الأحداث والهرميات مقارنة بملاحم طرزان، أو برومين المقيد لآشيل مقارنة بـ«سوف أذهب أبصق على قبرك لبوريس فيان؟!»

سمات التقدم سوف تتغير أيضاً، إذا قارنا الأخلاق والديانات، إن لدينا عنها آثار منقوشة.

هنا أيضاً أهم ثغرات تعليمنا، مفهوم زائف عن العلمانية، خالطاً العلاقات بين المؤسستين: الكنيسة والدولة، والذين فصلهما كان مكسباً عظيماً في بداية العصر، والعلاقات بين بعدي الإنسان: العقيدة والتي هي بحث عن الغايات القصوى للحياة والسياسة التي هي وضع في التنفيذ لوسائل انجاز الغايات الإنسانية.

هذا المفهوم الثاني حرم المدرسة من هذا التأمل في الغايات، بأن حذفت التعاليم الدينية وحيدة الجانب (هذا كان أمراً حسناً للنضال ضد الدوقمانطيقية في الدين المهيمن)، في اختلاط الأمور حذفت كل النصوص المقدسة من البهاقافاد جيتا وحتى أنبياء إسرائيل والقرآن والإنجيل.

لكن الأمر لا يتعلق بدمجها في برنامج مدرسي (حيث لا نجد

إلا قلة من المعلمين قادرين على أخذ مسافة من دينهم الخاص ـ أو إلحادهم ـ للمساعدة في هذا التأمل حول الغايات في الثقافات) وإنما أن نضع في متناول كل الراشدين، من كل الأعمار، وكل المستويات الثقافية وفي قاعات خاصة بهذا الغرض، هذه النصوص. هنا يمكن أن يتكون أولئك الذي يعلمون التأمل في الغايات، أو على الأقل يتكون مواطنون واعون بمشكلة معنى الحياة.

الفصل الثامن

كيف النجاة؟

2

2 ـ الفنون: التاريخ المقدس للإنسانية

المدخل إلى هذه المسألة، التي تجعل من الإنسان إنساناً، يمكن أيضاً أن يتحقق من خلال الأعمال الفنية، في كل لحظة تصدع تاريخي إمكانيات تنفتح أمام الإنسان. واحدة فقط انتصرت، هذا ما سجله التاريخ، الإمكانات الأخرى ليس لها شواهد إلا في الأعمال التي تعلن المستقبل، ليس فقط تلك الأعمال التي تخص العالم الواقع تحت الاستعمار، والتي لم يكن لها مكان، حتى وقت قريب، إلا في المتاحف، على اعتبار أنها بدائية، مثل الأقنعة الأفريقية أو البولينيزية وحتى الكوبية، أو الفنون الأمريك ـ هندية التي أثارت إعجاب دوهرير، والتي أحرقها إيفك ديقو دولاندا على أنها وثنية عندما تعلق الأمر بأشعار مثل «بو بول فوه»، أو كأصنام عندما تكون من حجارة أو أنها تصهر وتحول إلى سبائك عندما تكون من ذهب.

حتى في داخل أوروبا، الحواجز بين الأمم تظهر في المدارس، لا يسمح باحياء الأعمال التي تطرح مسألة: معنى الحياة. يجب

اختيار اللغة الروسية لكي تعيش مأساة «الممسوسين» لدوستوفسكي أو كرامازوف أو «الأحمق» السامي، عيسى العائد للحياة في عالم لا يطاق، ومثل دون كيشوت لسرفانتس، الفارس النبي الذي أعتقد أن المثالي أكثر حقيقة من الواقع. يجب اختيار اللغة الإنكليزية لتعيش مأساة «عصر النهضة» من خلال شكسبير، أو الألمانية لتعيش وليام مايستر لغوته أو أشعار هولدرلين.

حتى في الأدب الفرنسي، عدة كتب مدرسية، تعطي مكاناً أكبر لجان جينيت من رومان رولاند، بيرنانوس ومورياك.

قلة الذين يجرؤون على الصراع، أمام انحرافات مركز بوبورج، الأكثر شهرة وزواراً: الملك عارياً. كما فعل بشجاعة الرسام ماثيو أو الأستاذ فوماريلي منددين بأسواق الفن.

من يجرؤ على القول دون خشية التهميش، أن الإسطوانات ذات المئة وعشرين درجة صوتية، مكانها تاريخ «الضوضاء» وليس تاريخ الموسيقى؟

هل سيبقى القرن الواحد والعشرين، بما يكفي من أجل أن مؤرّخاً، في منأى عن الموضة والفكر الوحيد، والإرهاب الثقافي، يستطيع تقييم الثلث الأخير من القرن العشرين. من ناحية الثقافة، تلك التي التلفزيون والمعارض، جعلنا نعتقد أن «نيكي» لسانت فال نحتاً وأن برنارد هنري ليفي فيلسوف وأن كونينيق رسام!.

إنه عمل إجرامي، بحجة الحداثة، الشيوخ المتصابين يشوهون

في باريس، اللوفر، القصر الملكي، البونت نوف «بدعم من وزراء ضد الثقافة».

التكوين الجمالي الحقيقي للإنسان يجب أن يكون في المدرسة، منذ الطفولة، يتعلم الرسم أو الرقص، يجب توفير المكان الفسيح، بالنسبة للسنوات الأولى قدر توفر أمكنة القراءة والكتابة والحساب واستخدام العقل الآلي، من أجل فسح المجال في الذاكرة، وترك للروح الخلاقة مكاناً ما وراء الآلة والماكينات. هذه الآلة وهذه الماكينة يمكن أن تقوم أفضل منا بكل خطوات الذاكرة والتوليفات، ما عدا الفصل الخلاق: أن نحدد لكل أفعالنا غايات كلية.

لكن من حيث بنيته نفسها، التعليم لا يمكن أن يكون فقط في المدرسة، وليس فقط في بداية الحياة.

تطور العلوم والتقنيات، والعلاقات بين الشعوب وبين الأفراد، وعلى مستوى العالم، صارت سريعة جداً، لدرجة أن الذي عمره الآن ثمانون عاماً ولد في منتصف التاريخ الإنساني. لقد حدثت أشياء في هذا العصر أكثر مما حدث خلال 6000 سنة من التاريخ المكتوب. ولكن لا نقدم إلا مثلاً واحداً: طبيب كبير، وصل هذه السن، أمكنه أن يقول لي «لم أتعلم كطالب 3% ما استخدمه اليوم، عالم ذري في نفس السن اليوم معاصر لعلمه، وكمختص في المعلوماتية عمره خمسون سنة هو أيضاً معاصر لعلمه. دون الحديث عما أسماه طلاب عام 68 بحق، في يافطة علقت على مدخل السربون «كلية الآداب والعلوم اللاإنسانية».

المدرسة لا يمكنها أن تقتصر على بداية الحياة فقط، في مرحلة حيث الحاجات الإنسانية الحقة، يمكن إشباعها مقابل ثلاث ساعات عمل يومياً، فإن التعلم يمكنه أن يمتد ليشمل الحياة بأكملها: من أجل خلق شعراء في كل الفنون والاستجابة لحاجاتهم الإبداعية السامية.

التعلم، ابتداء من المهام العمالية في الصناعة، وحتى مهام الأطر والباحثين يجب أن يتم حيث المعرفة في تغير مستمر: في المصانع في مراكز الإدارة أو البحوث، في جبهات الإبداع المتجدد باستمرار.. في العمل الإنساني. المدرسة كما هي اليوم، هي مؤسسة عفى عليها الزمن، لقد ارتبطت بحاجات مرحلة من التاريخ، لكنها لم تعد تستجيب للمطالب الحالية. غضب التلاميذ من «الليسيه» والطلاب من الجامعات، كما يأس المعلمين سببه الأساس هو هذا، أي إصلاح للنظام لن يسمح لنا بأن نجعل منه أدوات تكوين المستقبل!

المدخل إلى الفعل الخلاق طريقه المتميز نجده في الفنون، عندما لا تكون ـ كما هي وقت انهيارها ـ لا انعكاساً للغوغائية الكريهة ولا تمرّداً سلبيّاً ضدها.

من المهم أن نذكر الفن بتوجهه الأساسي: خلق ممكنات جديدة من أجل تقدم وحدة الإنسان، إنه يتوقف عن كونه فنّاً عندما لا يعي هذه المهمة النبوئية، وهذا النداء إلى التعالي الإنساني في باطنه

الخلاق والتضامني. مثل شعراء مها بارتا، رسامي تاو الصينيين، يترجمون الحماس الصوفي بواسطة الرسم واللون، مثل روبليو مبدعاً الأيقونة الثلاثية، مثل بناء معبد بوروبودور ومسجد قرطبة أو كاتدرائية شارتر، مثل ڤان جوخ المصلوب بسبب الرسم، أو معلمو التجريد الحماسي أمثال مانسيو أو ماثيو.

من يعطينا في النحت حماس بروميت في «العبيد المقيدين» لميشل أنج أو التركيز على الذات للصاحي العظيم الحر بودا أو ماتورا؟!

هنا أيضاً خارج المدرسة، من الممكن، بفضل تقنيات إعادة الإنتاج الحالية، أن نضع في متناول الجميع، من أجل القضاء على سموم اللامعنى والعدم، الأعمال العظيمة في الرسم التي أبدعها العالم، دون تنافر ألوان أو نقوش، كل العوالم، باستخدام تقنيات تسمح بتحديد الموديل وتعيد إنتاجه بدقة.

مثل هذه الأعمال، التي تكلف ثمن وجبة، تحت العيون في كل الأيام تسمح للجميع بالتخلص من سموم تدفق الرعب «الأحداث الخاصة» وعنف هوليود على شاشاتنا الصغيرة. هذا النوع من المشاهد يدمر حسّنا النقدي، أمام، ليس الحلم، وإنما الكابوس الأمريكي، مع أوهام جشع دالاس أو رعب الديناصورات، أو المؤثرات الخاصة في «يوم الاستقلال» الفارغة من كل إنسانية.

3 ـ السياسة والغاية الإنسانية

هذا الكابوس، ليس فقط في قاع شاشاتنا، لكنه أيضاً في صميم حياتنا، وفي هذا المستوى أيضاً يجب مكافحته: السياسة عندئذ لن تكون إلا «مظهر» باطن الفنون والعقيدة.

ادعاء الهيمنة الدولية من الولايات المتحدة صار واضحاً جداً (من خلال تعاسة الحياة التي تدعي تصديرها وفرضها على العالم كله) لدرجة أنه صار يثير الغضب على مستوى عالمي. أوروبا نفسها، مشاركة مع ذلك في امتيازات الغرب، بدأت تصحو من غفلتها الطويلة والتي منعتها من إدراك أنها في طريقها إلى أن تكون تابعة إن لم تكن مستعمرة.

في قلب البلدان التابعة للولايات المتحدة، قادة الصهيونية، الذين هم ملهمو وسادة السياسة الأمريكية، لهم سلطة التلاعب بالرأي العام بواسطة سيطرتهم على وسائل الإعلام، السينما، المطابع، الراديو، التلفزيون، الصحافة. إنهم هكذا يتوصلون إلى إخفاء مؤقت، لانحرافات سياسة السيطرة الأمريكية المدمرة، والتي يحددون لها أهدافاً متتالية: العراق يدمر أولاً بالسلاح ثم بالحصار الذي يقتل في العراق أكثر مما يقتل السلاح، ليبيا، باختصار كل الذين رفضوا أوامر صندوق النقد الدولي القاتلة للشعوب.

* * *

الشياباس، في المكسيك، كانت أول ثورة، نموذج للإنفجارات

الاجتماعية التي سوف تؤدي إليها هذه السياسة المتمثلة في «الحرية الاقتصادية» والتي تسمح للأقوياء أن يسيطروا وأن يستغلوا الضعفاء، إرهاصاتها ظهرت في الانتفاضات التي أدت إليها سياسة صندوق النقد الدولي، المطالبة، من بين أمور أخرى، بالخوصصة، وبكل الاجراءات التي تسمح للولايات المتحدة، بغزو العالم والبلدان الخاضعة لهذه السيطرة وكذلك حفظ الإنفاق الاجتماعي من أجل دفع الديون وفوائدها.

المقاومة اتخذت حجماً خاصاً في المكسيك، عندما هذه السياسة الاستحواذية تدعمت باتفاقية تبادل حر «alena» بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، وأدت إلى إزالة كل الحواجز أمام التبادل التجاري والاستثمارات.

دعونا نذكر بعلاقات القوة الاقتصادية بين البلدان الثلاث أعضاء اتفاقية «الينا» هذه:

	الولايات المتحدة	كندا	المكسيك
تصدير (مليار دولار)	393,8	127,7	27,2
استيراد (مليار دولار)	494,8	116,7	38,4

منذ رفع الحواجز الجمركية، العجز التجاري المكسيكي مع الولايات المتحدة زاد كل سنة.

المادة 102 من الاتفاقية تنص بالنسبة للبلدان الثلاث على:

1 ـ إزالة كل العوائق في وجه التجارة، وتسهيل مرور السلع والخدمات.

2 ـ تشجيع شروط المنافسة النزيهة.

3 ـ زيادة محسوسة في فرض الاستثمار.

اتفاقية «الينا» هذه لا تقتصر على التبادل التجاري فقط، الاستثمار كان أحد أجزاء هذه الاتفاقية، مادة 102، «كل بلد يمنح لاستثمارات الأعضاء الآخرين معاملة، على الأقل متميزة، كتلك التي يعطيها لاستثماراته الخاصة فيما يتعلق بالمقر، التوسع، الإدارة، البيع، التملك والاستعدادات الأخرى بالنسبة للاستثمارات».

في المكسيك 60% من الرساميل الأجنبية تذهب إلى البورصة، ومن 40% الباقية جزء كبير يستعمل في شراء شركات الدولة المخوصصة.

ليس فقط هذا الرأسمال لم يخلق لا منتوجات جديدة ولا فرص عمل جديدة، وإنما أيضاً قلص من فرص العمل بسبب الخوصصة، والفوائد المتحصل عليها في البورصة بسهولة، وكذلك تبخر رؤوس الأموال كانت شاغل كل يوم. عندئذ عند حدوث أقل مشكلة أو في حالة انخفاض الفوائد، تسحب رؤوس الأموال هذه من البلاد تبعية الاقتصاد المكسيكي للرأسمال الأجنبي أدت إلى فقدان السيادة.

نظراً للاختلاف الكبير في «التطور» بين المكسيك من ناحية

والولايات المتحدة وكندا من ناحية أخرى، فإن الرساميل المستثمرة في الإنتاج تبحث عن امداداتها، فيما يتعلق بقطع الغيار والمعدات، عند الشركات المتطورة، تقنياً، من هنا إفلاس الشركات المكسيكية وضياع فرص العمل المؤهلة.

فيما يتعلق بالزراعة، إعداد المكسيك لدخول الاتفاقية جرى بأن غيرت إمكانيات نقل ملكية الأرض والتنظيم والمدونة في الدستور. وبحجة الإنتاجية، في منطق الليبرالية الجديدة، صار على الفلاحين مواجهة الملاك الكبار للأراضي والشركات المتعددة الجنسية في الصناعات الغذائية، في نهاية المطاف، وكآخر ملجأ ضد الفقر المدقع انتهى الفلاحون الصغار إلى وجوب بيع أراضيهم، وفقدوا بذلك وسيلة عيشهم الوحيدة.

انتفاضة جيش زاباتيست للتحرير الوطني، نتجت عن هذه الوضعية.

اتفاقية «الينا» في البند «704» تمنع دعم الإنتاج الزراعي، وهذا جعل المنتجين المتوسطين المكسيك بدون وسيلة لمنافسة زراعة الولايات المتحدة وكندا.

«هذا القانون الجديد يمنع كل العمال المكسيك من الإضراب من أجل زيادة الأجور، منذئذ الاضرابات المتعلقة بانتهاك العقود وحدها صار مسموحاً بها، المكسيك صارت خاضعة تماماً لمنظمة «الينا» لقد صرنا نشهد غلق مئات المشاريع المكسيكية الصغيرة، لقد

قيل لنا أن أربابها لم يعد في استطاعتهم منافسة الإنتاج الأجنبي، وإننا إذا أردنا مساعدة أرباب العمل على إبقاء مشاريعهم مفتوحة، فإننا يستوجب علينا «التعاون». تهديد غلق المصانع استخدام لفرض تنازل وراء تنازل من جانب العمال».

من ناحية أخرى، طبقاً لاتفاقية «الينا» جرت سلسلة من خوصصة الشركات المؤممة ومؤسسات الخدمات العامة كما ظهرت أيضاً كثرة من الاتفاقات الإنتاجية بين الحكومة وأرباب العمل والنقابات الرسمية.

اتفاقات التعاون هذه، المتعلقة ليس فقط بالقطاع العام والخاص الإنتاجي، وإنما أيضاً قطاع الصحة والتعليم. في المدارس بسبب برامج «التعاون» عدد طلاب الفصل الواحد زاد كثيراً، كذلك الحال بالنسبة للأطباء والممرضين في نظام الصحة الوطني، والذين مهام عملهم زادت تقريباً الضعف. نوعية الخدمات الصحية انهارت.

«أحد قادة نقابات العمل المكسيكية لصناعة النسيج، خطاب في مؤتمر العمل الدولي ـ سان فرانسيسكو 13/ 11/ 1994.

المنافسة بين بلدان غير متكافئة تنتهي بأن تدمر الأضعف.

إنه منسجم مع الأديولوجيا الليبرالية الجديدة، إن الأربعة والعشرين ملياردير مكسيكي، والذين رأسمالهم يزيد عن المليار دولار، لكل منهم، هم وحدهم المستفيدون، في المكسيك، من اتفاقية «الينا».

هذه التجربة الأولى مما ينتج عن إدخال التبادل «الحر» بين بلدان قوية اقتصادياً وبلدان ضعيفة بسبب تبعيتها، تعطي صورة عما سوف يحدث على مستوى العالم، إذا القادة الأمريكان حققوا «عولمتهم الإمبيريالية».

إنها أيضاً تدلنا على طريق التحرير: اتحاد كل قوى العمل والروح ضد الاضطهاد.

«مجموعة من الهنود، امتشقوا السلاح، في شياباس 1 يناير 1994، تحت اسم جيش زاباتيست للتحرير. زاباتا كان اسم زعيم أول انتفاضة هندية وفلاحية عام 1911، والتي صلابتها أعطت وجهاً لآمال كل المضطهدين».

الحركة حصلت على دعم قوي من ايفك شياباس (شياباس التي كان أول ايفك فيها بعد الغزو الأسباني هو: بارتالوم دولاس كازاز المدافع عن الهنود).

ايفك شيباس هذا، صمويل رويز، وصل إلى شياباس عام 1965، في عام 1968 شارك في مؤتمر رجال الدين في أمريكا اللاتينية، والذي قاد إلى ولادة لاهوت التحرير. عام 1975 نشر «لاهوت انجيلي للتحرير» والذي يقدم عيسى كشاعر ثوري، وأنشأ في منطقة كنيسته 2600 جماعة قاعدية.

موقف هذا المسالم في صالح الزاباتيين، جعل الحكومة المكسيكية وكذلك حكومة الولايات المتحدة تتهمه بأنه «يحرض

الهنود» والبابا جان بول الثاني آصدر له أمراً بالاستقالة. لكن أمام حجم الحركة، اضطرت الحكومة المكسيكية إلى الاستنجاد به كوسيط، هكذا بقي في مكانه، وقد شرح في خطاب له عام أسباب الانتفاضة فقال:

«الحقيقة أن السكان المحليين ـ الهنود ـ سئموا وعود الحكومة واعتبروا أنه لا يوجد مخرج آخر غير حمل السلاح. . لقد دفعوا إلى ما وراء الصبر» 10 يناير 1994.

نحن نلح على حالة المكسيك لثلاثة أسباب:

1 ـ إن وضعها الحالي لا يمكن فهمه خارج الإطار التاريخي اللاتيني الأمريكي والاستعمار المتزايد للمنطقة من قبل الولايات المتحدة. إنها إذن ترسم المسار النموذجي لتاريخ بلدان أمريكا اللاتينية.

2 ـ الأزمة الحالية هي العرض الأول، الذي له حقاً معنى، لانهيار النموذج الليبرالي الجديد القائم على «وحدانية السوق»، بسبب تناقضاته الداخلية، وبسبب المعارضة المتعاظمة التي يثيرها بين الناس وحيث يفرض نفسه (ثورة شياباس هي نموذج ما سوف يحدث في عالم المظلومين آجلاً أم عاجلاً).

3 ـ اتفاقية الينا (أو نافتا في لغة الأمريكان) المؤسسة للسوق الحر، بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، تكشف عن نفس المنطق الذي يلهم في أوروبا اتفاقية ماستريخت، وبشكل عام

المنطق التجاري والمالي الذي تريد الولايات المتحدة فرضه على العالم.

منذئذ الحركة النموذجية لشياباس ضد الهيمنة الأمريكية اتخذت أبعاداً أخرى.

عندما، لأسباب انتخابية قذرة، أراد كلينتون مزاحمة الجمهوريين على زبائنهم في الانتخابات، بأن ينتزع منهم المضادين للثورة الكوبية الأقوياء في فلوريدا، قرر تقوية الحصار حول كوبا، بأن قبل توقيع القوانين المصوت عليها من قبل الجمهوريين، خاصة قانون «هيلمز بورتون» والذي يعاقب الشركات الأجنبية التي تتعامل مع كوبا، وكذلك قانون «داماتو ـ كنيدي» الذي يعاقب الشركات الأجنبية التي تستثمر في ليبيا وإيران. مما آثار غضب، ليس فقط أول الضحايا الشعبيين لتدخله في المكسيك، ولكن أيضاً شركات متعددة الجنسية كبيرة وأجنبية، والتي استثمرت في كوبا وغيرها في ليبيا وإيران.

مرة أخرى صارت هكذا واضحة خدعة «التعدد الحزبي» في الولايات المتحدة، حيث في الواقع يهيمن وبشكل دائم «حزب واحد»، حزب النقود. ودخول الملياردير روس بيرو إلى المسرح الانتخابي أكد هذه الخدعة. قادة الحزب الواحد، حزب النقود، سواء كانوا جمهوريين أم ديمقراطيين، يشتركون في أن همهم الأساسي أن يفرضوا على العالم كله هيمنتهم من أجل فتح أسواق العالم أمام شركاتهم.

إن قانون «هلمز بورتون» جرى التصويت عليه في الكونغرس بمبادرة جمهورية في 3 يناير 1996، وتم توقيعه من كلينتون في 12 مارس من أجل «إحداث عقوبات دولية ضد الحكومة الكوبية حكومة فيدل كاسترو، وتشجيع مرحلة انتقالية نحو انتخابات ديمقراطية لحكومة كوبا». أن يصوت عليه الجمهوريون وأن يوقعه رئيس ديمقراطي هو أمر ذو معنى.

الضحية الأولى المحددة تماماً لأنها قبلت هيمنة «الينا» كانت المكسيك. مجموعة الشركات المكسيكية (دوموس) المتخصصة في الاتصالات، استثمرت في كوبا 700 مليون دولار (3 مليار ونصف فرانك)، مسؤوليها الخمسة وعائلاتهم، بما في ذلك الأطفال، منعوا من دخول الولايات المتحدة منذ بداية تطبيق قانون هيلمز بورتون في 24 أغسطس 1994!.

هكذا قانون أمريكي صارت له قوة القانون خارج الولايات المتحدة التي صارت تشرِّع للعالم! تدخلها لم يقف عند هذا الحد، نفس يوم 24 أغسطس، وبتطبيق نفس القانون الأمريكي، الشركة الكندية «شيريت الدولية» واجهت نفس الإجراء: لقد استلمت إنذاراً مدته 45 يوماً لوضع نهاية لاستغلال شركاتها المنجمية في كوبا (خاصة استخراج ومعالجة النيكل)، إذا لم تستجب خلال هذه المدة، فإن البوليس والجمارك في الحدود سوف يمنعان قياداتها من دخول الولايات المتحدة (اثنان من قياداتها بريطانيان وعائلاتهما).

مثل هذا الإجراء أثار استنكار الحكومة الكندية، لأن كندا أول شريك تجاري لكوبا، حجم التبادل السنوي يقدر بـ500 مليون دولار.

اتفاقية الينا ـ نافتا ـ حول التبادل الحر بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك. كشفت هكذا عن معناها: إنها أول تجربة للهيمنة الأمريكية على حساب شركائها التابعين.

حكومة المكسيك، مدعومة من القطاع الخاص في الاقتصاد المكسيكي، أعلنت أن هذه الاجراءات «غير مقبولة» ومناقضة لمبدأ القانون الدولي. الأحزاب الرئيسية المكسيكية الأربعة اقترحت التصويت على «قانون مضاد» لهذا المساس بالسيادة الوطنية، «يجب علينا، قال قادتها، تطبيق قانون الثأر، عين بعين وسن بسن، مثلاً منع الشركات الوطنية من التنازل أمام ضغط أي بلد آخر، وتبني نظام مساعدة لصالح تلك التي ترفض الخضوع لقوانين أجنبية».

حتى حكومة زيديلو، والتي مع ذلك عادة ما تكون طيعة أمام مطالب واشنطون، بدأت مشاورات مع الحكومة الكندية لتحقيق جبهة ضد هذا المساس بالسيادة، وأبلغت مجلس «الينا» «الاتفاق الثلاثي للتبادل الحر الشمال أمريكي» والذي مواده 1015، 1603 تنص على أنه اتفاق بحقوق متساوية(!) حول الاستثمار والتداول الحر والانتقال الحر لرجال الأعمال في البلدان الأعضاء. هذه المادة منتهكة من جانب واحد، الولايات المتحدة، بسبب تطبيق قانون هيلمز بورتون.

الحكومة المكسيكية قررت أيضاً إخطار «منظمة البلدان الأمريكية»، وحتى «الاتحاد الأوروبي» لتقوية جبهة مشتركة ضد المزاعم الأمريكية منظمة البلدان الأمريكية عارضت مرات عدة تقوية الحصار على كوبا.

أما بالنسبة لأوروبا، فإنّها أيضاً معنية بهذه الصفاقة التي بها القادة الأمريكان يريدون فرض قوانينهم على كل «حلفائهم» والذين يريدون إحالتهم إلى مجرد أتباع، كما يعلن هذا النصوص الإضافية في اتفاقية ماستريخت «أوروبا لا تكون إلا قاعدة أوروبية لحلف الأطلسي».

«مثل هذا الإجراء غير مقبول ونحن لن نقبله» هكذا أعلن الناطق باسم المفوضية الأوروبية بعد منع واشنطون خمسة من قيادات المجموعة المكسيكية دوموس، من دخول الولايات المتحدة. على مستوى القانون، أضاف الناطق، إرادة تطبيق القانون الأمريكي خارج الأراضي الأمريكية، ومن جانب واحد، فإن الأمريكي يظهر لأي درجة قانون هيلمز بورتون شاذ. الولايات المتحدة قررت، دون استشارة أحد، أن قانونها الذي صوتت عليه يطبق على مواطنين غير أمريكان، ويخص أموراً خارج أراضيها، وكل هذا في اللحظة التي فيها الأغلبية العظمى من البلدان تبحث من خلال منظمة التجارة العالمية، إقامة قواعد متعددة الأطراف لتنظيم التجارة الدولية. لهذا فإن البلدان الأوروبية ترفض جماعياً هذا القانون (هيلمز بورتون) بما في ذلك بريطانيا».

منذ أن أعلنت العقوبات ضد الشركة المكسيكية، الناطق باسم الكي دورسي ـ الخارجية الفرنسية ـ أعلن من جانبه «في إطار تطبيق القانون المسمى هيلمز بورتون، أعلنت الولايات المتحدة نيتها منع دخول أراضيها قادة شركة مكسيكية تستثمر في كوبا، خطوة كهذه مناقضة لقواعد التجارة الدولية لا يمكن قبولها. فرنسا تأسف لهذا التطبيق الجديد لتشريع تعارضه هي وشركاؤها الأوروبيون بشدة. الحكومة الفرنسية على اتصال مع السلطات المكسيكية حول هذا الموضوع».

سوف نستطيع التحقق قريباً من أن هذه الصّرامة في مثل هذه البيانات سوف تؤكدها الأفعال أم لا، ذلك لأن شركة أوروبية مقصودة أيضاً بهذا القانون. الشركة الإيطالية ستيت، التي اشترت من دوموس جزءاً من أسهم شركتها المختصة بالاتصالات في كوبا، تقع تحت طائلة المادة 3 من القانون الذي يسمح للمواطنين الأمريكان مقاضاة الشركات الأجنبية التي تستخدم الأملاك المؤممة من قبل الثورة الكوبية. هذا النص يدخل حيز التنفيذ في 1 فبراير 1997.

(لنتخيل أن فرنسا، إن كانت تستطيع أن، تطبق مثل هذه العقوبات على الشركات الأمريكية التي في الجزائر وضعت يدها على الشركات الفرنسية المؤممة عند استقلال الجزائر).

هل ستلحق أوروبا بطلب انعقاد «منظمة التجارة العالمية» والتي تنص من حيث المبدأ: على تبادل حر وكامل مطبقاً على كل

الأعضاء بحقوق متساوية. وحتى دعوة محكمة العدل الدولية؟ هذا سيكون منطقياً، لأن الخمسة عشر وضعوا في الدراسة مشروع مقاطعة قانون «هيلمز بورتون» وداماتو - كنيدي، الذي يطلب منهم تشديد المقاطعة ضد ليبيا وإيران.

ليس من المستبعد أن بعض الشركاء لا يستمرون في نيتهم مقاومة الهيمنة الأمريكية، بعضهم مثل المكسيك، لأن علاقة القوة في مواجهة الولايات المتحدة ليست أبداً في صالحها، الآخرون مثل كندا لأن تبادلها التجاري مع الولايات المتحدة يمثل الأساس في تجارتها الخارجية، ولأنها تواجه ضغوطاً، مثل زيارة الممثل الخاص للبيت الأبيض في سبتمبر 1996، والذي جدد الإنذار. وأما أخيراً فلأنَّ الشركاء الأوروبيين يتراجعون مثل شل التي تخلت عن مشاريعها النفطية في إيران، ومثل اليابان التي تخلت أيضاً(*).

(*) قانون هيلمز بورتون، وقانون داماتو كنيدي، موجهان في الحقيقة ضد أوروبا واليابان، أكثر منهما ضد البلدان المعنية صراحة، منطق الهيمنة الأمريكية أدى بها إلى مقاطعة البلدان الرافضة لهذه الهيمنة، من أجل تطويعها، لكن منطق هذه المقاطعة يقود إلى معاقبة الشركات الأمريكية، والتي بتركها هذه الأسواق فإنها تترك المجال حراً للشركات الأوروبية واليابانية، عندئذ منطق الهيمنة يقتضي معاقبة ليس فقط البلدان المعنية بالمقاطعة وإنما أيضاً الشركات التي تستفيد من خروج الشركات الأمريكية للحلول محلها. والتي بهذا يمكن أن تلغى نتائج المقاطعة المطلوبة.

ردود فعل البلدان الأوروبية ضد القانونين ليس دافعها إنساني وليس حرصاً على مصالح البلدان المعنية بالمقاطعة اسماً، ولا على سيادتها وفق القانون الدولي. وإنما لأنهما يعاقبان الشركات الأوروبية، الهيمنة الأمريكية وصلت المصالح الأوروبية. =

مع ذلك ردود الفعل هذه على مستوى العالم، ضد الأوامر الأمريكية هي علامات تعلن الوعي بأن السياسة الأمريكية تمثل خطراً عظيماً على استقلال كل الشعوب، وعلامات توسع متزايد للشعور الضد أمريكي، ضد العدو المشترك.

إن حل مشاكلنا، سواء تعلق الأمر بالجوع في الجنوب، أو البطالة والإقصاء الذي يمس أيضاً كل أوروبا، يتوقف على موقفنا وقدرتنا على توحيد كل ضحايا الهيمنة الأمريكية، بهدف عزل قادتها، ومن خلال الاتحاد في باندونج جديد بكل شعوب الجنوب الرافضة للهيمنة الأمريكية الاستعمارية على أتباعها الحاليين: أوروبا، التي استفادت كثيراً من هيمنتها الاستعمارية ترى نفسها اليوم في طريقها لأن تصير بدورها تحت الاستعمار.

البرنامج العيني لهذا التحرر المزدوج يمكنه، في نظري، أن يظهر في إعلانين متداخلين:

بالنسبة للجنوب: من أجل باندونج جديد.

بالنسبة لأوروبا: من أجل وحدة منسجمة للعالم.

= هذان القانونان الصادران عن أكبر القوى الرأسمالية، وحامية «السوق الحر» يظهران جلياً مدى احترام مبدأ المنافسة التي يحرق لها قساوسة الليبرالية الجديدة البخور. ويبرهنان على أن المنافسة الحرة مطلوبة فقط عندما تكون أساساً في صالح الأقوياء.. حتى بين الأقوياء. **المترجم**.

الفصل التاسع

إعلان عالمي للواجبات

المبادىء التي تقود هذا التحرر من «وحدانية السوق» لا يمكنها أن تكون مبادىء «إعلان حقوق الإنسان»، والتي كان لها الفضل، خلال الثورة الفرنسية عام 1789، في وضع نهاية لهرميات وامتيازات الدم ـ الاقطاع ـ لكنها صنعت هذا بأن أسست هرميات أخرى وامتيازات أخرى: هرميات وامتيازات النقود.

لقد صنعت هذا بأن سجنت الإنسان في «أنانيته» وفي «ملكيته»، بأن ألغت فقط «العهد القديم» القائم على النبالة والملكية الوراثية، لكي تترك للمالكين كل الحرية في استعباد واستغلال جماهير المعدمين.

الأمر اليوم يتعلق بشيء آخر غير هذا النفي للماضي القريب: الصعود إلى ما بعد كل أنظمة الهيمنة ومزاعم الخصوصية الغربية للعثور على التيار الأساسي والكلي لإنسانية الإنسان، انطلاقاً من

«إعلان الواجبات» مستنداً إلى مسؤولية كل إنسان، وأي إنسان، ويذكر بما هو وراء الطبيعة حقاً إنسان.

الديباجة:

إعلان الواجبات ينتج عن التمييز بين الإنسان والموجودات الحية الأخرى: الاختلاف الأساسي بين التطور البيولوجي والتاريخ هو أن الإنسان لم يصنع الأول، بينما الثاني من صنعه.

الإنسان إذن ليس طبيعة فقط، إنه أيضاً تاريخ، إنه مسكون، سواء وعى هذا أم لا، بكل الإبداعات الثقافية الإنسانية السابقة، وهو مستفيد بقدر ما هو مسؤول عن هذا الأرث. هذا يتضمن واجب المشاركة، وبشكل خلاق، في إثرائه من أجل استمرارية أنسنة الإنسان.

من هذا الواجب الأساس تتولد كل الواجبات الأخرى.

* * *

1 ـ أنسنة الإنسان، باعتبارها عمل ثقافات كل العائلة البشرية على الكرة الأرضية، فإن كل واجباتنا تنتظم وفق هذه الكلية: كل فعل، كل فكر لا يمكنه الحصول على قيمة إنسانية، إلا إذا اتجه إلى إعطاء كل طفل، كل امرأة، كل رجل، مهما كانت وأياً كانت ثقافته الأصلية، وعقيدته، أو مسقط رأسه، الوسائل

الاقتصادية والسياسية والثقافية أو الروحية من أجل تطوير كل الإمكانات الخلاقة التي يحملها في ذاته.

أي تنظيم اجتماعي، يريد نفسه إنسانياً، لا يمكن أن يكون له هدف آخر غير هذا.

وهكذا يلغى، على أنه نفي قَبَلي للوحدة الإنسانية، ادعاء أي كان بأنه «شعب مختار»[1].

2 ـ كل سلطان في يد إنسان، بسبب وصوله إلى منصب قيادي أو تنظيمي في الجماعة التي هو عضو فيها: كنيسة، أمة، شركة إنتاج أو خدمات، مسؤولية مهنية أو سياسية أو أي خدمة أخرى في الجماعة، يتطلب هذا من شاغله واجبات إضافية. خاصة واجب الحرص، عند ممارسة سلطانه في جماعته، على أن الفعل الخارجي لهذه الجماعة لا يضر أي جماعة أخرى، حتى على المستوى العالمي.

مثلاً: إذا كانت في يده سلطة دينية، يجب ألا تحمل هذه أي درجة إقصاء أو اضطهاد أي آخر، سواء كان الآخر ديناً أو لا ديناً.

نفس الشيء السلطان الذي لدى إنسان في أمة، في أي مستوى

---

(1) ادعاء أي شعب بأنه «شعب مختار» هو نفي قَبَلي ـ من قبيلة ـ للوحدة الإنسانية، أن يجعل من هذا الشعب مجرد قبيلة تنفي الوحدة الإنسانية، وينتج عن هذا كل مضار «القبيلة» كنفي الوحدة دون إلغاء الوحدة الإنسانية.

كان، خاصة مستوى السلطة العليا، يفرض عليه واجب الحرص على أن المصالح الخاصة بهذه الأمة لا يجب أن تتضمن أي امتياز لصالحها ولا أي سيطرة على شعب آخر.

3 ـ الملكية تتضمن واجب جعلها تثمر في خدمة الإنسانية كلها لأن هذه الثروة هي عمل العلم الإنساني وتقنية الإنسان، إنها تخص إذن، ومنذ آلاف السنين، كل الأجيال التي خلقت أنواع الزراعة الجديدة، وتقنيات الصناعة أو التبادل، كما العلوم والفنون التي صنعتها.

ذلك الذي، في وقت ما، يملكها، بشكل خاص أو جماعي، هو المدير المسؤول عنها. إذا لم ينجز واجباته، فإن على الجماعة التي هو عضو فيها سحبها منه، سحب هذه المهمة، وإن تعهد بها إلى آخر: شخص أو جماعة، واعياً بالتزاماته.

4 ـ الواجبات نحو الطبيعة: هي حالة خاصة من الواجبات نحو الملكية، ليس للأفراد ولا للجماعات حق أو امتياز إساءة استغلالها أو تشويهها وتدمير خيراتها من أجل متعته الشخصية أو الخاصة، الطبيعة كما نرثها اليوم، كانت، في معظم جوانبها، قد تأنسنت بفضل عمل وجهد عدة أجيال، إنها لا يمكن اعتبارها لا كمخزن لا محدود من الثروة لإشباع شهيتنا الحالية، وليست مرمى نفاياتنا: إنها تخص ليس فقط مليارات

الموتى الذين أخصبوها، وإنما أيضاً مليارات أولئك الذين لم يولدوا بعد. ونحن علينا واجب نقلها إليهم أكثر خصوبة وأجمل مما استلمناها نحن، دون تدمير المستقبل.

5 ـ الحرية تعني ألا نكون أسرى مصالحنا الخاصة، أو أسرى مستهدفات خاصة بالجماعة التي نحن أعضاؤها، إنها العمل بهدف ارتقاء كل أعضاء الجماعة الإنسانية.

الحرية ليست صفة أو خاصية في الفرد (الفرد في اللغة اليونانية يعني أتوم أي ذرة، أي جزء منفصل عن كل الآخرين بواسطة فراغ، في المجتمعات الغربية، الفرد هو مركز ومقياس كل الأشياء ومنفصل عن الآخرين بواسطة الحواجز التي تمثلها حقوقه) بالعكس إنها تعني أن الشخص واعٍ بواجباته: أن يكون تضامنياً مسؤولاً عن مصير الآخرين.

6 ـ الأمن ومقاومة كل ظلم: والذي لا يصدر إلا عن أفراد وجماعات ترفض الواجبات الإنسانية. يترتب على هذا التضامن بين كل الذين يعون واجباتهم هذه. ليس ثمة قوة فيزيقية (التاريخ أعطى المثل بانحلال كل الامبراطوريات) تستطيع الانتصار طويلاً على جماعة متحدة بوعي مشترك بهذه الواجبات الإنسانية الكلية.

7 ـ كل رجل وكل امرأة، عنده أو عندها، قدر من السلطان

الاقتصادي، السياسي، الثقافي أو الروحي، من واجبه التساؤل حول الغاية، أعني معنى وهدف فعله: هل يخدم ازدهار الإنسان وكل إنسان؟ أم أنه يقود إلى إفساده وتدميره؟ اختيار الأفعال يتأسس على اختيار الغاية الإنسانية حقاً:

ازدهار كل إنسان.

سواء تعلق الأمر:

- بشركات الإنتاج: «لا نشير إلا إلى تلك التي تحقق أرباحاً طائلة: صناعة الأسلحة، والمخدرات».

- أو بالخدمات التي تتمتع بسلطة كبيرة في التحكم في العقول (مثل الإعلام ووسائله، الدعاية، التعليم، الأديان، الفنون).

8 ـ حقوق الإنسان تترتب على واجباته، هذه الحقوق تتلخص في حق واحد: لا أحد يجب أن يواجه عقبات أو حدوداً (سواء تعلق الأمر بعقبات أو تميز اقتصادي، سياسي، ثقافي أو روحي) تعيق أو تحد من إنجاز واجباته نحو الأمة الإنسانية، نحو الجماعة الإنسانية.

9 ـ مجموع هذه «الواجبات» يرجع إلى واجب واحد، والذي أعلنته أقدم الروحانيات في تاريخنا، عندما وعى الإنسان تماماً إنسانيته، أعني خصوصيته بالنسبة لكل الأنواع الأخرى، إن الطبيعة لا تستبعد الصراع حتى الموت بين الأنواع المتمايزة

ولا تستبعد تدمير ملايين الخلايا، كما أنها لا تستطيع أن تقدم لنا قوانين الفعل الإنساني الحق. الواجب الوحيد الذي عنه تصدر كل الواجبات، حصل آنذاك على صياغته الأولى الواعية والخالدة إنسانياً «أن تكون واحداً مع الكل»(*).

(*) الحقوق تفصل الناس عن بعضهم، تفرد المجتمع، تجزيء الجماعة. إنها هكذا مصدر صراع ونزاع وأنانية قاتلة. رغم أنها في نفس الوقت مكسب إنساني لا يمكن الاستهانة به ولا بالتضحيات التي تطلبتها.

حق الحرية عند فرد قد يعني العبودية للآخر، حق الملكية عند فرد قد يعني الفقر للآخرين. وهكذا من يجعل «الحرية تظلم والقانون يعدل» وهذا منفذ ومبرر الدكتاتورية التي أحياناً بحجة إقامة العدالة تصادر «حق الحرية» لكنها تصادر العدالة أيضاً. لا حرية بدون عدالة. كما لا عدالة بدون حرية.

عندئذ، ومن خلال المآسي التي نتجت عن هذه الوضعية، استلزم الأمر التفكير في خلق توازن يمنع الحقوق أن تكون عامل صراع وتفرد وأنانية، دون إنكارها. هذا التوازن يقوم في الإقرار بأن الحقوق ليست كذلك إلا في مقابل واجبات، أو أنها تتأسس على واجبات تتلخص جميعها في واجب واحد: واجب الفرد نحو الجماعة التي له عليها حقوقاً مطالبة بكفالتها، هذا الواجب هو ذاته مبرر الحقوق. أي هو الذي جعل للفرد على الجماعة حقوقاً. تجاهل هذا هو الذي جعل الحقوق عنصر تفرد وأنانية وصراع، لأنها تصير حقوقاً بدون واجبات، مما يعدمها الشرعية.

عندما تتأسس الحقوق على الواجبات، فإنها تتوقف عن كونها عامل انشقاق وصراع.

إذا كانت الحقوق تفصل، تفرد، تجزيء، فإن الواجبات تجمع توحد. من هذا ينتج التوازن الذي يصنع الانسجام الاجتماعي ويحفظ للفرد هويته دون أن ينفرط عقد الجماعة. **المترجم**.

الفصل العاشر

برنامج عيني

1 ـ بالنسبة للعالم الثالث: باندونج جديد

هذا هو البديل الذي نقترحه من أجل أن يشهد القرن الواحد والعشرين نهاية ما قبل التاريخ الحيواني للإنسان، حيث في عالم متصدع، ثروة قلة قليلة من الناس تعني التبعية والاستغلال أو الموت بالنسبة للجزء الأكبر من الإنسانية:

أ ـ ولادة الوحدة الإنسانية لا يمكن أن تكون، كما كانت قطيعتها، بواسطة العنف والسلاح، وإنما بواسطة كل القوى الإنسانية حقاً: في الاقتصاد والثقافة والعقيدة.

ب ـ ضعف الشعوب المظلومة حالياً، هو في جانب كبير يرجع إلى انقسامها، بسبب الحروب المتتالية المدبرة من سادة العالم الحاليين وبسبب تناقضاتها، المهمة الأولى إذن وضع حد بواسطة المفاوضات السلمية لكل الصراعات التي تمثل لعبة الظالمين.

ج ـ نحن نرفض جماعياً تسديد الديون المزعومة لصندوق النقد الدولي، وهذا لثلاثة أسباب:

1 ـ من هو المدين؟

الغرب عليه دين رهيب نحو العالم الثالث.

من سدد للبيرو مقابل 185 ألف كيلوغرام من الذهب و16 مليون كيلوغرام من الفضة، والتي الخزانة الرسمية في سيفيل تعترف بالاستحواذ عليها ونقلها من عام 1503 إلى 1660. وبشكل عام من يسدد للهنود الأمريكان مقابل الاستيلاء على كل القارة؟

من يعوض الهند القديمة، المصدرة عالمياً للنسيج، عن ملايين أطنان القطن المنتزعة من الفلاحين، بأسعار زهيدة، وعن تدمير حرفة النساجين الهنود لصالح الشركات الكبرى في لانكشاير؟

من يعيد لأفريقيا ملايين الشباب الأقوياء الذين نقلوا كعبيد إلى أمريكا من قبل تجار العبيد الغربيين خلال ثلاثة قرون؟

2 ـ ما هو سبب هذه المديونية؟

البلدان الاستعمارية القديمة دمرت الاقتصاديات المحلية، خاصة عندما ضحت بالزراعة الغذائية لصالح الزراعة الواحدية، واحتكار الإنتاج الذي جعل الاقتصاديات المحلية ملحقة باقتصاديات المركز الاستعماري، ولصالح هذا المركز وحده. مثل هذه الاقتصاديات لا تستطيع كفالة استقلال هذه البلدان، ولا الاكتفاء الذاتي الغذائي، ولا

اليد العاملة في الصناعة تتناسب مع حاجات البلاد. التبعية إذن استمرت والاقتراض صار لا يمكن تفاديه.

3 ـ **هذه الديون تم تسديدها منذ وقت طويل**، من خلال الفوائد الربوية التي دفعت للقارضين الأجانب (مثلاً الجزائر، مع 26 مليار ديون تدفع 6 مليار فوائد كل عام) أي تنمية تكون هكذا مستحيلة وهنا يكمن المصدر الأساسي للسلفية الدينية.

المبلغ الذي دفعناه، على صورة فوائد، عن الديون، تجاوز منذ وقت طويل المبلغ الأصلي، أما المساعدات المزعومة فهي أقل من دفعات تسديد هذا الدين.

نحن نرفض تسديد هذا الدين «الزائف» لصندوق النقد الدولي والفوائد الربوية التي ترتبط به.

نحن نرفض أيضاً المساعدات التافهة والمستهدفة إخفاء هذا الظلم المستمر منذ سنوات طويلة.

نحن نؤسس، مع إلغاء الديون وفوائدها، صندوق تضامن والذي يعوض بشكل كبير عن المساعدات المزعومة من مستغلينا.

د ـ إننا نعارض كل مقاطعة مفروضة عسفاً من قبل سادة العالم المؤقتين على البلدان الرافضة هيمنتهم.

بطريقة عامة لن نحسب لها أي حساب، ونتاجر بحرية مع إخواننا الذين يتكبدون هذه المقاطعة.

هـ ـ نحن نقرر إقامة «سوق مشترك» بين شعوبنا، وأن نضاعف التبادل جنوب ـ جنوب، بين بلداننا التي تحوز على 80% من الموارد الطبيعية في العالم.

نحن نقوم بهذا التبادل على قاعدة «المقايضة» لكي لا نستخدم عملات الشمال، خاصة الدولار، وأن نحرص على وضع نهاية للمضاربات تدريجياً في انتظار أن نصنع عملة مشتركة.

و ـ وهذا يعني مقاطعة منظمة للولايات المتحدة وأتباعها خاصة إسرائيل، مرتزقة الغرب ضد ثقافاتنا وضد السلام. إننا نريد وضع حد نهائي للهيمنة الاقتصادية وللعدوان الثقافي إننا نناضل أيضاً ضد المضادين للثقافة، ضد الإنتاج الهوليودي وأدواته وكل المظاهر المعنوية والمادية لانحطاطه.

ز ـ هذا يتضمن على المستوى السياسي الإنسحاب الجماعي من كل المؤسسات المزعومة عالمية: الأمم المتحدة، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي منظمة التجارة العالمية وفروعها، والتي صارت أداة سيطرة طرف واحد وغطاء لعدوانه العسكري والاقتصادي والثقافي، وشريكة في هيمنة امبيريالية على العالم، وشريكة مفهوم اختزالي للإنسان، المنظور إليه فقط كمستهلك ومنتج تحركه فقط مصالحه، ومتخلية عن منح الإنسان معنى آخر لحياته غير العمل كعبد من أجل المزيد من الاستهلاك، إذا لم يكن عاطلاً عن العمل أو مستبعداً.

ح ـ التهديد أو العدوان ضد أي واحد منا سوف نقاتله بكل الوسائل ومن كل جماعتنا العالمية.

ط ـ هذه الجماعة العالمية تهدف إلى خلق عالم ذي وجه إنساني لا تحمل أي استبعاد لا ديني ولا سياسي. لأن هدفها هو خلق وحدة ليست امبيريالية، وإنما وحدة انسجامية لإنسانية حيث كل شعب، وكل جماعة، تقدم الثروات الخاصة بأرضها وثقافتها وعقيدتها.

إنها إذن مفتوحة للدول الرسمية التي تقاسمنا هدفنا الإنساني، ومفتوحة للأقليات المضطهدة، شريطة أن تحقق في كل بلد وحدتها على قاعدة مبادئنا المشتركة.

باندونج الأولى كان موضوعها، في عالم متعدد الأقطاب، رفض الانحياز لطرف من الكتلتين، من أجل الحفاظ على استقلالها هذا الهدف هو هدفنا أيضاً.

لكن الشروط التاريخية تغيرت، نحن اليوم نعيش في عالم وحيد القطب، وعلينا أن ندافع عن مصالحنا: من الثقافة إلى الاقتصاد ضد «السلفية» المدعية الهيمنة العالمية بواسطة لعبة «وحدانية السوق» أعني حرية الأقوى في ابتلاع الضعاف، جاعلة من السوق، أعني من النقود، المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية.

نحن نرفض هذا التصور للعالم بدون الإنسان، نرفض حياة بدون مشروع إنساني، وبدون معنى. ونتحد لنبني عالماً واحداً ثرياً

بتنوعه، وآمناً على مستقبله، من خلال لقاء الشعوب والثقافات في عقيدة مشتركة، تثريها تجربة وثقافة كل شعب، وينعشها مشروع مشترك من أجل منح كل طفل، كل امرأة، كل رجل، أياً كان أصله وتقاليده الخاصة، كل الوسائل من أجل ازدهار كل الامكانيات الإنسانية التي يحملها في ذاته.

2 ـ بالنسبة لأوروبا: من أجل وحدة منسجمة للعالم.

السياسة الوحيدة التي لها اليوم مستقبل هي تلك التي تجد حلاً للمشاكل الأساسية التي تواجهنا.

ـ البطالة.

ـ الهجرة.

ـ الجوع في العالم.

مع كل المشكلات المعنوية والثقافية والنتائج التي تترتب عليها هذه المشكلات الثلاث ليست إلا مشكلة واحدة لا يقدم لها إلا حلول زائفة.

أكثرها زيفاً حلان:

ـ هذه المشكلات سوف تحل بواسطة النمو.

ـ هذه المشكلات سوف تحل بفضل أوروبا ـ الوحدة الأوروبية ـ هاتان الكذبتان الأكثر دموية:

1 ـ النمو لن يحل أياً من مشاكلنا.

الدول والأحزاب السياسية، في البلدان الغربية، لا تطرح هكذا المشكلة أبداً، لأنها يسيطر عليها، منذ خمسة قرون، وهم تنمية يتمثل في الإنتاج أكثر فأكثر، وأسرع فأسرع، وإنتاج أي شيء مفيد وغير مفيد، ضار أو حتى قاتل (مثل المخدرات والسلاح).

هذا النمو، تقدمه وسائل الإعلام، والسياسيين، على أنه العلاج للخروج من الأزمة والبطالة. بينما منذ عام 1975، النمو المتحقق بواسطة مضاعفة الإنتاج لم يعد يخلق فرص عمل، وإنما على العكس يدمرها، بأن يستبدل العمل الإنساني بعمل الماكينات، عام 1980 تنتج بلجيكا 10 مليون طن من الصلب بـ 40 ألف عامل عام 1990 تنتج 12 مليون ونصف بـ 22 ألف عامل فقط. زاد الإنتاج وتقلصت العمالة.

النمو تحفزه مكاسب الإنتاجية المتحققة بفضل العلم والتقنيات والتي أدت إلى استبدال جزء كبير من العمل الإنساني بواسطة عمل الماكينات، واليوم أكثر بواسطة تطور المعلوماتية والروبوتية ـ الإنسان الآلي ـ.

من العبث أن نجرم العلم والتقنية، الشر يأتي من الاستخدام الذي نستخدمها فيه، مثلاً عام 1970 الإنتاجية بفضل هذه الاكتشافات زادت 89%. إن هذا يمثل فرصة للإنسانية لتتخلص من المهام التكرارية الرتيبة. لكنه مأساة بالنسبة لها، عندما في نفس الفترة مدة العمل لم تتقلص، والبطالة تضاعفت أربع مرات هذا يعني أن

مضاعفة الإنتاجية لم يخدم مجموع الإنسانية وإنما خدم فقط ملاك وسائل الإنتاج.

بينما كان يمكن أن يكون هذا خيراً للجميع، إذا مدة أسبوع العمل ربطت بالإنتاجية ـ زيادة الإنتاجية تنعكس في تقليص أسبوع العمل ـ وهذا سيكون خيراً إذا هذه الزيادة في الوقت الحر لم يلتف عليها «سوق الوقت الحر» والذي حول الوقت الحر إلى وقت فراغ، مفرغ من الإنسانية بواسطة نوعية «التلهيات» التي تقترح له، والتي ليست في صالح الازدهار الفيزيقي والثقافي، فضاء الحياة هذا بدلاً من أن يساعد الإنسان على أن يكون إنساناً، أعني مبدعاً، بسبب نظام السوق يتجه إلى أن يجعل منه «عاطلاً» وفي أفضل الأحوال مستهلكاً.

ليس هناك علاقة بين النمو والبطالة:

في فرنسا مثلاً:

* عام 1991 كان النمو 0,7% وهناك 2348000 عاطل 9,4%.
* عام 1992 تضاعف النمو 1,4% وهناك 2500000 عاطل 10,4%.
* عام 1993 انخفض النمو إلى 1% البطالة 2900000 عاطل 11,6%.
* في أبريل 1994 هناك رسمياً 3200000 عاطل.

نحن لسنا ضد النمو، ولا أيضاً ضد تقدم العلوم والتقنية،

خاصة عندما يسمحان بتقليص مشقة الرجال والنساء ولا يقودان إلى استعبادهم واغترابهم، مثلاً، ولا نقدم إلا مثلاً واحداً، «طرق الإعلام السريعة». من أجل التلاعب بالرأي العام في صالح الهيمنة الأمريكية.

لكن النمو ومضاعفة الإنتاجية، حتى مع الترتيبات التي نقترحها لن يحلا مشكلة البطالة، على الأكثر، بمطابقتهما أو توافقهما، كما يريد أرباب العمل والحكومات، مع ضغط الأجور والحماية الاجتماعية يمكنهما أن يسمحا بالحصول على نصيب من السوق العالمي في مواجهة المنافسة الأوروبية والأمريكية واليابانية، لكنها تظل حلولاً مؤقتة[1].

---

(1) يدور الجدل حالياً، في أوروبا، حول تقليص ساعات العمل لإمكانية تشغيل عدد أكبر من العمال، علاجاً لمشكلة البطالة. ويشترط أرباب العمل تخفيض الأجور بالتناسب مع تخفيض ساعات العمل.

هذا الحل عيوبه:

1 ـ تخفيض ساعات العمل وتخفيض الأجور لا يلزمان رب العمل بتشغيل جدد فيستفيد من تخفيض الأجور دون تشغيل عمال جدد.

2 ـ التقدّم التقني يعطي رب العمل هذه الإمكانية. التقنية الحديثة تتطلب ساعات عمل ـ بشري ـ أقل من أجل إنتاج أكثر.

3 ـ تخفيض ساعات العمل والأجور يجعل حتى وإن أديا إلى تشغيل جدد، فإنهما يعنيان أن ساعات العمل الإجمالية ومخصصات الأجور يظلان على ما هما عليه تقريباً. ومعنى هذا أن مجمل القدرة الشرائية يظل على ما هو عليه وبالتالي استمرارية الكساد.

4 ـ الفائدة الوحيدة الواضحة من تخفيض الأجور هي منح الاقتصاد قوة=

2 ـ الكذبة الأخرى: بعد النمو كعلاج تأتي أوروبا.

إن أي مشكلة من المشكلات الحيوية لن تجد حلها في إطار أوروبي. يَعِدُوننا، مع أوروبا، بسوق من 300 مليون زبون، ويتغاضون عن القول أن الأمر يعني أيضاً 300 مليون منافس على سوق العمل، ذلك لأن الاقتصاديات الأوروبية ليست في الأساس تكاملية، وإنما تنافسية، وأكثر من هذا اقتصاديات أمريكا واليابان.

أيعني هذا القول أن البديل الوحيد عن أوروبا هو الإنغلاق الوطني داخل فرنسا، والتقوقع خلف جدران الحماية؟

هذا على العكس سيكون اختناقاً.

الحل الوحيد الممكن هو الانفتاح على العالم في كليته، ما دام بعد 500 سنة من الاستعمار، وخمسين سنة من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، لا زال العالم متصدعاً، باقتصاده المشوه، حيث ثلثي سكان العالم جردهم الغرب من خيراتهم، غير قادرين على الأداء فإن عالم الجوع وعالم البطالة سيظلان متلازمين، بين العالمين تكون الهجرة عبوراً من عالم الجوع إلى عالم البطالة.

حتى وإن فكرنا فقط وفق مصطلحات السوق، كيف نأمل توفير عمل للبعض ما دام مليارات الناس لا يملكون الحد الأدنى الضروري لشراء الغذاء؟.

= تنافسية خارجية تجاه الاقتصاديات الأخرى، إذا لم تحذُ هذه حذوه. وهذا بالطبع لصالح الرأسمالي.

الحل الوحيد الممكن لمشكلة جوع البعض وبطالة الآخرين، وهجرة الجائعين في بحث وهمي عن العمل، هو تغيير جذري في علاقاتنا بالعالم الثالث، واضعاً حداً لسيطرة الغرب وتبعية الجنوب ذلك لأن التبعية هي التي تخلق التخلف.

نحن نعيش في عالم ممزق بين الشمال والجنوب، وفي الشمال كما في الجنوب، بين الذين يملكون والذين لا يملكون 80% من الموارد الطبيعية في العالم يسيطر عليها ويستهلكها 20% من سكان العالم. العشرون في المائة الأكثر ثراء في العالم يستحوذون على 83% من الدخل العالمي العشرون في المائة الأشد فقراً نصيبهم 1,4% من الدخل العالمي.

نتيجة هذا الصدع 40 ألف كائن إنساني يموت كل يوم بسبب سوء التغذية أو ببساطة الجوع. نموذج النمو الغربي يكلف الجنوب ما يعادل ضحايا هيروشيما كل يومين. الهوة تتسع خلال الثلاثين سنة الأخيرة، الفارق بين البلدان الفقيرة والبلدان الغنية انتقل من 1 إلى 30، إلى 1 إلى 150.

وعندما الاستعمار خلال خمسمائة عام ونظام بريتون وودز منذ نصف قرن، خلقا مثل هذه اللامساواة بين الشعوب، فإن التبادل الحر يكفي لكي يزيد سوءاً الهيمنة والتبعية.

كيف نقلب الانحرافات الحالية؟

أولاً بأن ندمر الأسطورة التي تسمّي حرية السوق ديمقراطية،

السوق الحر هو قاتل الديمقراطية، بسبب تراكم الثروة في يد قلة من المجتمع، والفقر نصيب الأغلبية.

هذا يتضمن بعض القرارت السياسية المستهدفة جميعها التحرر من العولمة المزعومة للاقتصاد، أعني من الإرادة الأمريكية، لجعل فرنسا وأوروبا وبقية العالم مستعمرة مفتوحة كمنافذ لاقتصادها في كل المجالات: من الصناعات الغذائية وحتى الطائرات والمعلوماتية والسينما.

إنه يتضح كل يوم أن ماستريخت هي سبب أساسي للشر، ليس فقط بالنسبة للمزارعين عندما تطلب بقاء أراضٍ بدون زراعة، وإنما أيضاً كل العمال، عندما تشجع، بحجة القدرة التنافسية الأوروبية تسوية قاعدية لشروط العمل، تحت اسم مرونة، وتصفية كل صناعاتنا من الطيران وحتى المعلوماتية، والحط من ثقافتنا بسبب غزو السينما والتلفزيون الأمريكي، وعندما تجعل من جيشنا احتياطيا للتدخلات الأمريكية، معاهدة ماستريخت تعلن ثلاث مرات أن «أوروبا لا يمكن أن تكون إلا قاعدة أوروبية لحلف الأطلسي».

أما بالنسبة للاقتصاد، المادة 301 من القانون الأمريكي، تسمح بحماية الإنتاج الأمريكي، بينما منظمة التجارة العالمية تفرض على جميع الآخرين تبادلاً حرّاً والذي يفسح المجال أمام كل الواردات الأمريكية.

قانون هيلمز بورتون 1996، وداماتو ـ كنيدي، اللذان صوت عليهما في الكونغرس الأمريكي، يدعى أنهما مفروضان على

الجماعة الدولية، ويمنع هذان القانونان أي تجارة مع البلدان المحددة من قبل أمريكا وحدها: القادة الأمريكان يشرعون هكذا للعالم كله.

مقاومة جديدة تفترض، ليس فقط رفض ماستريخت، وإنما أيضاً الإنسحاب من صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومن كل المؤسسات الأخرى المستخدمة أداة لإرادة الهيمنة الأمريكية.

انطلاقاً من هذا، استعادة الحرية من أجل إقامة علاقات جديدة جذرياً، مع العالم الثالث، بهدف محدد: تشجيع الشعوب الأوروبية على أن تنخرط في نفس الاتجاه:

1 ـ إلغاء تام للديون، والتي ليس لها لا أساس تاريخي ولا مبرر.

2 ـ إلغاء كل مساعدة مالية لحكومات العالم الثالث.

مثلاً 40 مليار فرانك مخصصة للتنمية، هذا هو مجمل المساعدة العمومية الفرنسية، والتي هدفها الرسمي: دعم يمنح لأفقر بلدان العالم 95% من هذا المبلغ، ليس مساعدة، ولا يصنع تنمية، على الأكثر إنه ينتزع من محفظة دافعي الضرائب ليملأ جيوب بعض المستفيدين الحكوميين (في الشمال كما في الجنوب) وفي أسوأ الأحوال أنه يقتل[1] آخر. مثل لما استخدمت فيه هذه المساعدات:

---

(1) يشير هنا إلى أن نسبة عالية مما يخصص مساعدات للعالم الثالث لا يصل هدفه، جزء منه يذهب إلى جيوب رجال الحكومة المانحة، وجزء آخر إلى جيوب =

- في رواندا، تمويل حكومة القتلة، طالما أمكن الإبقاء عليها في الحكم، ثم تمويل عملية «توركواز» لتسهيل عبورهم إلى زائير حيث يحاولون إعداد العدة للانتقام.

- في الجزائر ستة مليارات للحكومة المعلنة من ذاتها والتي أوقفت الانتخابات بدون وجه حق، وبيع - إلى نفس الحكومة - طائرات حوامة وهي سلاح ممتاز ضد العصابات.

3 - قروض عامة أو خاصة تمنح، ليس للحكومات، ولكن مباشرة إلى منظمات قاعدية «تعاونيات، نقابات، جماعات المنتجين، ولمشروعات محددة ذات نفع عام. في المقام الأول المناطق الزراعية بهدف الاكتفاء الذاتي الغذائي (معدات زراعية، أدوات حفر الآبار، بناء طرق، مستشفيات، مدارس. . ».

4 - قبول تسديد هذه القروض بالعملة الوطنية لهذه البلدان (من أجل تشجيع الاستثمار في نفس المكان بدلاً من ترحيل الفوائد).

5 - إجراء مطابقة نزيهة بين أسعار المنتجات المباعة من بلدان

= رجال الحكومة الممنوحة، أو حساباتهم في أوروبا، وجزء آخر يصرف على السلاح الذي يقتل الشعوب، هذه الواقعة للأسف صحيحة ما يدفع مساعدات لا يصل في الغالب هدفه، حسابات السياسيين في الشمال كما في الجنوب تشهد على ذلك. ولإرغام الشعوب على قبول حكومات فاسدة ينفق جزء من المساعدات في شراء السلاح.

الجنوب مع أسعار المنتجات المباعة من بلدان الشمال[1].

6 ـ ضد الشركات الضخمة أو المشروعات الضخمة المستهدفة خصوصاً استثمارات الشركات الكبيرة، يجب احترام تاريخ وثقافة كل شعب كما يجب الاستخدام الواسع قدر الإمكان للتقنيات المحلية، والتي أحياناً هي مناسبة أكثر، وأكثر فعالية، لأنها متكيفة مع الحاجات المحلية. التطور يصير هكذا محليّاً، بدلاً من أن يكون سطحياً، بدون علاقة مع البلد واحتياجاته الحقيقية، مجرد نموذج غربي استورد وفق مصالح الشركات الكبرى الأجنبية[2].

هذا الانقلاب الصناعي الضروري من أجل الاستجابة لحاجات الجنوب الحقيقية، يمكنه على المدى، أحداث تغيير في «عقليتنا» بأن

---

(1) حالياً التبادل غير متكافيء وغير عادل، السوق الحر يزيده سوءاً الشمال يستورد من الجنوب بأسعار رخيصة، ويبيعه منتجات بأسعار أغلى. مما يجعل اقتصاديات الجنوب في حالة عجز بالنسبة للشمال، وفي حاجة مستمرة للمساعدة. حتى في حالة النفط، الضريبة على الاستهلاك التي تحصلها البلدان المستوردة تفوق نسبة ما يتحصل عليه البلد المنتج عن كل برميل. مع ذلك نجد من يندد بارتفاع أسعار النفط وأن سببه الدول المنتجة، والتي إضافة إلى ما سبق ارتفاع الأسعار مما تستورده يجعل في الواقع أسعار النفط تنخفض لا ترتفع.

(2) في بعض البلدان ـ على الأقل ـ التي تعاني المجاعة اليوم. كان السكان يعيشون على نباتات تنمو على أرضهم. إدخال استهلاك القمح جعلهم يغيرون من عاداتهم الاستهلاكية. لكنه في نفس الوقت جعلهم تحت رحمة السوق العالمي والهبات ـ وتوابعها السياسية ـ لأن القمح لا ينمو على أرضهم. **المترجم**.

نشجع نحن أيضاً ما يستجيب لاحتياجاتنا الحقيقية وليس للسلام وتوابعه.

ما ظل ثلاثة مليار من الكائنات الإنسانية، من خمسة مليار، دون إشباع حاجاتهم، هل يمكن الحديث عن سوق عالمي؟

هل نقبل الزعم بأن هذا الاختلال لا يمكن تفاديه عالمياً، وأن نقبل هذا الواقع الذي ينتج الاقصاء والعنف والنزعات الوطنية والسلفية دون أن نضع موضع سؤال أسس الغوغائية العالمية الحالية؟!

1 ـ ضد كل أكاذيب العولمة الاقتصادية، والتي ليست إلا وريث الهيمنة الاستعمارية، المتحدة اليوم تحت قيادة الولايات المتحدة: يجب تأسيس عولمة حقيقية.

2 ـ ضد أوهام النمو الأعمى، الناتجة عن اقتصاد السوق المتحكم في كل العلاقات الاجتماعية: يجب المطالبة بالتحولات الضرورية، التي تسمح بإعداد ما يمكن أن أدعوه: تعريف الاشتراكية: منح كل طفل، كل النساء، كل الرجال، أياً كانت الحضارة التي ينتمون إليها، الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية، من أجل تطوير كل الثروة التي يحملونها في أنفسهم.

الخلاصـة

إن هدف هذه الأفكار المتناثرة هو إعداد قرن واحد وعشرين، قابلٍ للحياة حتى النهاية. بينما إذا استمرينا وفق الانحرافات الحالية، فإننا نكون في طريقنا لتدمير الإنسان: مليارات بسبب الجوع في جنوب الكرة، حيث نموذج النمو الغربي، يكلف الفقراء ضحايا قنبلة هيروشيما كل يومين، وعندنا حياة بدون هدف وبدون أفق، إذا لم نضع حداً لصدع العالم هذا، بسبب مضاعفة البطالة والإقصاء والعنف والمخدرات.

هذا الكتاب دعوة لمقاومة اللامعنى، ودعوة إلى بناء عالم واحد مؤسس على مبادىء أخرى غير تلك التي قادت الغرب بكامله إلى الانحطاط والعالم إلى الاحتضار.

في هذا النصف الأخير من القرن العشرين، الآمال ماتت، بعد حربين تسببتا في موت 80 مليون إنسان، وبعد إفلاس ثورة، والتي على انقاض الحرب العالمية الأولى، جسدت لوقت قصير آمال الناس وقدمت خلال الحرب العالمية الثانية تضحيات بطولية لدحر

النازية، لقد خانت الاشتراكية، لأنها قلدت نموذج النمو الغربي، وبسبب مركزية بيروقراطية.

الوهم المئوي بالحلم الأمريكي تحول إلى كابوس أمريكي، بسبب إرادة الهيمنة العالمية عند قادة أمريكا، وإفراطها الهمجي في التسلح وبسبب نفاق «ليبرالية» اقتصادية مفروضة على الشعوب للاستحواذ على أسواقها، وبواسطة اختلاق متوالٍ «لامبراطوريات الشر» من أجل تبرير، بحجة النضال ضد الإرهاب، إرهابها نفسه وجرائمها ضد الإنسان وضد الإنسانية، ضد الهنود، السود، الڤيتنام، الحصار المفروض على كوبا، ليبيا، إيران، العراق الذي اليوم، كما يشهد الصليب الأحمر، تقتل فيه الولايات المتحدة 250 ألف طفل، وفي الولايات المتحدة نفسها طفل من كل ثمانية، كما تقول اليونيسيف لا يشبع جوعه.

هؤلاء المدافعون عن حقوق الإنسان، إضافة إلى جرائمهم الخارجية ضد الإنسانية، فإنهم في داخل بلدانهم يسجلون الرقم القياسي في استهلاك المخدرات وانتحار المراهقين، كما في الجريمة وفي الفساد. السينما عندهم تغطي تحت ديكورات الأحلام دناءة ذئاب دالاس وواقع عنف ديناصوراتها.

وسائل إعلامها، تلفزيوناتها، طريقها السريعة للإعلام، شعاع الموت الذي يدمر، على مستوى العالم، الروح النقدية، ويزهق الروح ببساطة كما يدمر الثقافة والعقيدة والآمال والحب عند خمس مليارات من البشر.

مشروع هذا الكتاب أن يبرهن على أن ولادة الإنسانية من جديد وحتى بقاءها حية يتطلب بناء مستقبل على أسس أخرى.

محصلة هذا القرن يسيطر عليها، ليس إفلاس الاشتراكية المغدور بها، وإنما إفلاس آدم سميث، والذي ليبراليته، وقد دفعت إلى أقصى نتائجها، تهدد اليوم بانتحار عالمي.

كيف نفتح أفقاً جديداً؟ مستقبلاً ذا وجه إنساني ما وراء حقول الدمار لما قبل التاريخ الحيواني للإنسان والذي ينتهي مع القرن العشرين؟

من أجل هذا يجب العثور على أخطاء توجيه التاريخ الإنساني.

أول انفصال للغرب كان انفصال سقراط (والذي مثّل بداية الانحطاط) كما قال «نيتشه»، وتلاميذه أفلاطون وأرسطو، لقد حرفا، خلال ألفين وخمسمائة عام التاريخ الثقافي - العقلي للغرب من خلال «فلسفة الوجود» والتي هي أساس كل الهيمنات.

لقد حاولنا القيام بمسيرة «فلسفة الفعل»، فلسفة كل بقية الإنسانية، منذ بداية ولادة أول أداة، أول قبر، أول حلم عن حياة خلاقة خالدة.

الانفصال الثاني للغرب كان مع الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش ضد كل حكمة الشرق.

الانفصال الثالث للغرب كان النهضة المزعومة، التي استخدمت الاكتشافات العلمية والتقنية، التي أنجزت في الشرق

(البوصلة، الدفة، البارود، المطبعة. . .) لتجعل منها أدوات احتلال الشعوب والأرواح.

بدأ هذا الانفصال عام 1492، مع آخر عمليات طرد ثقافة الشرق عندما تم الاستيلاء على غرناطة، واحتلال وتدمير ثقافات الهنود الحمر بسبب الشراهة للذهب، ابتداء من كريستوف كولومب.

إذن 2500 عام من سيادة فلسفة الهيمنة يجب وضعها موضع سؤال من أجل افتتاح مستقبل الإنسان، وتقديم بديل عن الوحدة الامبريالية للعالم. يتمثل البديل في وحدة انسجامية، تقوم على حكمة وثقافات العوالم الثلاث، من أجل وضع الإنسانية على الطريق الصحيح: إخصاب متبادل بين كل الثقافات، ووضع نهاية للأطماع القاتلة المترتبة عن المركزية العرقية الأوروبية، وعن الهيمنة.

هذا يفترض أيضاً سمات أخرى «للتقدم» غير قوة التقنية، أو الثروة، أو الناتج الوطني الخام. من أجل تعريف «النمو» ليس من خلال التطور الاقتصادي وحده، وإنما من خلال نمو الإنسان.

هذا يفترض على المستوى اللاهوتي أن نعيد للإنسان بعده الأساسي: التعالي، منظوراً إليه لا على أنه خارجية، إله امبراطور، يقود من الخارج ومن فوق، مصير الإنسان والامبراطوريات وإنما على أنه بزوغ، جديد جذرياً، بواسطة فعل الإنسان الخلاق مع الوعي (لكي نستخدم لغة الآباء الشرقيين للكنيسة)، بأن الله تحول إلى إنسان لكي يتحول الإنسان إلى الله. لهذا تجب القطيعة مع الرأي

الشائع بأن (التاريخ المقدس هو تاريخ قبيلة وحيدة) ولكن على العكس التاريخ المقدس يكشف عن جذوره في كل عائلات الأرض، في كل الثقافات والحضارات، من الهنود الأمريكان إلى الأفارقة والآسياويين.

هذا يفترض على المستوى الجمالي، انقلاباً عميقاً في دراسة الفعل الخلاق للإنسان، ألا نختزل الجمال إلى النماذج الغربية، الإغريقية وعصر النهضة في القرن السادس عشر. وإنما أن نخرج من المتاحف الأقنعة البولينيزية والأفريقية، ونقوش وهندسات الهنود الأمريكان، وأن نعترف بالابعاد «النبوئية» في فنون الصين في عهد سونق، ودعوات بوذا إلى الباطنية، وماترا.. في جنوب آسيا.

هكذا فقط تستطيع الفنون الخروج من هيمنة ارسطو، وألا تقيم وفق سمات عصر النهضة الأوروبية. الخروج أيضاً من مجرد النفي والتمرد، الذين قادا إلى فساد الفن المسمى «عصريّاً» والذي يعتقد أنّه عصري قدر جهله بالماضي. فيعطي ما يدعوه لوحات أو نحتاً شكلاً يشبه مرمى النفايات، ويستبدل تاريخ الموسيقى بتاريخ الضوضاء. أو الرقص الأصيل بالحركات الهستيرية الخالية من كل معنى إنساني.

أحد الفنانين الأكثر إبداعاً في عصرنا، رائد الكوبيزم[1] جان

---

(1) الكوبيزم: أو التكعيبية: نشأ المصطلح عام 1908 يشير إلى مدرسة فنية ازدهرت من 1910 إلى 1930 تقوم في امتثال الموضوعات مفككة من عناصر هندسية بسيطة - مكعب - دون استعادة ملامحها. المترجم.

قريز يذكر بأن «مجد فنان ما يتوقف على قوة الماضي الذي يحمله، ليس من أجل تقليد القدماء والاحتفاظ بأساليبهم المتفق عليها، وإنما من أجل تخليد إشعاع النبوئية، والذي أعظمها كان من أجل تحرير إمكانات، دائماً جديدة، لأنسنة الإنسان».

هذا يفترض على المستوى الاقتصادي والسياسي تحطيم أصنام «العلوم الإنسانية» المزعومة، والتي مناهجها تقلد مناهج العلوم الطبيعية، وتقوم هكذا على تصور اختزالي للإنسان، مثلاً «الإنسان الاقتصادي» والذي ليس إلا منتجاً أو مستهلكاً، تحركه مصالحه وحدها. إنها مسلَّمة قاتلة، والتي حاول الاقتصاديون إخفاءها تحت ستار جهاز رياضي وهمي ومجرد، من أجل إعطاء مظهر علمي لما ليس في الحقيقة إلا اديولوجيا تستهدف تخليد النظام القائم.

قلب هذا التصور يعني البحث، عن طريق الإلمام بتصورات أخرى للإنسان، والتي ظهرت في قلب ثقافات أخرى، عن وسائل خلق، من أجل الجميع، شروط تقنية «اقتصادية» سياسية روحية، تسمح لكل موجود إنساني (رجل وامرأة) أن يصير إنساناً. أعني شاعراً، بالمعنى الأشد عمقاً للكلمة: وهو خلق ممكن للمستقبل.

هذا هو الهدف الذي حددناه لأنفسنا. إنه يتجاوز إمكاناتنا، إنه ليس إلا مقترحات، لا تطمح إلا إلى المساعدة على تنويع نظرتنا للعالم، حتى يمكن للأرواح الأكثر رحابة، والعاملة في جماعات البحث والعقيدة، بناء عالم ـ أخيراً ـ إنساني.

في نهاية هذه المحصلة، لهذه المحاولة التركيبية، وهذه المقترحات، إنها شهادة حياة حاولت أن تكون في هوية مع القرن من خلال فلسفة الفعل، والتي جعلني البحث فيها أعبر «الفعل» المسيحي لموريس بلوندل، وجهد ماركس البروميثي، والنظرة الدينامية للعالم في القرآن. إن ما يستحوذ على اهتمامي ليس الاقتراب من نهاية حياتي الشخصية، وإنما أن ألمح بسعادة أول خطوط حياة جديدة في القرن الذي سوف يولد والذي ربما لن آراه.

أعمال الدكتور رجب بودبوس

1 ـ **الآله الجهنمية ـ القدر ـ جان كوكتو**، قورينا ـ كلية الآداب، 1971، مسرحية ترجمة.

2 ـ **في انتظار قودو ـ صمويل بيكيت**، صحيفة الحقيقة، 1971، مسرحية ترجمة

3 ـ **التخيل ـ رسالة ماجستير**، مخطوطة، 1973، باللغة الفرنسية

4 ـ **في المنفى**، دارقورينا، 1975، رواية

5 ـ **ثلاثي المثالية**، الدار الجماهيرية 1976، دراسة

6 ـ **انطولوجيا الحرية ـ رسالة دبلوم دراسات عليا**، مخطوطة، 1976، باللغة الفرنسية

7 ـ **مشكلة الحرية ـ رسالة دكتوراه**، مخطوطة، 1977، باللغة الفرنسية

8 ـ **محاضرات في النظرية العالمية الثالثة**، الدار الجماهيرية، 1980

9 ـ **في الحل الاشتراكي**، الدار الجماهيرية، 1982

10 ـ **أخلاق الاجتماع**، دار المعارف تونس، 1983

11 ـ **نحو تفسير اجتماعي للتاريخ**، الدار الجماهيرية، 1984

12 ـ **محاولة في علم الثورة**، الدار الجماهيرية، 1985

13 ـ **المحافظية والتقدمية** ـ أعمال ندوة جنيف، I.P.O، 1985، باللغة الفرنسية

14 ـ **الدين والعقل**، الدار العربية تونس ـ ليبيا، 1987

15 ـ **الارهاب وضد الارهاب** ـ أعمال ندوة جنيف، I.P.O، 1987، باللغة الفرنسية

16 ـ **الفوضوية**، معهد الإنماء العربي بيروت، 1989،

17 ـ **تفسير اقتصادي**، الدار الجماهيرية، 1989

18 ـ **مواقف 1**، الدار الجماهيرية، 1989

19 ـ **أدبيات**، الدار الجماهيرية، 1992

20 ـ **الإسلام ومسألة الحكم**، الدار الجماهيرية، 1993

21 ـ **مواقف 2**، الدار الجماهيرية، 1993

22 ـ **قيام وانهيار القوى الكبرى ـ بول كندي**، الدار الجماهيرية، 1993، مراجعة وتقديم

23 ـ **فكرة ما عن الجمهورية ـ ج ب شوفانمو**، الدار الجماهيرية، 1993، مراجعة

24 ـ **اللعبة الكبرى ـ هنري لورانس**، الدار الجماهيرية، 1993، مراجعة

25 ـ **مواقف 3**، الدار الجماهيرية، 1994

26 ـ **مدخل إلى الفلسفة ـ جلبير بوس**، الدار الجماهيرية، 1994، ترجمة وتقديم

27 ـ **الرأسمالية والاشتراكية ـ البيرتيني**، الدار الجماهيرية، 1994، ترجمة وتقديم

28 ـ **مواقف 4**، الدار الجماهيرية، 1994

29 ـ **عالم القطب الواحد والديمقراطية** ـ ندوة معهد الفلسفة جامعة انسبروك ـ النمسا، I.P.O، 1995، باللغة الفرنسية

30 ـ **مواقف 5**، الدار الجماهيرية، 1995

31 ـ **فلسفة الفلسفة ج1 ـ ما الفلسفة**، الدار الجماهيرية، 1995

32 ـ **فلسفة الفلسفة ج2 ـ مباحث الفلسفة**، الدار الجماهيرية، 1995

33 ـ **فلسفة الفلسفة ج3 ـ مشكلات الفلسفة**، الدار الجماهيرية، 1995.

34 ـ **تبسيط الفلسفة**، الدار الجماهيرية، 1996

35 ـ **مواقف 6**، الدار الجماهيرية، 1996

36 ـ **محاضرات في الفلسفة المعاصرة**، دار الأنيس، 1996

37 ـ **قضايا سياسية**، الدار الجماهيرية، 1996، مشترك

38 ـ **القاموس** ـ سياسي، الدار الجماهيرية، 1996

39 ـ **بعد الشيوعية سقوط الرأسمالية**: رافي بترا، الدار الجماهيرية، 1998، ترجمة وتقديم.

40 ـ **مواقف 7**، الدار الجماهيرية، 1998

41 ـ **مواقف 8**، الدار الجماهيرية، 1998

42 ـ **مواقف 9**، الدار الجماهيرية، 1998

43 ـ **الولايات المتحدة طليعة الإنحطاط**، الدار الجماهيرية، 1998

روجيه قارودي من خلال هذا الكتاب، وغيره، صار يدعو إلى أولوية الحياة الروحية، وبعث البعد الروحي في الإنسان الذي يتحول إلى «روبوت» في عالم بدون هدف وبلا معنى. وتنمية الإنسان ليكون إنساناً في عالم إنساني، وليس أداة إنتاج وزيادة «الدخل الوطني الخام».

هذا كتاب يستحق القراءة وبعناية، إنه حصيلة رحلة طويلة وشاقة، ثرية بالتجارب والمواقف: في الفكر وفي السياسة والاقتصاد والعقيدة، قادت مؤلفه، من الأرثوذكسية الماركسية، إلى صوفية تؤمن بكل الأديان.


الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

مصراتة: ص. ب. 17459 ـ هاتف: 614658 ـ 051 ـ بريد مصور 619410 ـ 051
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى